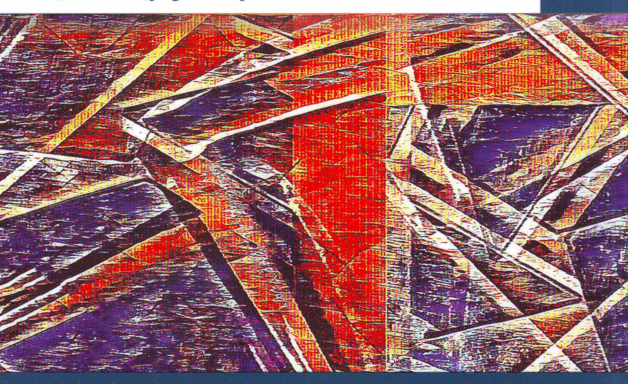
مارك بلوخ

الهزيمة الغريبة

شهادة نُظّمت في عام ١٩٤٠

ترجمة: عومرية سلطاني

ترجمان



المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies

هذه السلسلة

في سياق الرسالة الفكرية التي يضطلع بها «المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات»، وفي إطار نشاطه العلمي والبحثي، تُعنى «سلسلة ترجمان» بتعريف قادة الرأي والنخب التربوية والسياسية والاقتصادية العربية إلى الإنتاج الفكري الجديد والمهم خارج العالم العربي، من طريق الترجمة الأمينة الموثوقة المأذونة، للأعمال والمؤلفات الأجنبية الجديدة أو ذات القيمة المتجددة في مجالات الدراسات الإنسانية والاجتماعية عامة، وفي العلوم الاقتصادية والاجتماعية والإدارية والسياسية والثقافية بصورة خاصة.

وتستأنس «سلسلة ترجمان» وتسترشد بآراء نخبة من المفكرين والأكاديميين من مختلف البلدان العربية، لاقتراح الأعمال الجديرة بالترجمة، ومناقشة الإشكالات التي يواجهها الدارسون والباحثون والطلبة الجامعيون العرب كالافتقار إلى النتاج العلمي والثقافي للمؤلفين والمفكرين الأجانب، وشيوع الترجمات المشوَّهة أو المتدنية المستوى.

وتسعى هذه السلسلة، من خلال الترجمة عن مختلف اللغات الأجنبية، إلى المساهمة في تعزيز برامج «المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات» الرامية إلى إذكاء روح البحث والاستقصاء والنقد، وتطوير الأدوات والمفاهيم وآليات التراكم المعرفي، والتأثير في الحيز العام، لتواصل أداء رسالتها في خدمة النهوض الفكري، والتعليم الجامعي والأكاديمي، والثقافة العربية بصورة عامة.

الهزيمة الغريبة

شهادة نُظّمت في عام 1940

مارك بلوخ

ترجمة

عومرية سلطاني

مراجعة

يوسف معوّض



المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies

الفهرسة في أثناء النشر - إعداد المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات

بلوخ، مارك

الهزيمة الغريبة: شهادة نُظّمت في عام 1940/ مارك بلوخ؛ ترجمة عومرية سلطاني؛ مراجعة يوسف معوض.

184 ص.؛ 24 سم. - (سلسلة ترجمان)

يشتمل على ببليوغرافية (ص. 175) وفهرس عام.

ISBN 978-614-445-396-4

1. الحرب العالمية الثانية، 1939-1945 - فرنسا. 2. فرنسا - تاريخ - القرن 20. 3. العسكريون الفرنسيون.

أ. سلطاني، عومرية. ب. معوض، يوسف. ج. العنوان. د. السلسلة.

944.0816

هذه ترجمة لكتاب

L'Étrange défaite
Témoignage écrit en 1940

by Marc Bloch

عن دار النشر
Société des Éditions Franc-Tireur 1946

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن
اتجاهات يتبناها المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات

الناشر

المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies

شارع الطرفة - منطقة 70
وادي البنات - ص. ب: 10277 - الظعاين، قطر
هاتف: 00974 40356888

جادة الجنرال فؤاد شهاب شارع سليم تقلا بناية الصيفي 174
ص. ب: 4965 11 رياض الصلح بيروت 2180 1107 لبنان
هاتف: 8 1991837 00961 فاكس: 1991839 00961
البريد الإلكتروني: beirutoffice@dohainstitute.org
الموقع الإلكتروني: www.dohainstitute.org

الطبعة الأولى

بيروت، أيار/ مايو 2021

«... أقولها بصراحة: أتمنى في كل الأحوال أن يبقى لدينا دائمًا دمٌ نبذله... ولا أقصد دمي أنا الذي لا أُعيره تلك الأهمية...»

مارك بلوخ، أيلول/ سبتمبر 1940

المحتويات

الفصل الأول

تعريف بالشاهد

لستُ أدري ما إذا كانت هذه الصفحات ستنشر يومًا، إذ من المحتمَل في أيِّ حال أنه، ولمدة طويلة، لن يطّلع أحد عليها خارج محيطي الخاص إلّا سرًّا وبحذر، لكني على الرغم من ذلك قررتُ أن أدوّنها. سيتعيّن عليَّ بذْل الكثير من الجهد وكم هو سهل أن أستسلم للتعب والإحباط! لكن قيمة أيّ شهادة تكمن في لحظة نضارتها الأولى، وأنا لست على قناعة بأن هذه الشهادة لن تكون مفيدة. لديَّ أملٌ راسخٌ بأنه، عاجلًا أم آجلًا، ستزدهر مواسم حرية الفكر والرأي مرة أخرى على تراب فرنسا المبارك والمعطاء، وحينئذٍ ستُفتح الملفات الخفية. إنّ الغشاوة التي تغطّي أفظع انهيار شهده تاريخنا، والتي تراكم كمًّا من الجهل أحيانًا، ومن سوء النية أحيانًا أخرى، ستتبدّد تدريجًا. وربما سيتمكّن الباحثون من إيجاد بعض الفائدة، إن أحسنوا التنقيب، في مراجعة بعض صفحات التقرير الذي وضع في عام 1940.

*

لستُ هنا بصدد كتابة ذكرياتي. فالمغامرات الشخصية الصغيرة التي يعيشها جنديٌّ خالط كثيرًا من الجنود أمثاله، ليست لها أيّ أهمية في وقت نواجه فيه همومًا لا تتيح مجالًا للطرافة أو الفكاهة. ولأنّ لا بدّ للشاهد من الإدلاء بإفادة شخصيّة، فمن الضروري، قبل أن أعمَد إلى سردها، أن أحدّد المنظار الذي به شاهدت الأمور.

إنَّ كتابةَ التاريخ وتدريسَه مهنتي منذ أربعة وثلاثين عامًا، وهو عملٌ يتيح لي تصفُّح وثائق كثيرة تعود إلى أزمنة مختلفة، بحيث أبذل ما أمكنني من جهد للوقوف على الصحيح منها وتجنّب المزيَّف، كما يتطلب مني أيضًا الكثير من

الملاحظة وإمعان النظر. فأنا أعتقد، كما يقول أستاذي بيران[1]، أن واجب المؤرخ الأول هو الاهتمام بـ «الحياة». وبفضل الاهتمام الخاص الذي أوليتُه للتفصيلات الريفية في أعمالي[2]، صرتُ مقتنعًا بأن فهمَ الماضي يستحيل من دون إمعان النظر في الحاضر. فمقدرة المؤرخ الريفيّ على تأمُّل شكل الحقول لا تقلّ أهمية عن قدرته على فكّ الطلاسم في الكتب القديمة. وقد حاولتُ تطبيق هذه المعايير المتعلقة بالنقد والملاحظة بنفسٍ صادقة، كما سأنكبّ على دراسة الأحداث المأساويّة التي وجدت نفسي في خضمّها فاعلًا بسيطًا.

إنّ هذه المهنة التي اخترتُها تعتبر عادة أبعدَ ما تكون من المغامرة، لكن المصير الذي تشاركتُه مع جميع أفراد جيلي تقريبًا، ألقى بي بعيدًا عن هذه المسارات المسالمة لمرتين اثنتيْن خلال فترة واحد وعشرين عامًا. علاوة على ذلك، زوّدني مصيري هذا بتجربة ذات أوجه مختلفة لأمة تحت السلاح[3]، تجربة أعتبرها استثنائية إلى حدٍّ ما. لقد شاركتُ في حربين: الأولى في شهر

---

(1) هنري بيران (Henri Pirenne) (1935-1962)، أستاذ تاريخ بلجيكي شهير عرف بدعوته إلى اعتماد المنظور المقارن في دراسة التاريخ وهو ما أخذه عنه تلميذه بلوخ. (المترجمة)

(2) وُلد مارك بلوخ في عام 1886، وشارك في الحرب العالمية الأولى كما الثانية، وجاء كتاب **الهزيمة الغريبة** (*L'Etrange Défaite*) خلاصة للتجربة التي عاشها عند انهيار الجيوش الفرنسيّة في وجه الغزو الألماني في أيار/ مايو 1940. أعدم على أيدي النازيين في عام 1944. عرف بانتمائه إلى مدرسة تاريخية خاصة، رفقة لوسيان فيفر ومن بعدهما فرنان بروديل، وهي مدرسة تأثرت بمجال علم الاجتماع والمدرسة الفرنسية الرائدة فيه، حيث الاهتمام بالواقع الموضوعي للمجتمعات وللإنسان، وليس الاقتصار على التاريخ السياسي والعسكري للدول والحكومات والملكيات وغيرها. ركزت أعمال بلوخ المبكرة على دراسة التاريخ الريفي في فرنسا خلال عصر الإقطاع، مثل كتاب **السمات الأساسية للتاريخ الريفي الفرنسي** (1931) (*Les Caractères originaux de l'histoire rurale française*)، إضافة إلى كتاب **المجتمع الإقطاعي** (*La Société féodale*). (المترجمة)

(3) الأمة تحت السلاح (La Nation en armes) مفهوم عسكري - سياسي ظهر في أوروبا وفي فرنسا خصوصًا، بسبب الحروب الصغيرة التي نشأت بين الإمارات والممالك الأوروبية في عقب العصر الإقطاعي، ثم الحروب الدينية التي انتهت بولادة الدولة القومية الحديثة في عام 1648، حتى الثورة الفرنسية في عام 1789، إضافة إلى الاضطرابات الداخلية المرتبطة بهذه الأجواء غير المستقرة، والتي أفضت إلى حالة مستمرة من الاستعداد لخوض الحروب والصراعات بغية الحفاظ على البقاء. يحيل المصطلح إذًا إلى أن الأمة تظل على «أهبة الاستعداد» لمواجهة هذه الاضطرابات الداخلية والخارجية، وأهم المؤشرات الدالة على ذلك على الإطلاق هو التجنيد الإجباري للرجال والنساء. (المترجمة)

آب/ أغسطس 1914 برتبة رقيب في سلاح المشاة، فكنتُ على مستوى جندي بسيط ضمن رهطي، تولّيتُ في أثنائها، وعلى التوالي، منصب رئيس حظيرة، ثمّ ضابط استخبارات، ثم صرت ملحقًا بقيادة الفوج، وأخيرًا، مساعدًا لقائد الفيلق برتبة نقيب. أما حربي الثانية، فقد عايشتُ معظمها على مستوى آخر من التراتبية العسكرية في هيئة أركان جيش على علاقات مستمرة بهيئة الأركان العليا. وقد سمح لي هذا الانتقال ما بين المؤسسات والأوساط الإنسانية بين المحاربين، باكتساب تجربة اتسمت بالكثير من التنوع.

أنا يهوديّ، ليس من حيث الديانة، إذ لا أمارس أيَّ ديانة، بل أنا يهوديّ من حيث الولادة. ولا يُشعرني ذلك بفخر ولا بخزي، طالما أعتقد، بصفتي مؤرخًا جيّدًا بما فيه الكفاية، أن السمات العرقية ليست سوى وهم، وأن مفهوم السلالة النقيّة هو سُخف صريح للغاية حينما يُطلق، كما هو الحال عندنا، على ما كان يمثّل في الواقع مجموعة من المؤمنين الذين تمّ جمعهم في الماضي من جميع أنحاء العالم المتوسطي، والتركي - الخزري[4]، والسلافي. وأنا لا أستدعي أصولي اليهودية إلا في حالة واحدة فقط، ذلك حين يتعلق الأمر بمواجهة شخصٍ معادٍ للسامية. ولكن ربما الذين يعترضون على شهادتي هذه، سيلجأون إلى الطعن بها على اعتبار أنّي «دخيل»، ودحضًا لزعم هؤلاء سأكتفي بالقول إن جدّي الأكبر كان جنديًّا في عام 93، وأنّ والدي خدم في الجيش في عام 1870 إبّان حصار ستراسبورغ، وأنه اختار هو واثنان من أعمامي مغادرة موطنهم في الألزاس طواعية بعد ضمّ هذه المقاطعة إلى الرايخ الثاني. وأضيف أنني نشأتُ في ظل هذه التقاليد الوطنية التي كان النازحون اليهود من الألزاس يحافظون عليها بحماسة. وأخيرًا، أؤكّد أنّ فرنسا التي يتآمر بعضهم لطردي منها اليوم، وربما ينجحون في ذلك (من يدري؟)، ستبقى، ومهما حدث، الوطن

(4) الخزر عرق تركي قديم (وإن كان ثمة اختلاف في نسبته إلى الأتراك). استقروا في القوقاز والفولغا، وامتدت سيطرتهم حتى قرابة القرن العاشر الميلادي، حتى حدود البحر الأسود وبحر قزوين. اعتنقوا اليهودية في القرن السابع الميلادي، وتحوّل بعضهم إلى المسيحية والإسلام بفعل علاقات هذه الشعوب بجيرانها من البيزنطيين والعرب المسلمين. وتقول مصادر إنهم أسلاف اليهود الأشكناز المسيطرين اليوم على يهود إسرائيل والعالم. (المترجمة)

الذي لن يقتلعه من فؤادي أحد. فرنسا، التي وُلدت فيها وتشربتُ من ينابيع ثقافتها، وتبنّيت ماضيها، والتي لا يحلو لي التنفس إلّا تحت سمائها، سوف أسعى بدوري للدفاع عنها بكل ما أوتيتُ من قوة.

أسرَّ إليَّ ضابط شاب، بينما كنا نتحدث قرب أحد الأبواب في بلدة مالو لي بان (Malo-les-Bains) بعد تعرُّضها للقصف، فقال: «هذه الحرب علّمتني الكثير من الأشياء، من بينها أنّ ثمّة عسكريين محترفين لا يمكنهم أبدًا أن يكونوا محاربين، بينما ثمّة مدنيين وُلدوا ليكونوا محاربين». وأضاف: «عليَّ أن أعترف بأني لم أشكَّ للحظة، قبل 10 أيار/مايو، في أنك محارب حقيقيّ». قد يبدو هذا الكلام ساذجًا، لكني لا أعتقد أنه كلام خاطئ، سواء بشكل عام، أو بشكل خاص إذا ما توخّيت الصدق في التعريف بنفسي. رفيقي في المكتب الرابع في الأركان العامة، وهو أحد أطباء الجيش، كان يحب أن يتهكّم عليَّ بالقول إني، كأستاذ قديم، «أملك من الروح العسكريّة أكثر من أيّ شخص آخر»، وأفترض أنَّ هذا يعني ببساطة أنّي امتلكتُ دومًا حسَّ الانضباط والانصياع للقيادة. لقد عدتُ من الحرب السابقة حاملًا أربعة تنويهات[5]، ولا أظن أنني مخطئ إذا افترضتُ، بأنّه لولا دخول الألمان غير المتوقع إلى مدينة رين (Rennes)، والذي سرعان ما ألغى مخططات الجيش الأول، ما كنت لأعود إلى دياري بعد هذه الحرب قبل أن تتزيّن بزتي العسكرية بوسام آخر[6]. في عام 1915، وبعد فترة نقاهة، انضممتُ إلى الجبهة متطوعًا قبل أن يحين موعد التحاقي. وفي عام 1939، فضّلتُ مواصلة نشاطي في الجيش على الرغم من تقدّمي في العمر، وكنت أملك الحق في مغادرة صفوفه قبل ذلك بمدة طويلة، بحكم أنني كنتُ أبًا لستة أبناء. لستُ أزهو بذِكر كلّ هذه الوقائع والشهادات، فقد شاهدت كثيرين تحلّوا بالشجاعة والتواضع وأدّوا واجبهم من دون تفاخر، وخدموا في ظروف أكثر صعوبة، وقدّموا أفضل مما قدّمت. أودّ أن أقول ببساطة، إنّ القارئ الذي

(5) . تنويه (Citation)، نوع من الأوسمة العسكرية التي كانت السلطات الفرنسية تمنحها لمحاربيها الشجعان؛ منها التنويهات الفردية ومنها الجماعية. (المترجمة)

(6) هذا التنويه من فيلق الجيش (تموز/يوليو 1942).

سيطّلع على السطور التالية، قد يشعر بالتحيُّز ضدّي بسبب صراحتي الفجّة إلى حدٍّ ما، فليتذكّر حينها أنني مدقّق صارم غير متساهل، وأنني شاركتُ في الحرب طواعيّة، ولم أكن ذلك الجندي السيّئ للغاية، بشهادة قادتي ورفقائي.

سأقدّم الآن الحساب الدقيق لكل ما قمتُ به، وبالتالي، لكلّ ما لاحظتُه في خلال الحرب الأخيرة.

كما ذكرت سابقًا رفضتُ باستمرار، في الفترة الفاصلة بين الحربين، الاستفادةَ من الأحكام التشريعية التي كان من شأنها أن تمكّنني من التملّص من واجب الخدمة العسكريّة. ورغم ورود اسمي في سجل مصالح الأركان العامة بدءًا من عام 1919، فإني لم أحاول قط أن أتابع أيّ دروس بهدف «تحسين القدرات»، وأُقرّ من حيث المبدأ بأنّني ارتكبتُ بذلك خطأ. السبب في ذلك هو أنّ تلك السنوات على وجه التحديد تزامنت مع الفترة التي أنجزتُ فيها، بأفضل ما استطعت، الجزء الأساسي من عملي مؤرخًا. ولهذا لم يكن لديّ الكثير من أوقات الفراغ. وعزائي هنا هو أنني استفدتُ بالتأكيد من تجاربي في الحملة العسكرية أكثر مما كانت ستُفيدني هذه الدروس في المدرسة الحربيّة[7] التي تهربتُ من الالتحاق بها. ولأن الجيش في ذلك الوقت كان يقدِّر الطلاب المجتهدين قبل أيِّ شيء آخر، فقد عوقبت بسبب الغياب عن تلك الدروس بشكل قاسٍ، لا بل عرف الجيش كيف يعاقبني مرتين اثنتين، حيث بقيتُ في عام 1938 في الرتبة نفسها (أي رتبة نقيب) التي كنتُ قد رقّيت إليها في عام 1919 حين تجنّدت خلال التعبئة الأولى. أمّا في آب/ أغسطس 1939، فبقيتُ في الرتبة عينها على الرغم من اقتراح الترقية الموقَّع من رؤسائي الذين شهدوا على كفاءتي في العمل. ولقد بقيت برتبة نقيب حتى انتهاء خدمتي في الجيش في 11 تموز/ يوليو 1940. كان هذا عقابي الأول، ولم يترتّبني جرّاءه حقد أو

(7) إنها أعلى هيئة تعليمية للقوات العسكرية الفرنسية، والمتخرجون منها يتولون مسؤوليات قيادية في الفرق العسكرية المختلفة التي يزيد تعدادها عن ألف رجل، ولا سيّما في القوات البرية. أسست في عام 1873، ولا تزال قائمة بوظائفها إلى اليوم، مع شروط صارمة للانضمام إليها، وتكوين خاص موجّه للكادر العسكري الفرنسي. (المترجمة)

غبن. أما العقاب الثاني، فكان له الأثر في ما أنزل بي من تعييني في منصبي في القوات المسلّحة، في خلال التعبئة.

في البداية، كنت ملتحقًا، أقلّه على الورق، بالمكتب الثاني في أحد فيالق الجيش. وكان هذا الموقع لا يبدو صراحةً وظيفة سيئة لمؤرخ مثلي، كون المكتب الثاني مكلّف بالاستخبارات. أُرسلتُ بعدها إلى موقع أكثر تواضعًا في مقر قيادة في فرقة المشاة. وسرعان ما نُقلت في ما بعد من تشكيلات القوات ليُلقى بي في غياهب مصالح الأقاليم، وهي ما يشكّل مقر قيادة مجموعة من الأقسام الفرعية. هذه المجموعة، في الحقيقة، كانت تقع في مدينة ستراسبورغ، التي كنا نعتبرها الهدف الأول للقنابل الألمانية. اعتقدتُ أن تهرُّبي من الالتحاق بهذا الموقع ربما انطوى على تصرّف غير لائق، وعزّز هذا الشعور تكاسلٌ فطريٌّ لا أستطيع مقاومته عندما يتعلق الأمر بمتابعة أموري الشخصية. لهذه الأسباب لم أحاول بذل أيِّ مساعٍ للحصول على موقع أفضل. ومع ذلك، سعى أحد الأصدقاء سعيًا حثيثًا، قبيل الحرب بقليل، لنقلي إلى المكتب الثاني في مقر قيادة الأركان العامة، لكنه لم ينجح في تحقيق ذلك في الوقت المناسب. فجرى استدعائي إلى مجموعة الأقسام الفرعية في ستراسبورغ، بعد أن استكملتُ فترتين قصيرتين من التدريب. استُدعيتُ أولًا، في أيلول/ سبتمبر 1938، إبان التعبئة التي أعقبت مؤتمر ميونخ، ثم استُدعيت للمرة الثانية في آذار/ مارس التالي لبضع ساعات فقط (وصلني الاستدعاء وأنا في كامبردج، حيث كان علي أن أعود على عجل)، أما المرة الأخيرة فكانت بتاريخ 24 آب/ أغسطس 1939 المصيري.

في النهاية، لم آسف كثيرًا لهذه الوجهة التي أُرسلتُ إليها. كان العمل في مقرّ مجموعة الأقسام الفرعية كئيبًا بالفعل، لكنه شكّل مرصدًا جيدًا للملاحظة في تلك الفترة من بداية الحرب. كان هذا هو الحال، على الأقل، في أول أسبوعين أو الأسابيع الثلاثة الأولى. أما الجزء الأكبر من عمليّة التعبئة بالمعنى الحصري فكانت تتمّ تحت إشرافنا. وكنت أتساءل: ما العمل الذي اضطلعت به المقرّات المشابهة التي كانت تنشط في المناطق الداخلية من البلاد؟ أتصور

أنها احتفظت بقدر معيَّن من النشاط بعد انتهاء حمّى العمل الأولى، أي الكثير من المعاملات الورقية والكثير من القصص الصغيرة! أما قيادتنا فقد انسحبت من ستراسبورغ نحو مولشيم (Molsheim) عند سفح سلسلة جبال فوج (Vosges) وتمركزت حيث حطّت الجيوش رحالها. وعندما قرر الجيش السادس إقامة أجهزته القيادية الخاصة، وببطء غريب في أيّ حال، لم يكن قد تبقّى شيء من عملنا الذي راح يتضاءل تدريجًا. فَتَلَت ذلك أيام طويلة عانينا فيها شدةَ الملل. كنّا خمسة: قائد لواء، ومقدم، ونقيبان، وملازم أول. وما زلت أتذكّر كيف كنّا نجلس وجهًا لوجه في مكتبنا الكائن في المدرسة، يحدونا الأمل ذاته، وهو أن يصلنا بريد مفاجئ فيه معاملة ورقيّة تُتيح لنا الرد عليها بورقة أخرى! أصغر النقيبيْن كان أكثرنا سعادة؛ فقد كان مسؤولًا عن توزيع التصاريح! ربما قد لا يشعر المؤرخ بالملل بسهولة، إذ يمكنه أن يستدعي بياناته القديمة، وأن يلاحظ ويكتب. لكن شعوره بعدم الجدوى في حين أن الأمة في حالة حرب، هو شعور لا يُحتمَل.

كان قائد اللواء ينتمي إلى ملاك الاحتياط، وقد انتهى الأمر بهذا الرجل الممتاز بالعودة إلى اهتماماته ذات الطابع الترفيهي. كما دُمج باقي أعضاء الأركان في مجموعة الأقسام الفرعية في مدينة سافيرن (Saverne). أما أنا فلم أقضِ إلّا يومين فقط في هذه المدينة الصغيرة اللطيفة، والمزدحمة أيضًا. وكنتُ قد وجدتُ سبيلًا إلى الاتصال بشخصيّة رفيعة المستوى في هيئة الأركان العامة، إلّا أن هذا اللجوء إلى الواسطة ليس مدعاة للفخر. وإني لأتساءل إن كنتُ قد أخطأتُ لأني لم أعثر على أيّ وسيلة أخرى للانتقال إلى موقع عمل أكون فيه أكثر فائدة! وبفضل هذه الواسطة الرفيعة الشأن، حصلتُ في بداية شهر تشرين الأول/ أكتوبر، على موافقة بالنقل، حيث التحقتُ بهيئة أركان الجيش الأول من دون تأخير، في بلدة بوهين (Bohain) في منطقة بيكاردي (Picardie).

أوكلَت إليَّ هيئة الأركان العامة وظيفة محدّدة: ضابط ارتباط مع القوات البريطانية، وهذا يعني أنّني كنتُ أنتمي إلى المكتب الثاني. لكن سرعان ما وصل نقيبان آخران يحملان حيثيات التعيين نفسها في الوظيفة عينها. لذلك

رأى قائد الأركان أن عددنا زائد عن الحاجة، ومن الأفضل أن يكون لكل جهاز من أجهزة الجيش الرئيسية وسائل للتواصل خاصة به مع حلفائنا من جيش التدخل[8]. ثمَّ تمّ توزيعنا بين مختلف المكاتب، باستثناء المكتب الأول الذي لم يكن بحاجة إلى وسائل اتصالات ما دام كان منوطًا به الإشراف على الجنود وعلى الانضباط، وبالتالي ما من داعٍ إلى فتح النوافذ للتعرف إلى ما يجري في الخارج. في ما خصَّني، فقد عُيّنتُ في المكتب الرابع المسؤول عن حركة المواصلات واليد العاملة والإمدادات. من حيث المبدأ، احتفظتُ بالوظيفة نفسها التي تقوم في جزء منها على المعلومات، وفي الجزء الآخر على الدبلوماسية. وسيتضح لاحقًا كيف ثبَت أنّ هذه الصلاحيات، ولسوء الحظ وخلافًا لتمنياتي، كانت مع مرور الوقت بلا أهمية تُذكر. هل سأعود إذًا إلى الشعور باللاجدوى الذي عانيتُه سابقًا؟ وقد أشعرني ذلك بأسف شديد إلى أن استُدعِي الضابط المسؤول عن إمدادات الوقود إلى وظيفة أخرى فعُيّنت مكانه.

هكذا أصبحتُ بين ليلة وضحاها الآمر الناهي في مستودعات الوقود في أحد جيوشنا الأكثر تجهيزًا بالآليات على الجبهة بأكملها. انتابني أول وهلة شعور بالهلع، إذ أدركتُ أن هذه الوظيفة سترتّب عليّ حتمًا مسؤوليات ثقيلة في حالات التأهب، وكنتُ أجهل كلّ شيء عنها. وقد كتبتُ إلى زوجتي قائلًا: «ليت هتلر يقتنع بالبقاء هادئًا لبضعة أسابيع أخرى!»، غير أني أظن أنّ ما من وظيفة مهمّة كهذه، قد يعجز أيّ رجل ذكيّ ومُكدّ في عمله عن تحمُّل مسؤولياتها كما يليق. لذلك عملتُ على إتقان وظيفتي الجديدة هذه بأفضل ما استطعت. وحظيتُ فيما أنا أبذل هذه الجهود بحظٍّ وافر، إذ كان مستودع الوقود في الجيش تحت إمرة أكثر القادة أمانةً ونزاهة. وستكون هذه أول مرة أكتب فيها اسم النقيب لاشان (Lachamp) ولن تكون الأخيرة من دون شكّ. إنّ المرارة التي خلّفتها هذه الحرب والطريقة التي جرت بها والنهاية السيئة التي أدّت إليها تزيد من أهمية الذكريات القليلة المشرقة. لذلك يبدو لي أنّ التعرف برجل

(8) جيش التدخّل البريطاني المرابط في فرنسا إلى جانب الجيوش الفرنسية (corps expéditionnaire). (المراجع)

حقيقيّ هو مصدر بهجةٍ فعلًا. فقد كان العمل مع هذا النقيب يجري بانسجام تامّ حتى تعزّز هذا التعاون شيئًا فشيئًا ليتحوّل إلى صداقة صلبة، وذلك أجزل ما يمكن الحصول عليه من مكافآت.

وللحقيقة، لم تشغل مهمّتي الجديدة الكثير من وقتي إلاّ في خلال فترة التدرج فقط. أما بعدها، ومثل كل رفاقي، فقد انغمستُ من دون حماسة في حمى العمل البيروقراطي العسكري. لم أكن بلا مهمّة بطبيعة الحال، لكني لم أكن مشغولًا جدًّا، والمهمات اليومية التي كنت أقوم بها لم تكن تُثير إلا القليل من حماستي الذهنية. هكذا تمكنتُ، ولحسن الحظ، من إشغال وقتي بعمل إضافي اضطلعتُ به طواعية لبضعة أسابيع. فقد لاحظتُ أن معلوماتنا عن مستودعات الوقود في الأراضي البلجيكية لم تكن كافية، وهو عيب فادح في جيش كانت مهمته الواضحة تمامًا دخول بلجيكا إذا ما أقدم الألمان من جانبهم على أيّ انتهاك لحدودها. وقد مكّنتني علاقاتي الشخصيّة في أوساط الأركان من تحقيق المنفعة المرجوة واستكمال معلومات هذا الملف وتدقيقها. لقد استغرق الأمر كثيرًا من المساعي ولذلك تعلّمت على وجه الخصوص كيف يُصَدُّ المرء بجملة بسيطة وبلغة فرنسية سليمة على لسان موظفي المكاتب بلباقة معهودة وبعبارة موصوفة هي: «اهتمّ بشؤونك فقط». هذا باختصار، لأن التحقيق الذي باشرته، ومهما كانت فائدته، لم تكن له صلة بأيّ حال من الأحوال بمهمات وظيفتي الأساسيّة. كان تصرّفي هذا ينمّ عن «تمتّع بالديناميّة» ويستحقّ على الأقلّ ابتسامةً لطيفة.

لكن هذه المهمة التي شغلتُ بها وقتي لم تستمر طويلًا. تقلّص عملي لاحقًا، وشيئًا فشيئًا، اقتصر على إحصاء صفائح الوقود أو حساب مخصّصات البنزين بالقطارة. وأحسستُ مرة أخرى، ولا أدري إنِ كنتُ على حقّ، بأنني أملك إمكانات فكرية وروحَ مبادرة لم تُستغَلّ على ما يرام. هذا الملل الذي عانيتُه في تلك الشهور الطويلة من شتاء 1939 وربيع 1940 كان أسوأ من تجربة بوهين الكئيبة التي استنفدت قدرًا كبيرًا من طاقاتي الفكريّة. حين شعرت أن تلك السموم أدركتني فكرتُ بِجدية في البحث عن مكان آخر أو في

تقديم التماس لنقلي بعد انقضاء فصل الصيف، للعودة إلى موقعي في جامعة السوربون. إنما كان ذلك عند انفجار الوضع في 10 أيار/ مايو[9].

حدث الأمر بشكل غير متوقع كليًا ولن ألخّصه بأفضل من ذكرى شخصية بسيطة عايشتُها. كنتُ قد سافرتُ إلى باريس في 9 أيار/ مايو بهدف الوصول باكرًا في صبيحة اليوم التالي إلى مدينة مو (Meaux)، حيث كان عليَّ أن أحصل على بعض دفاتر قسائم البنزين من مصالح الوقود التابعة للأركان العامة، وهي دفاتر توزّع على الوحدات التي تستعملها عند تحصيل الجباية. عندما وصلتُ إلى مو لم أكن أعلم بما حصل في أثناء الليل. استغرب أعضاء الأركان العامة ظهور ضابط قادم من قوة مسلحة تُرابط على الجبهة البلجيكية في مثل هذه المهمة غير الحربية أساسًا وفي مثل هذا الظرف. وبعد بضع دقائق من سوء الفهم أدركتُ في النهاية أسباب هذا الاستقبال المحرج إلى حدٍّ ما، فتوجّهت فورًا إلى المحطة، وقصدتُ باريس، ثمّ قفزتُ إلى قطار شديد الازدحام للالتحاق بموقعي.

*

عاهدتُ نفسي ألّا أخوض في تفصيلات ما حدث في الأسابيع الثلاثة التالية، فسيسنح لنا الوقت بعد قليل لاستخلاص الدروس. يكفي بعض الصور التي سأختارها من حشد الذكريات التي تعتمل في ذاكرتي لتشخيص مسار هذه الأيام والليالي الحافلة بالمآسي الكبيرة الناتجة من الحملة العسكرية في الشمال.

ها نحن أوّلًا في ثانوية البنات في فالنسيان (Valenciennes) التي كانت مركزًا لقيادتنا بدلًا من المركز البلجيكي حيث كان من المفترض أن نقيم بحسب المخطط ولم نتمكن من ذلك. على مقربة منا، شاهدنا بأم العين المنازل التي دمّرتها أعمال القصف الأولى. وقد تمكنتُ مرّتين من التملّص للقيام بجولات داخل بلجيكا، وهي جولات كانت تستجيب لطبع الرحّالة عندي، بينما لم يكن

(9) بدء الغزو الألماني لفرنسا. (المراجع)

رؤسائي يوافقون عليها كثيرًا. في 11 أيار/ مايو بلغتُ مدينة مونس (Mons)، وفي الثاني عشر منه ذهبتُ أبعد قليلًا باتجاه نيفيل (Nivelles) وفلوروس (Fleurus) وشارلروا (Charleroi). ولمناسبة عطلة عيد العنصرة[10]، تسنَّت لعمال المناجم في بوريناج (Borinage) فرصة الاصطفاف على جوانب الطرق والهتاف للسيارات الفرنسية المارّة أمام أبواب بيوتهم. كانت المناطق الريفية التي واجهت في زمن مضى قوات الماريشال ني (Michel Ney)[11] بالقرب من لينيي (Ligny) وكاتروبرا (Quatre-Bras) مكسوّة بخضرة الربيع الزاهرة. في تلك الفترة، بدأت تغادر بلجيكا هاربةً قوافلُ طويلةٌ من المدنيين سالكةً ممرات الطرق الجانبية وقد حمّل بعضهم على عربات الأطفال خليطًا من الأمتعة. لكن الملاحظة الأكثر إثارة للقلق هي أنّ بعض الجنود البلجيكيين الذين تفرقت قواتهم كانوا يتسللون هاربين عبر القرى. وبعد الآمال التي سادت عند بداية العمليات، حلّ القلق في صفوفنا حين بدأ الحديث عن وجود ثغرة في نهر الميز (Meuse)، وكان لا بدّ من محاولة تموين الفرق العسكرية التي دُفِعت إلى ساحة القتال، والتي سرعان ما قُضيَ عليها. في نهاية المطاف انسحب الجيش إلى الجنوب الغربي، ليتراجع مقر القيادة في 18 أيار/ مايو باتجاه بلدة دُويه (Douai).

يبدو أن المقرّرات التعليمية كانت قدرنا. فقد تمركزنا لأقلّ من يومين في مدرسة أخرى على مشارف المدينة، تمامًا مثلما كان الحال في مدرسة البنات في بوهين. كانت القنابل تتساقط من كل الجهات وبكثافة على المحطة، وفي الشوارع الرئيسية، ومهابط الطائرات. أدركتُ في أثنائها، كما في كل يوم تقريبًا، أنّ مستودعات البنزين في خطوطنا الخلفية ستسقط تباعًا في أيدي الألمان. وهكذا ما عاد بإمكان الجيش الاعتماد على أيٍّ من تلك الحاويات الجميلة القادمة من سان كنتان (Saint-Quentin) وكامبريه (Cambrai)، والتي كنا نتفانى في حراستها، ونرسلها تِباعًا إلى الصفوف الأمامية لضمان

(10) عيد مشترك في المسيحية واليهودية، يحتفل به المسيحيون في الأحد السابع بعد عيد الفصح. (المترجمة)

(11) الماريشال الذي حارب إلى جانب نابليون، في حملته التوسعية في أوروبا قبل أن يُهزم في معركة واترلو الشهيرة في عام 1815. (المترجمة)

إمداد وحدات القتال بالوقود. كما ما عاد بالإمكان الاعتماد على مستودعاتنا الريفية «العزيزة على القلوب» حيث خبّئت الصفائح ببراعة تحت الأشجار في الحدائق وتحت سقوف معامل القرميد المهجورة. تعيّن علينا بعد ذلك بقليل أن نغيّر تموضعنا مرة أخرى. وتقرّر في البداية أن أبقى مع اثنين من رفاقي في دُويه لنشكّل مركز قيادة متقدِّمًا. فكانت مهمة أخرى لم تستمر سوى بضع ساعات، على غرار غيرها من المهمات في ذلك الوقت؛ إذ انسحبنا من المنطقة السوداء[12] بين أكوام فضلات المناجم التي انهار معظمها بشكل غريب تحت القنابل، فلم يتبقَّ من معالمها شيء يُميّزها، وتمكنتُ أخيرًا من الالتحاق بالمدرسة الرابعة، وكانت موقعنا الجديد والأخير في لنس (Lens) (بتاريخ 19 أيار/ مايو).

هذه المرة، كان الموقع روضةً للأطفال، ولأنها بُنيت لتلائم الأطفال الصغار، فقد أجبرتنا طبيعة الأثاث على الاختيار بين نوعين من الأوجاع الجسدية؛ فإما التعب الناتج من الوقوف لفترات طويلة لا تنتهي، وإمّا التشنجات التي يعانيها الجسم بسبب استخدام طاولات الأطفال الصغيرة، حيث تُطوى الركبتان إلى أعلى لتلامسا مستوى البطن الذي يحتك بالطاولة. وكأنه بالأمر السهل ذلك الجلوس لكتابة مذكّرة ما، إذ يتعيّن على المرء عندها بذْل جهود مضنية للخروج من تلك الآلة المؤلمة الصغيرة! ويبدو أنّ هذه المعاناة الغريبة، وقُبح المناظر الطبيعية، وغبار الفحم الذي اتسخ به المكان برمته، وكل شيء في هذه الأماكن المحزنة، كانت تتلاءم مع شعورنا المتنامي بالقلق. لَكَم كان مركز القيادة هذا، في روضة الأطفال في لنس، فظيعًا ومعبّرًا عن الهزيمة! وهل لي أن أنسى يومًا ليلة 20 أيار/ مايو؟ فمع حلول الظلام، وبينما كانت مدينة أراس (Arras) تشتعل من بعيد، لمحتُ رئيس مكتبنا يقترب مني بهدوء ليقول لي بصوت خفيض، مُشيرًا بإصبعه إلى مصبّ نهر السوم على خريطة مدرسية معلقة على الجدار: «الألمان هنا!» ثم عاد وهمس: «لا تُخبر أحدًا بذلك». وكنتُ إذّاك قد اتصلت هاتفيًّا

(12) المنطقة السوداء (le pays noir)، تُعرف بهذا الاسم لأنها منطقة استخراج الفحم. (المراجع)

بالمقر العام لقيادة الأركان العامة. أعترف أنني إذّاك، وفقط بعد تكرار محاولاتي مرات عديدة، أدركتُ تمامًا ما الذي كانت تعنيه تلك الكلمات المأساوية: «جيش محاصَر».

انتقلنا بعدها بفترة وجيزة (22 أيار/مايو) باتجاه الشمال، إلى إستير سور لا لِيْس (Estaires-sur-la-Lys) في منطقة «لِيْس» (Lys). لكن مفترق الطرق هناك لم يكن آمنًا، ولم يَسْعَ الطيارون الألمان لقصف قيادات الأركان مباشرة؛ ليته كان بوسعنا الطلب منهم الامتناع عن ضربنا! في ظهر اليوم الأول، قُصفنا بقنبلة سقطت على مسافة قريبة جدًّا من النزل الذي كنا نُقيم فيه، لكن من دون أن تصيبنا. اهتزت الجدران والموقد بما يكفي من القوة بحيث غطى ملابسنا وأوراقنا ووجوهنا غبارٌ كثيف. وسرعان ما امتثلنا لهذا التحذير. أما في منتصف الليل فقد قفزتُ من السرير بعد سماع الأمر بالمغادرة، وكانت تلك أول مرة والأخيرة، خلال الحملة، التي حظيتُ فيها بالنوم في فراش حقيقي. علاوة على ذلك، لم نبدأ التحرك إلا بعد انبلاج الصباح بفترة، فقيادة الأركان لم تعرف مدى قيمة الراحة الضرورية. في ذلك الصباح، قمتُ بجولة طويلة هدفها كالمعتاد تجميع مستودعات البنزين، ثم التحقتُ بقصر أتيش (Attiches)، جنوب مدينة ليل (Lille)، حيث كان رفاقي قد تجمّعوا قبل ذلك بفترة (23 أيار/مايو).

يقع هذا القصر ضمن حديقة جميلة. كان بناءً فخمًا، واجهتُه الأمامية مزيّنة بقِطع سيراميك بشع. وكان أثاث هذا القصر من الطراز الفخم والقاتم الألوان وأكثر ما يذكّر بالقرون الوسطى، ذلك الطراز الذي كانت البرجوازية العليا ترى فيه التعبير الضروري عن المكانة السيادية التي تبوّأتها في نهاية القرن الماضي. وقد عمد صاحب القصر، في تصرُّف استباقي كما اعتقدنا حينها، إلى تجميع أكاليل الموتى في زاوية من غرفة الطعام التي كنا نعمل فيها. بعد ظهر يوم 23 أيار/مايو، قسِّم مكتبنا الرابع بشكل نهائي إلى وحدتين، شكّلت إحداهما خطًّا خلفيًّا توجّه فورًا إلى الساحل لمتابعة الإمدادات عبر البحر، بينما بقي الثاني في مكانه، بقيادة قائد الجيش، وكنتُ أنا من ضمنه. في الواقع طاول القصف الأكثر عنفًا المواقعَ

الأبعد من الجبهة، وكان ذلك من مفارقات القدر التي لم يتوقعها أيٌّ منا في تلك اللحظة كما أظن. فقد اعتقدنا أننا كنا الأكثر عرضةً للقذائف لأننا كنا بالتأكيد في المقدمة. وفي الحقيقة أنّ هذه القذائف لم تتوقف عن الانفجار في محيطنا، ولا سيَّما في المناطق المكشوفة على العدو بهدف إيقاعنا في الأسر. ولأننا كنا نشكّل خط الانسحاب، فقد كان بيننا رجالٌ لا يُشكّ في شجاعتهم أبدًا، وآخرون ممَّن لم يزعجهم هذا الانسحاب. لقد شعرنا، ونحن على مقربة من خط النار، أننا نؤلف مجتمعَ نُخبةٍ صغيرًا ساد فيه باستمرار جوٌّ ممتاز من التناغم والتعاون. وصل الأمر بأحد رفاقنا أن رفض بجرأة الامتثال لقرار التحاقه بالساحل. كان ملازمًا بسيطًا من جنود الاحتياط، لكنه في الحياة المدنية شغل منصب رئيس غرفة تجارية في الشمال. أما نائب رئيس مكتبنا الذي كان، وخلافًا للأعراف العسكرية المكرّسة، يرافق القائد إلى الخطوط الخلفية، فقد أزعجه بشدة هذا الموقف المعارض تمامًا لموقفه الخاص، فاستشاط غضبًا واقتاد المتمرد أمام أعلى سلطة في قيادة الأركان لمعاقبته، لكنه فوجئ حين وافق القائد على السماح بهذا العصيان الشجاع.

ثمة مشهد آخر لا يزال يرتبط في ذاكرتي بصورة غرفة الطعام في أتيش، وهو في الحقيقة واحد من المشاهد الإنسانية المخيفة التي لم أعايش مثلها في حياتي كلها. فطوال فترة الصباح كان ثمة شخص متهالك على كرسي بالقرب من الباب كئيب الوجه ضامر العينين، يدخن سيجارة تلو الأخرى. لم يكن من شَارةٍ على ذراعه تدل على رتبته العسكريّة. فكان المارة يعبرون من أمامه من دون أن يعيروه اهتمامًا ومن دون أن يدركوا أن الرجل هذا كان بالأمس على رأس أهم فرقنا العسكرية ويقود أشهر وحداتنا. وبالفعل كان يتبوّأ هذا المنصب قبيل ساعات فقط، وقيل إنه سُرِّح من منصبه القيادي بسبب إفراطه في الشرب، والله أعلم! كان جالسًا هناك بانتظار مقابلة أخيرة مع قائد الجيش، وهو لقاء أُخِّر طويلًا حتى ظهر ذلك اليوم، ولم يدم غير دقائق معدودة، ليختفي بعدها ضيف ذلك الصباح المؤسف ولم نره مرة أخرى بعد ذلك.

بعد 26 أيار/ مايو انتقل موقع قيادتنا الأخير إلى الجانب الآخر من مدينة

ليل، إلى الشمال الغربي في ستينويرك (Steenwerk)، إلى فيلا لطيفة ومشرقة ولائقة. وفي البيت المجاور لنا أقام الجنرال بريو (Prioux)، وكان استلم لتوه قيادة الجيش بدلًا من الجنرال بلانشار (Blanchard) الذي انتقل إلى مجموعة الجيوش. وحين صارت قبضة العدو أشدّ خطورة، طُرِحت مسألة تدمير مستودعات البنزين الكبيرة في مدينة ليل بإضرام النار فيها.

أمضيتُ يوم 27 أيار/مايو والليلة التالية في محاولة اتّخاذ قرار بهذا الخصوص. كان عليّ أن أتعامل مع أربعة أوامر على الأقلّ ومعها أوامر مضادة متعاقبة. كاد الأمر الأخير القاضي بتدمير كل شيء لا يحقق الهدف منه، والسبب أن سائق الدراجة النارية الذي أرسل تحت جنح الليل لم يصل قطُّ إلى الوجهة المقصودة. وأيًّا كان المصير الذي لقيه هذا الدرّاج، لا يحق لي أن أندم؛ فقد كان من واجبي ضمانُ وصول الأمر، ولكنت خالفت مهمتي لو نقلت الرسالة شخصيًّا. مع ذلك، كيف لي التخلُّص من الشعور المؤلم الذي يملأ نفسي حين أفكر بأني أرسلتُ فتى شجاعًا إلى حتفه بمجرّد إشارة مني؟ ولأني حملتُ معي من الحرب السابقة بعض الذكريات من هذا القبيل، فقد ظلّ عندي من وخز الندم ما يكفي لإبقائي ساهرًا حتى يتلاشى كل شعور بتأنيب الضمير. في النهاية، ولحسن الحظ، استطعتُ أن أُعيد إرسال الأمر مجدّدًا واشتعلت النيران في المستودعات.

حصل ذلك في الوقت المناسب تمامًا لأن الجيش كان ينسحب عمليًّا خلف نهر «ليس» باتجاه الساحل، لكن ليس بعديده الكامل. ففي مساء 28 أيار/مايو أبلغَنا الجنرال بريو أنه، مع استحالة تأمين انسحاب اثنتين على الأقل من وحداته، قد قرّر البقاء في ستينويرك وانتظار العدو. لم يُبقِ إلى جانبه سوى بعض الضباط فيما طلب إلى معظمِنا المغادرة ليلًا للالتحاق بالساحل. بعد قليل، ذهبتُ لمقابلته طلبًا لتأكيده لي الأمر بالتخلي عن شاحنات الصهاريج بعد إفراغها وتعطيلها، إذ كان ذلك يعني حرمان الجيش من آخر ما تبقّى له من البنزين، ولم يكن باستطاعتي اتخاذُ قرار خطير كهذا بمفردي، على الرغم من اندراجه بوضوح ضمن الترتيبات التي اتُّخذت بناءً على معطيات الوضع

الراهن. كان قائدنا العظيم يسير حزينًا في بهو منزله. بالفعل إنه لمصير محزن هذا الذي انتهى إليه ذلك الرجل. لقد انتُزع من فيلق الخيّالة الذي قاده بشرف كبير، كما أتصور، لينتهي به المطاف في اللحظة الأخيرة إلى قيادة جيش مهزوم. ولقد كُتب عليه أن يرتضي الوقوع في هذا الأسر البشع بدلًا من المسؤول الحقيقي عن الهزيمة!

ثم عدتُ إلى موقعنا في الفيلا بعد أن أقدمتُ خلال ساعات النهار، ووفقًا للتعليمات، على إحراق كل الأرشيف الذي لديّ، بما في ذلك دفتر الملاحظات الذي كنتُ أسجل عليه يوميًّا كل المهمات التي قمت بها. وكم أتمنى أن أستعيد اليوم هذا الدفتر الأخضر الغالي! دفعتُ بمراسلاتي الشخصية أيضًا إلى موقد المطبخ – إذ كانت الأمتعة الإضافية ممنوعة علينا – واخترتُ، وأنا في غرفتي، أن أحمل معي أشياء أخرى أكثر قيمة أو فائدة. وقد نسيتُ ثلاثة أرباع تلك الأشياء، في أيّ حال. تمكنتُ على الأقل، بعد ذلك، من مبادلة سترة العمل القديمة بملابس وضعُها أفضل. كنت أوفر حظًّا من اللواء قائد مدفعية الجيش، هذا الرجل الشديد الوقار الذي قرر، مدفوعًا بحسِّه المفرط بالشرف، البقاء مع الجنرال بريو. وكان قد فقَدَ كل حقائبه التي أُرسلت مسبقًا إلى دَنْكِرك (Dunkerque)، فلم يتبقّ له غير المعطف الذي يرتديه، والمثقوب في مرفقه. كان يتنهد بصوت عالٍ قائلًا: «أرضى بأن أقع أسيرًا ولكن ليس بثياب رثة!». ربما بدا الأمر مضحكًا، لكن بالنسبة إليَّ انطوى هذا الشعور على شيء من النُبل.

غادرنا موقعنا إذًا مع حلول الليل، في سلسلة طويلة وبطيئة من العربات. تسللنا عبر الأراضي البلجيكية لأن الطرق الفرنسية كانت مقطوعة. ومع بزوغ الفجر لم نكن قد قطعنا غير عشرة كيلومترات تقريبًا. وأتساءل اليوم كيف تمكّنا من تجنُّب كشافة العدو المؤللة! وحتى اليوم لا أستطيع أن أشرح ذلك جيّدًا. والحقيقة هي أنّني وصلتُ إلى هوندشوت (Hondschoote) مع نهاية الصباح رغم كل العوائق، متنقّلين أنا وغيري في عربة حينًا وسيرًا على الأقدام أحيانًا أخرى، حتى إنه لم يتبقَّ عليّ سوى بلوغ الساحل. هناك انضممتُ إلى النقيب لاشان، وبذلنا جهدنا لمحاولة اللحاق بالجزء الأكبر من حافلات البنزين

التي سبقتنا قبل وقت طويل، بعد أن تلقّت الأمر بالتجمع في بري لي دون (Bray-les-Dunes). حاولنا أن نسلك طرق فورن (Furnes) بالسيارة، فكان علينا أن نتجاوز أولًا الجسور المقطوعة. إلا أنه حصل ما لم يكن في الحسبان. لقد اصطفت الشاحنات المتوقفة في ثلاثة صفوف متقابلة وهذا ما أدى إلى ازدحام لا يصدّق. ومن خلفنا، كان ضابط الدبابات يطالب بصوتٍ عالٍ بفتح الطريق بحجة اضطلاعه بمهمّة مستعجلة. قضينا أكثر من ساعة في محاولة فتح ثغرة واحدة على الأقل لتسهيل السير. عندئذٍ سألني لواء التقيتُه صدفةً عما كنت أفعله هناك، وحين عرف السبب عرض علينا مساعدته، ولا بدّ لي من الاعتراف بأنه فعل ذلك بحماسة لافتة. وحين كُللت جهودنا أخيرًا بالنجاح، كان الوقت قد تأخّر لمواصلة رحلتنا - أيضًا، من كان سيضمن لنا أننا لن نصطدم بعقبات أخرى لاحقًا - وهكذا اضطررنا إلى العودة إلى هوندشوت خوالي الوفاض.

مع حلول الليل، كرّرنا المحاولة سيرًا على الأقدام وعبر طريق مباشرة حيث يمكن للمشاة التسلل من خلال دروب لم تمر عليها العربات من قبل. كانت مسيرة رهيبة، أقلّه في الكيلومترات العشرة الأخيرة، حيث تعيّن علينا السير وسط تكدس هائل لشاحناتٍ لم تنكشف لنا بفعل الظلمة التي كانت تزداد كثافة. ثم وصلتُ إلى المستودع في بري لي دون وأمكنني أن أحظى ببعض الراحة في منزل مهجور وجدت فيه حتى ماءً للشرب. بالقرب من هذا المكان، ولسوء الحظ، يقع الساحل الذي تحدّه المستنقعات والأراضي التي غزاها الملح. ويعرف الجراحون في مستشفى زويدكوت (Zuydcoote)، أن المنطقة هذه حُرمت تمامًا المياهَ الصالحةَ للشرب بعد خراب الأنابيب. لذلك لم يكن لدينا لتخفيف عطشنا سوى كوب من الشمبانيا، ولكنتُ أُفضّل لو انزلقت في حلقي جرعة كبيرة من ماء ينساب من نافورة عذبة!

وهكذا اختفى الجيش من الوجود، فما عاد لديَّ أيّ وظيفة أقوم بها في قيادة الأركان، لكني شعرتُ بالمسؤولية تجاه من كانوا يرافقونني. صحيح أنني لم أكن على رأس محطة البنزين ولا فِرق صهاريجها، غير أني عملتُ بجدّ مع هؤلاء الرجال الشجعان بحيث لم يكن يحقّ لي التفكير في نفسي

قبل الاطمئنان إلى مصيرهم، وذلك بتأمين انتقالهم بحرًا إلى بريطانيا. لقد كان الفرار عن طريق البحر الهمّ الأساسي عند كلّ واحد منهم قبل أن يقتحم العدو الدفاعات الأخيرة عند هذا الساحل اللعين، إذ بات ما من مهرب سوى هذا السبيل المتبقي مُتاحًا عبر البحر. استولت على هذه الحشود من الرجال، الذين تخلّوا عن جميع أسلحتهم تقريبًا، حمّى هروب حقيقية، فازدحموا على الشاطئ حيث أمكنهم مشاهدة البريطانيين وهم يسبقونهم إلى السفن. أمضيتُ القسم الأكبر من يوم 30 أيار/مايو، وأنا أسعى لتسجيل أسماء رجالي على قائمة المغادرة. في البداية، قضيتُ جزءًا من الصباح في بري لي دون، وقد امتلأت بحشود من الجنود يركضون في كل اتجاه بحثًا عن وحداتهم، كما بشاحنات يقودها سائقون غير مجرّبين تخلّوا عنها بعد بضع مئات من الأمتار. عملتُ مجدّدًا على تنظيم طريق المرور، محاولًا إشراك جماعات من رجال الدَّرك الذين لم يحالفهم الحظ، وهم كانوا يزدحمون في وسط نقاط التقاطع في نشاط أكثر فعالية، لكن محاولتي هذه لم يُكتَب لها النجاح كثيرًا. ثم انتقلتُ إلى ملهى بيروكيه (Perroquet) على الحدود البلجيكية، والذي كان لبضع ساعات مقرًّا مؤقتًا لقيادة منطقة. التحقتُ بعدئذٍ ببلدة مالو لي بان حيث عثرت على العناصر الرئيسيّين من المكتب الرابع الذي كنت أنتمي إليه. قضيتُ الليل في مخيّم على الرمال. كان إيقاع القذائف الألمانية يؤرق ليلتنا، ولحسن الحظ كانت تنهال على الموقع ذاته كلّ مرة، أي إلى يسار فندق مالو ترمينوس (Malo-Terminus). ولم تسفر الضربات الأولى عن ضحايا كثيرة. بعدها تفادينا الاقتراب من تلك النقطة أو كنا نعبرها ركضًا. ولو كانت النيران أقل دقة فلربما وقعت مجزرة على أعشاب الشاطئ!

في صباح اليوم التالي اقتنعت بإمكان إبحار رفاقي، لكن ما كنتُ لأتوقع أنّ قذيفة ستُغرق قاربهم، وقد أمكن إنقاذ معظمهم ولكن لم ينجوا جميعهم، للأسف! عندئذٍ ما عاد هناك ما يمنعني من الاهتمام بمصيري الشخصي. في المقابل لم يكن نائب قائد الأركان السابق، الذي كان يرئسنا في حينه، ممن يحرصون على ترحيل مساعديهم في المعسكر قبله هو، لكنه مع ذلك سمح لي بتدبّر أمري، وهي عبارة لم تلتقطها أذناي بشكل جيد. فهل كان ذلك يعني أن

أتسلّل مكان راكب آخر؟ لحسن الحظ تمكنتُ بفضل لطف قائد فيلق الفرسان من الحصول على أمر مهمة لي ولاثنين من رفاقي في أوّل فترة ما بعد الظهر، ولم يبقَ علينا إلا العثور على السفينة المخصصة لنا.

اضطررتُ ورفيقاي، بسبب معلومة مغلوطة، إلى عبور دَنْكِرك مرتين، أولًا من الشرق إلى الغرب، ثم في الاتجاه المعاكس. وأحتفظ بذكرى مؤلمة عن المدينة التي صارت أنقاضًا، بواجهاتها المهدمة التي كساها الدخان وانتشرت في شوارعها بقايا الجثث والأشلاء البشرية. لا تزال أصوات التحطم الرهيبة ترنّ في أذني، رنّة الصوتِ التي نحتفظ بها عند الخاتمة في نهاية وصلة أوبرا عظيمة، وقد ملأت هذه الأصوات الدقائقَ الأخيرةَ التي قضيناها على شواطئ منطقة الفلاندر (Flandre): انفجارات قنابل، انفجارات قذائف، أزيز رصاص الرشاشات، مقذوفات مضادة للطائرات، ثم تكتمل السمفونية بإيقاع متواصل من المدفع الرشاش الخفيف على الشاطئ. أعترف وأنا أُشير إلى يوم 31 أيار/ مايو بأن هذه الصور، مع ما تحمله من الفظاعة والخطر، لم تكن هي بالذات الصور التي التصقت بذهني. فأنا لا أذكر فعلًا سوى تفاصيل مغادرتنا رصيف المرفأ. كانت أمسية صيفية ساحرة انتشرت روعتها الخلابة على مياه البحر. السماء كأنها من الذهب الخالص، والمياه الهادئة كمثل المرآة، والأدخنة السوداء والصهباء تنبعث من لهيب المصفاة المحترقة لترسم على الساحل المنخفض زخارف بديعة، حتى إنها تُنسي المرء الأوضاع المأساوية التي حلّت به. لقد بدا أنّ كل شيء في محيط هذه الدقائق الأولى من السفر، بما في ذلك اسم مركبنا الذي يذكّر بحكاية هندوسية (عنوانها «نرجس الملك» (Royal-Daffodil)، كل شيء كان يتواطأ مع كل شيء ليُعظّم من شعور أنانيٍّ بالفرحة لا يقاوَم عند جنديّ يشعر أنه نجا لتوّه من الأسر.

تلا ذلك، بعد رسوّنا في دوفر (Douvres)، رحلة يوم كامل بالقطار عبر جنوب بريطانيا، وقد ترك ذلك في ذهني ذكرى تخدير طويل، وفقدان حسّ، قاطعتْه سلسلة غير متجانسة من الأحاسيس والصور التي، مثل حلقات من حلم ما، لا تكاد تتدفّق على الوعي حتى تختفي من جديد، مثل متعة التهام

سندويشات الجمبون مع جبنة شستر (Chester) التي كانت تمدّها لنا عبر البوابة فتيات يرتدين فساتين ملونة أو أيدي رجال دين كما في احتفالية روحانية مهيبة، وكفيض من السجائر التي يفوح منها عبق بنكهة السكر وحموضة الليموناضة وطعم الشاي الباهت المثقل بكثرة الحليب، وعذوبة المروج، ومنظر الحدائق، وقمم الكاتدرائيات وأسوار ديفون (Devon) وصخورها، وهتافات الأطفال الذين تجمّعوا على الرصيف. أُعجب رفاقي بكل هذا الاهتمام الذي حظينا به: «يا لهم من أُناس لطفاء بحق!». في المساء، أبحرنا من بليموث، وقبيل الفجر كنا قد رسونا قبالة شيربرغ (Cherbourg). هناك كتب علينا البقاء مُهمَلين لساعات طويلة. قال مسؤولو السفينة التي نقلَتنا، وكانوا فرنسيين هذه المرة: «تفهمون من دون شك سبب هذا الإهمال. هؤلاء السادة في مركز الإدارة البحرية لا يصلون إلى مكاتبهم قبل التاسعة». وها نحن نصل، وللأسف، إلى منطقة عسكريّة فرنسية قابعة في الخطوط الخلفية! فهنا، لا هتافات، ولا سندويشات ولا سجائر تذكر. حين نزلنا من السفينة، حظينا باستقبال رسمي جدًّا، وجاف جدًّا، ومتوجّس إلى حدٍّ ما. وللاستراحة، حظينا بمعسكر قذر غير مريح، لم يكن فيه من نعمة سوى وجود عدد من سيدات الصليب الأحمر. ثمّ، وبعد الترجرج مجددًا في عربات قطار غير مريحة، وصلنا في منتصف الليل إلى مدينة «كان» (Caen)، حيث لم يكن أحد في انتظارنا. لكن، ولحسن الحظ، كان فيها فنادق جيدة، بل وغرف استحمام أيضًا.

يبقى السؤال: كيف السبيل إلى إعادة بناء جيش قادر على الخدمة انطلاقًا من مجرد بقايا؟ ولمَ فشلت هذه المساعي وكيف؟ إنها أسئلة ستفرض التمعّن في هذه الأحداث المحزنة لاحقًا. بعد إقامة طويلة في منطقة النورماندي، انتهى بنا المطاف في 16 حزيران/يونيو إلى مدينة رين. لقد انتهى الجيش الأول تمامًا. أما أعضاء هيئة الأركان، أو من تبقّى منهم، فقد وُضعوا بتصرف قائد عام «التجمع» الذي تم تشكيله للدفاع عن منطقة بريتانيا[13] كما قيل.

---

(13) بريتانيا (Bretagne): شبه جزيرة فرنسية كبيرة تقع في الشمال الغربي قبالة الشواطئ البريطانية، وتشتهر بمناطقها الطبيعية المتميزة. (المترجمة)

وبتاريخ 17 حزيران/ يونيو، قُصفت رين بالطائرات. كنا نُقيم، لحسن الحظ، خارج المنطقة المستهدفة. كسرت الهزة الهائلة الناتجة من انفجار مستودع للمتفجرات، رغم بُعده عنا، زجاج نوافذ غرفنا إلى درجة جعلتني أشكّك في المسافة التي تفصلنا عن موقع الانفجار، قبل أن أعاود طمأنة نفسي مجددًا. دعوني أَقتبِس هنا قول شاعر لاتيني: «إن لمن المتعة الاستماع إلى العاصفة فيما نربض بهدوء على الشاطئ». وربما كان اقتباسًا مألوفًا، لكن الاعتراف الضمني به سيكون بغيضًا: فهل ثمة جنديّ يمكنه أن يُنصت إلى صوت خطر يعرف أنه لن يطاوله، من دون أن يخالجه، مع ذلك، ارتياح أنانيّ خالٍ من المشاعر الإنسانية؟

في صباح 18 حزيران/ يونيو، انتشرت الشائعات مُرَدِّدةً أن العدو يقترب منّا. كان مكتبنا يقع في جادة في القسم الأعلى من المدينة. وعلى الجانب الآخر من الطريق شارع ينحدر نحو وسط المدينة حيث كان يُقيم الجندي المرافق لي. في الساعة الحادية عشرة صباحًا ذهبتُ أبحث عنه ودعوتُه على عجل لحزم حقائبي. بعد مغادرتي، لمحتُ وأنا أصعد الشارع رتلًا من الجنود الألمان على طول الجادة، أي بين مكان وجودي والمكتب. لم تُطلق رصاصة واحدة، بينما كان الجنود والضباط الفرنسيون يراقبون تحرّكات العدو. علمتُ لاحقًا أن الألمان عندما كانوا يمرّون أمام جندي مسلح، صدفةً، يكتفون بإجباره على كسر بندقيته والتخلص من الذخيرة. كنت قد قررتُ حازمًا، قبل مدة طويلة، أن أبذل قصارى جهدي كي لا أقع في الأسر. ولو كان لديَّ أدنى إيمان بأني سأكون مفيدًا في أمر، لكنت تحليتُ بالشجاعة، كما أظن، للصمود في موقعي. أما في غياب أيٍّ مقاومة، فقد صارت هذه اللاجدوى شديدة الوضوح، أو بالأحرى، صار واضحًا بالنسبة إليَّ، أن السبيل الوحيد لمواصلة خدمة بلدي وأهلي بأيٍّ شكل من الأشكال هو أن أهرب قبل أن يُقبض عليَّ.

كان الهروب إلى الغرب، على افتراض أنه كان لا يزال بإمكاني اكتشافُ طريق سالكة، محاولة ستؤدي بالتأكيد إلى أسري في موقع أبعد قليلًا في اتجاه الطريق المسدودة نحو شبه الجزيرة. وإلى الجنوب أيضًا، كان من المستبعد

جدًّا أن أصل إلى أبعد من نهر اللوار (Loire). وأقلّ ما يقال هو أنّ هذا ما فكّرت فيه في ذلك الوقت. وقد علمتُ إذّاك، بخلاف توقعاتي، أنّ الألمان لم يحتلوا مدينة نانت (Nantes) إلا في اليوم التالي. وأتساءل، رغم ذلك، هل كنتُ سأنجح في الوصول إلى هذه المدينة وكيف؟ فكرتُ أيضًا أنه ربما أمكنني إيجاد طريقة للوصول إلى إنكلترا عبر مرفأ برست (Brest)، لكن لا أظن أنني كنتُ سأترك أولادي لأتّخذ لي منفى إلى أجل غير مسمّى! في أيّ حال، بعد دقائق من التفكير، وأنا على رصيف الشارع المنحدر، اخترتُ السبيل الذي بدا لي الأسهل، وبالتالي، الأكثر أمانًا: ذهبتُ إلى المنزل الذي كنتُ أُقيم فيه وتخلصتُ من معطفي العسكري، أما بنطالي القماشي فلم يكن له أيُّ علاقة بالزي العسكري. وكان مالك المنزل، وكذلك ابنه، على قدر كبير من الشجاعة، إذ منحاني من دون تردّد سترةً وربطةَ عنق. وبمساعدة أحد زملائي، وهو أستاذٌ في رين، حصلتُ على غرفة في فندق. ولأن المرء لا يحسن التواري عن الأنظار إلّا حين يتلبّس شخصه، فقد دوّنتُ اسمي الحقيقي ومهنتي على البطاقة التي سُلِّمت إليَّ. ومع شعري الشائب كنتُ متأكدًا أنّ أحدًا لن يكتشف شخصية الضابط خلف هذا الشكل الأكاديمي، إلّا إذا عمدت القيادة الألمانية (Kommandantur) إلى مقارنة قوائم نزلاء الفنادق بقائمة كوادر الجيش، ولا يبدو أنّ الفكرة قد خطرت لهم أبدًا، أو لربما كان الحكام غير مبالين بأسر من يصادفون من جنود محلّيين!

قضيتُ اثني عشر يومًا في مدينة رين. كنتُ أصادف الضباط الألمان في كل مكان؛ في الشارع وفي المطعم وفي الفندق نفسه، وفي كل مرة كنتُ أشعر بالانشطار بين مشاعر الحزن لرؤية مدن بلدي وهي تحت نير المحتل، ومفاجأة تعايشي السلمي مع أناس كنتُ قبل أيام فقط، لا أتعامل معهم إلا عبر مسدس في اليد. كما كنت أحس بتلك المتعة الخفية لقدرتي على التعامل مع كل أولئك السادة من دون إثارة أدنى اشتباه لديهم. في الحقيقة، هذا الارتياح الذي أتحدث عنه لم يكن خالصًا؛ إذ لم أكن أستسيغ العيش دومًا وأنا أخفي حقيقة هويتي باللجوء إلى الكذب. ولأن هذه الكذبة كانت تجد في معاناتي ذريعة صالحة جدًّا لتبرير ارتكابها، فقد أدهشتني أحيانًا مثابرتي الحثيثة على الاستمرار فيها.

عندما أُصْلِحت سكك الحديد، ذهبتُ إلى مدينة أنجيه (Angers) حيث كان لي أصدقاء، ومن هناك سلكت الطريق نحو بلدة غيريه (Guéret) حيث تُقيم عائلتي. عن هذه اللحظات من «اللقاء مجددًا»، كما تعبّر عنه لغتُنا القديمة ببراعة، لن يكون هناك ما أسرده. فالحديث عنها يجعل قلبي يقفز بقوة. لا أتحملها، لذلك سيكون كتم مشاعري أفضل تعبير!

*

هذه كانت حدود تجربتي التي خضتُها في هذه الحرب. أما الحرب السابقة فلن أتطرّق إليها إلّا على أساس كونها ديكورًا خلفيًّا للحديث. لقد شاركتُ في العمل الذي كان يتم في كثير من قيادات الأركان الرفيعة المستوى، وأنا بالتأكيد لم أكن أدرك الكثير مما كان يدور هناك. لقد كنتُ في بعض الأحيان، وكما سيتضح لاحقًا، أجهل حتى أكثر المعلومات ضرورةً للوظيفة الموكلة إليّ. بيْد أنني تمكنتُ، يومًا بيوم، من ملاحظة أساليب العمل والعناصر المكلَّفين به. لكن من ناحية أخرى، لم يُكتب لي أن أشارك في القتال البتة، إذ لم يكن لي تواصلٌ مع العسكر إلا نادرًا. وبناء عليه، اضطُرِرت إلى الاعتماد قبل كل شيء على شهادات من مصادر أخرى تمكّنت من جمعها، وتقييمها، بفضل الموقع الجيّد الذي كنتُ أشغله. ولا شك، أن لا شيء يضاهي الملاحظة المباشرة حين تكون النظرة ثاقبة، ولا شيء يمكنه أن يحل أبدًا محلّ الدقة، أو النكهة الإنسانية الضرورية لتبرير بعض الملاحظات. كما لا يمكن أحدًا، من دون شك، أن يدّعي أنه قد يُحيط علمًا بكل شيء أو يستوعب كل شيء. لذلك، ليُفصِحْ كلٌّ عمّا يعرفه بصراحة، فمن خلال الحديث تتقارب التفصيلات وتولد الحقيقة.

الفصل الثاني

شهادة مهزوم

مُنينا للتو بهزيمة لا تُصدّق، فعلى من يقع اللوم؟ يُلام النظام البرلماني، وتُلام القوات المسلحة، ويُلام الإنكليز كما الطابور الخامس، هكذا يُجيب جنرالاتنا عن السؤال أمام الملأ. لكن الجواب في ما بينهم مختلف. لذلك كان الماريشال جوفر[1] أكثر حكمة حين قال: «لستُ أعرف إذا كنتُ أنا من انتصر في معركة المارن (Marne)، لكنّ هناك شيئًا واحدًا أعرفه جيدًا: لو حدث وانهزمتُ فيها، لكنتُ أنا المسؤول عن الهزيمة». لا شكّ في أنّ الرجل كان يعني أنّ أيَّ قائد يُعدّ مسؤولًا عن كل ما يتم تنفيذه بموجب أوامره. ولا يهم إذا لم يكن قد اتخذ بنفسه زمام المبادرة في كل شأن، كما لا يهم ألّا يكون على علم بكل عمل نفِّذ تحت سلطته. ولأنه هو القائد وقد ارتضى أن يكون كذلك، فإن النتائج تقع على عاتقه، سواء أكانت سلبية أم إيجابية. إنّ الحقيقة العظيمة التي عبّر هذا الرجل عنها ببساطةٍ تتجلّى في معانٍ أكثر اكتمالًا. فبعد عودتنا من الحملة، ما من ضابط في محيطي كان يشكّ في أن السبب المباشر للهزيمة - الذي يحتاج هو نفسه إلى تفسير - كان عجز القيادة العسكريّة[2]، بغض النظر عن الأسباب العميقة للكارثة. أخشى أن تكون هذه القناعة بحكم فظاظتها، صفعة للمتحيّزين أصحاب الأحكام المسبقة المتجذّرة بقوة. إنّ صحفَنا، كلها تقريبًا، وكلّ ما في أدبياتنا المدرسية والأكاديمية بصورة أساسية، عملت

---

(1) جوزف جوفر (Joseph Joffre): قائد فرنسي توفي في عام 1931. يُعزى إليه ثبات الجبهة الشمالية خلال الحرب العالمية الأولى. لكنه عُرف أيضًا باستراتيجيته الهجومية التي لا تُعنى بالخسائر البشرية الناجمة عنها. (المترجمة)

(2) علاوة على ذلك كان الجنرال ويغان، المدير السابق لمركز الدراسات العسكرية والقائد الأعلى للقوات سابقًا، هو من أعلن في 25 أيار/مايو 1940 (*Les Documents secrets de l'État-Major général français*, p. 140) قائلًا: «لقد ارتكبت فرنسا خطأ فادحًا بالدخول في حرب، لم تكن تملك لا المعدات ولا العقيدة العسكرية التي يتطلبها سير المعارك» (تموز/يوليو 1942).

جميعها على نشر ثقافة «المُتواضَع عليه» لدى الرأي العام في بلادنا. فالجنرال هو جنرال عظيم تلقائيًّا، وحين يقود جيشه إلى الكارثة، قد يُكافأ بوسام جوقة الشرف[3]. لا شك في أن الأمر هنا يقوم على تصوّرٍ يقضي بأنّ ثقة الأمة ينبغي أن يُحافظ عليها بحجابِ عفةٍ يمحو أسوأ الأخطاء. في حين أنّ ذلك التصرّف إنما يعمّم في واقع الأمر أخطر أشكال الاستياء في صفوف المحاربين. ثمة المزيد طبعًا، وربما ما هو أجدر بالاحترام من هذا.

ويبدو أن قانونًا تاريخيًّا فريدًا ينظّم علاقات الدول بقادتها العسكريين. فحين ينتصرون، يبقون عادة خارج دوائر السلطة، وحين يَنهزمون ينتزعون هذه السلطة من أيدي من لم يحسنوا قيادتها نحوِ النصر. فعلى الرغم من هزيمة الجنرال ماكماهون (Henry McMahon) في معركة سيدان (Sedan)، وإخفاق الماريشال هندنبرغ (Paul von Hindenburg) الكبير في عام 1918، كُتب على كلٍّ منهما رسم مصائر الأنظمة التي انبثقت من هزائمهما. ففي فرنسا، لا الماريشال بيتان (Philippe Pétain) الذي انتصر في معركة فردان (Verdun)، ولا الجنرال ويغان (Maxime Weygand) الذي وقّع اتّفاقية الهدنة في روتوند[4] (Rethondes) هما من تسلّما مقاليد السلطة في الدولة. أعرف طبعًا أن هذه النجاحات التي حققها هؤلاء ليست تلقائية، كما أنها ليست انعكاسًا لعقدة الهوس بالقادة الكامنة في الوجدان الجماعي. ففي نظر الشعوب المهزومة، يرمز الزيّ العسكري الذي تزيّنه النياشين والأوسمة إلى التضحيات التي بُذِلت في ساحات المعارك وإلى أمجاد الماضي وربما إلى أمجاد المستقبل. أعتقد أنه لزامٌ علينا أن نعارض كل رأي يخالف الحقيقة. وأنا أوافق باسكال (Blaise Pascal) الذي قال: «كم هو غريب هذا الاندفاع الذي يوجّه أصابع الاتهام نحو الكبائر ويتجنّب التركيز على من ارتكبها»، والذي قال في مكان آخر: «لم يصمت القدّيسون يومًا». هذه ليست ذريعة للرقابة، كما أن أيّ شخص يفكر في خوض هذا التحدي بهدف

---

(3) أعلى الأوسمة الفرنسية التي تمنح للمحاربين الذين يُظهرون شجاعة استثنائية في ساحات المعارك. (المترجمة)

(4) وقّع الجنرال الفرنسي ويغان اتفاقية هدنة في 11 تشرين الثاني/نوفمبر 1918 مع ممثلي الجيش الألماني المهزوم. (المراجع)

أخلاقيّ نزيه سيكون مصيره الاتهام بالتظاهر بالقداسة، للأسف! لكن متى كان الشعور صادقًا يصبح ثمن تجنّب هذا التحدي مُؤلمًا.

تحدثتُ لتوّي عن «القيادة»، وفي اللحظة التي كتبتُ فيها هذه الكلمة اعترَض المؤرخ في داخلي بشدة على ذلك. من المبادىء الأولية لوظيفتنا كمؤرخين تجنُّب هذه الألقاب الكبيرة المجرّدة، والسعي لبناء الحقائق الملموسة التي تقبع خلف تلك الأسماء، وهذه الحقائق تتمثّل في الأفراد؛ إذ إنّ أخطاء القيادة كانت في الأساس أخطاءُ مجموعة من الأفراد.

لم أكن قريبًا من القادة الكبار بسبب تواضُع رتبتي وطبيعة المهمات الموكلة إليَّ. لكن الجنرال بلانشار كان القائد الوحيد الذي تمكنتُ من التعاطي معه عن قرب في بعض المرات، وأنا أتذكره بصفة خاصة كرجل راقٍ بامتياز. في آخر مرة تشرّفتُ فيها بالحديث معه، كانت في لقاءٍ جمعني إليه في منطقة النورماندي بعد عودتي من الفلاندر، حيث بادرني بالقول بلباقة: «حسنًا! يبدو أنك أنت أيضًا خرجتَ سالمًا من هذه المغامرة!». أظنها كانت عبارة استخفاف إلى حدٍّ ما، فهي تُشبه الصيغة التي صاح بها فليكس (Félix) أحد أبطال مسرحية بوليوكت[5] (*Polyeucte*) هاتفًا في المشهد الأخير من المسرحيّة: «دعونا نبارك مغامرتنا السعيدة»، وقد علّق فولتير على هذا الهتاف بأنه: «كلمات تثير الضحك، إذ أطلقها بعد أن احتزّ عنق صهره». ففي مغامرة الفلاندر، فقدَ بلانشار أكثر من نصف جيشه، وترك خلفه قائد أركانه والضابط الذي كان سيخلفه عرضة للأسر بعد أن تطوعا للبقاء في مركز القيادة. لكني أعرف تمامًا بأنه ينبغي للمرء ألا يحكم على أيّ شخص بسبب جملة عابرة. لقد حدث أن استُدعيتُ فجر ذات يوم، حين كنا نتمركز في قصر أتيش، للاتصال بالمقر العام لقيادة الأركان العامة البريطانية، وقضيتُ أكثر من ساعة في الغرفة التي كان فيها الجنرال. كان واقفًا لا ينبس بكلمة، ثابتًا بلا حراك في جمود مأساوي وهو يُحدّق بثبات في الخريطة المستقرة على الطاولة التي كانت تفصلني عنه كما

(5) مسرحية شعرية تراجيدية ألقيت في عام 1642. مؤلفها هو رائد فن المسرح الكلاسيكي الفرنسي بيير كورناي (Pierre Corneille). (المترجمة)

لو كان يبحث عن قرار لم يتمكن من اتخاذه. في أتيش أيضًا، سمعتُه، وبشكل غير متعمد، يتلفظ بكلمات سأعود للحديث عنها لاحقًا. أنا لم أكد أعرفه بشكلٍ عام إلا من خلال تصرفاته كقائد، لذلك يصعب عليَّ في هذه المرحلة أن أرسم فرقًا بين تصرفاته وتصرفات الرجال المحيطين به.

كان لي بالطبع علاقة عضوية بالضباط في قيادة الأركان وبرؤسائي المباشرين أو رفاقي، ومعظمهم كانوا من الجنود العاملين ومن خريجي المدرسة الحربيّة أيضًا.

في الحقيقة أجد نفسي حريصًا على سمعة أيّ ضابط في قيادة الأركان، على الرغم من أنني أميل إلى التشهير ببعضهم. فعندما أغمض عينيّ وأستعيد ذكرياتي تمرّ في ذهني صور شخصيات كثيرة، بعضها مثير للسخرية وبعضها الآخر ستظل ذكراه طيِّبة ما حييت.

الكابتن بـ... من المكتب الثالث، يشمخ برأسه الفارغ نحو السماء وهو يُلقي نظرياته التي كانت تزخر بها الكتب المدرسية عن التكتيك، كما لو كان يُتحف حشودًا خاشعة بِسرٍّ مقدس. الكابتن ز...، أحد أعضاء مكتبنا، سليط اللسان قليل الفعل نجح في غضون شهور قليلة في اجتذاب كراهية جميع الموظفين الذين كان يعتبرهم، بفعل ميله الفطري إلى القيادة، مكلّفين «الطاعة». ولكم تحوّل إلى موضوع استهزاء كلّما غادر مركزه في الملجأ السفلي! ومقارنةً بهذين، كيف لي أن أنسى حال المسؤول عن المطبخ، وهو شخص خدوم وشجاع ومتواضع، متفانٍ في مهماته كنائب لرئيس المكتب في البدء، ثم كضابط اتصال لاحقًا. ليس لي من مأخذ عليه غير استسلامه للإحباط أو الاكتئاب الجسدي، بعد أن انهارت أحلامه في أن يكون محاربًا تمجّده اللوحات الفنية الشعبية. وكان هذا سبب اندفاعه ذات مساء، في جوّ ضاغط في منطقة ستينويرك، لأن يترك نفسه يقع في الأسر بلا فائدة. كم عانى الضغطَ النفسي كي يصل إلى تلك الحالة. ولا بد من أنه عانى أضعاف ذلك حين سمع عن الهدنة من خلال بعض الصحف الألمانية! هؤلاء الذين ذكرتُ أسماءهم للتوّ، عرفنا قدرهم بالفعل منذ كنا في بوهين. لكن لهيب الأيام التالية من الحملة كشف، من نواحٍ مختلفة، عن الكثير من الأسرار.

ثمة ضابط ذو رتبة رفيعة شارك في حرب الأعوام 1914-1918 وقُلِّد في خلالها أوسمة كثيرة. وبالتأكيد كنا نعرف مسبقًا عيوبه الكبيرة على الرغم من سماته اللافِتة، من مثل التزامه من جهة، واضطرابه من جهة أخرى، وحرصه على «تصريف الأمور»، مع عزوف عنيد عن توقُّع أيِّ شيء، ومن مثل لطفه، وافتقاره إلى الصراحة في بعض الأحيان. ما الذي دفعنا إلى أن نتوقع انهياره في ميدان القتال؟ أعتقد اليوم وبكل صدق أننا ظلمنا الرجل في حينه. فضعفُه في مواجهة الخطر، وهو ما جعله يصاب بالتوتر الذي تلوح مظاهره من الخوف، كان في المقام الأول وعيًا سابقًا لأوانه بالكارثة المتعاظمة، وقلقًا عاناه تحت وطأة عبء كان ثقيلًا جدًّا عليه، إضافةً إلى اضطراب في المشاعر المفرطة جدًّا. أوَلَم يعترف لي، ونحن في أتيش، بأنه لا يملك القوة الكافية ليعيّن بنفسه مساعديه الذين كان ينبغي عليهم أن يظلّوا في المواقع المكشوفة على العدو؟ لكن ثمة حقيقة واحدة مؤكدة، وهي أنّه، ولكونه جنديًّا مثقلًا بسنوات من العمل المكتبي والتربوي، قد أضحى رغم أقدميّته، عاجزًا عن النهوض بأعباء القيادة بكل ما تنطوي عليه الكلمة من معاني ضبط النفس والصرامة.

في الجانب الآخر من اللوحة، كيف يمكنني ألّا أستحضر بسرور صورة نقيب قوات المدفعية، صاحب الطّلعة الشقراء الطويلة، الذي استمر في قيادة مكتبنا في خط الدفاع المتقدم، في أثناء الأوقات العصيبة في أتيش وستينويرك؟ في السابق، كان يقود قسم الإمدادات في بوهين، وحسبناه حينذاك دقيقًا جدًّا، وأحيانًا ثقيلًا وسيّئ المزاج. كما أنه لم يكن سريع البديهة، وكخيّال متمرس كان يفاخر بكراهيته لأيِّ جهد فكري. عفويتُه في التمسك بالآراء التي كان يراها صحيحة، على الرغم من مواقف رؤسائه، جعلَتْه جديرًا بالتقدير، لكن مزاجه المتناقض كان مزعجًا. أما ميلُه المصطنع ربما إلى النكات البذيئة، فكان يسيء إلى أولئك الذين يفضِّلون الاحتشام. وكانت تحيّزاتُه السياسية والاجتماعية (بحكم انتمائه إلى الطبقة العليا من البرجوازية)، والعنصرية أيضًا كما أعتقد، بعيدة بشكل لافت عن تصوري للعالم. لقد كنا رفاقًا فحسب، من دون تبادل مشاعر حارّة في ما بيننا.

ثم دخلنا في حملة الشمال العسكرية، وإذ استُنفذت كل السبل، قرر الجنرال بريو أن على كل مكتب أن يختار ضابطًا يلازمه في انتظار العدو. اعتبر تـ...، الذي كان قائدنا كما قلتُ سابقًا، أنه ما دام هو القائد، فلن تكون التضحية للقيام بهذه المهمة إلّا من نصيبه هو. وحتى لا تصير الموافقة على الوقوع في الأسر بلا داعٍ من واجبات الجندي الحتميّة، فقد أسرّ إليَّ في وقت لاحق بأنه أمضى الليلة التالية يحُدّق في كوةٍ داخل السياج يمكنه القفز منها حاملًا مسدّسه بيده فور وصول الألمان. وربما حاول ذلك فعلًا لولا حدوث أمر غير متوقّع، في الساعات الأخيرة التالية، سمح له بسلوك سبيل الحرية. فقد وصل ليلًا إلى مركز القيادة قائد عام الفيلق الرابع، لأن كل الوحدات التي كانت تحت أوامره لم تتمكن من تجاوز نهر ليس، لذلك قرر أن ينضم إلى قائد الجيش في انتظار المصير نفسه. كان برفقته الضابط المسؤول عن المطبخ والذي كان يشغل منصب ضابط اتصال، وكما ذكرتُ سابقًا، رفض هذا الصديق المسكين الاستفادة من فرصة عُرضت عليه للالتحاق بمَنْ على شاطئ البحر. وكان من شأن هذا الإصرار على التضحية أن أنقذ الضابطَ تـ...، لأن الجنرال لم يطلب سوى أسير واحد من كل مكتب. تلقى تـ... الإذن بالمغادرة وكم كانت مفاجأتنا وفرحتنا عارمة في صباح اليوم التالي، حين ظهر أمامنا بعد تأخير طفيف عن الموعد المحدّد، في مكانٍ غير بعيد من هوندشوت، راكبًا دراجة جديدة جميلة عثر عليها على الطريق، في بلدة بايول (Bailleul) المهجورة. كان قد ودّع أحدنا الآخر في الليلة السابقة، وكان كلانا منفعلًا جدًّا، ولم يخبر أحدنا الآخر بأننا أسأنا فهم بعضنا بعضًا في السابق، وبأننا كنا نأسف كثيرًا لذلك، فمثل هذه الأمور لا يمكن التعبير عنها بالكلمات، بل يكفي أن نشعر بها معًا. لقد فرّقتنا ظروف الحياة اليوم حتّى إنّني لا أعرف، إلى تاريخ كتابة هذه السطور، إن كان لا يزال في قيد الحياة. وإني لأخشى، إذا ما أُتيحت لنا فرصة الالتقاء مرة أخرى، أن نختلف من جديد، وإن لم يكن بالحدة نفسها. سيكون من المستحيل بالنسبة إليَّ أن أمحو من ذاكرتي هذه الدقائق القليلة الممتلئة بالمشاعر الإنسانية في حديقة ستينويرك.

كما لا أستطيع أن أنسى تلك الوقائع التي سبقتها وبرّرتها. إنّ إحدى مميّزات الرجل المقدام، بلا شك، أنّ فضائله تمحو، حين تحتدم الأمور، عيوبه،

وهذه الفضائل التي كانت إلى حينه مستترة، تتألّق بشكل جليّ وغير متوقّع. إنّ رفيقنا الرائع هذا هو مثال حيّ على هذا التحول. بقي على استقامته وصدقه، لكنه امتنع عن التوقف عند صغائر الأمور، وغاب عنده حس التناقض. فكان على استعداد دائم لتقديم المعلومة والتوجيه، كما كان القائد الذي يعرف كيف يترك الحرية اللازمة لمرؤوسيه، ويتحمل مسؤولية كل شيء في الوقت نفسه. كان صبورًا، هادئًا في أسوأ الظروف، يكدّ في العمل بلا كلل، لكن من دون أن يستنزف جهد من هم تحت إمرته. وعلاوة على ذلك كله، كان فتى طيبًا! لقد عرفتُ فيه رجلًا مسؤولًا بحقّ.

مع ذلك، لا يشكّل الأفراد في أيّ مجموعة بشرية كل شيء. ومن باب أوْلى، فإن خصوصيات هؤلاء الأفراد تميل إلى التلاشي حين يشعر الجميع بأنهم ينتمون إلى مجتمع متماسك. وربما لا يكون خضوعهم لدورات تدريب متماثلة، أو الاشتراك في المهنة نفسها، أو الخضوع للقواعد الحياتية عينها، هو ما يشكِّل اللحمة الأساسية بينهم، بل إن الأمر يتطلب نقل التقاليد من كبار السنّ إلى الناشئة، أو من الرئيس إلى المرؤوس، والشعورَ بأهمية الانتماء الجماعيّ. ومن الواضح أن هذا هو الحال بالنسبة إلى ما يمكن أن يسمى المجموعات العسكرية. في كل أمة، تُشكّل أوساط الضباط المحترفين مجتمعًا صغيرًا ومتميزًا جدًّا، وقدرتها على الاستمرار تجعلها الأقدر، بلا شك، على أن تُعيد إلى حضارتنا التي تراجعت نسبيًّا، نموذجَ ما كان يسمّى في فرنسا القديمة «المكانة» وليس الطبقة فحسب. ساد لدى النبلاء في ما مضى، وبغضّ النظر عن الاختلافات العظيمة في المكانة، وعي بالمساواة بين بعضهم أقلّه في المبدأ، حتى إن الملك، كشخص، كان بموجب هذا القانون «النبيل الأول في مملكته». وحتى اليوم، حين يدخل جنرال رفيع المستوى بنياشينه إلى غرفة يعمل فيها ملازم أول متواضع، لا يمكنه، ومن دون الإخلال بأبسط قواعد المجاملة، إلّا أن يمدّ إليه يده بالمصافحة. فإذا ما كان بمواجهة ضابط صف مجند، ودعونا لا نتحدث عن جندي بسيط، فإن الظروف يجب أن تكون استثنائية جدًّا ليقْدِم هذا الجنرال على مثل هذه المبادرة. إنّ عالم ضباط الأركان داخل الجيش يشكّل جماعة متجانسة في ما بينها إلى حدّ بعيد.

ومن بين السّمات العامة التي لا شك فيها لهذه الجماعة، وما يمنحها أكبر قدر من الشرف، ذاك الاحترام للواجب المهني. علاوة على ذلك، فإن هذا الميل مشترك أيضًا لدى أغلبية الضباط من جميع الرتب. أفترض أن من بين خريجي المدرسة الحربيّة هذه، كما في كل مكان آخر، ثمّة من يتصف بالكسل وغياب الضمير، لكن لم يصادَف أن التقيت إلّا واحدًا من هذا الطراز أخضعه نظراؤه للتقييم، فأُلحق بوظيفة عسكرية بلا أهمّية في الوحدات القتاليّة. إنها لفضيلة عظيمة، نادرًا ما نجدها على هذه الدرجة من الرقي عند موظفين ينتمون إلى أسلاك أخرى.

وكثيرًا ما يدور الحديث عن الازدراء الذي يشوب علاقة ضابط الأركان بضباط الفرق المقاتلة. لن أنكر بالتأكيد وجود حالات نادرة من مظاهر الغطرسة السافرة لدى بعض المغرورين في المدرسة الحربيّة. ومع ذلك، لا بد من القول إنّ جميع الخريجين الذين عرفتهم تقريبًا قد أبدَوا مرارًا رغبتهم الكبيرة في العودة إلى مواقعهم وسط الوحدات القتاليّة. ربما كان الأمر أقرب إلى الموضة، لكنني أعرف كثيرين ممن فقدوا حماستهم بشكل واضح حين واجهوا وضعيّات قتاليّة. ويتهيأ لي أنّ هذه الرغبة، في معظم الحالات، تظل صريحة جدًّا في صفوف الشبان على الأقل. هنا لا بد من الإشارة إلى أن حسن التصرّف يستدعي التعبير عن الامتنان تجاه ما تقدّمه الرتب العسكرية الدنيا من خدمات.

أما بالنسبة إلى حالات سوء الفهم التي تقع في عدد كبير من الجيوش، وفي كل الأمم، فإنما تقع في بعض الأحيان بين المرؤوسين والقادة، ولا يتحمل القادة بالتأكيد مسؤولية ذلك بمفردهم. فالصعوبات التي تظهر في مختلف مستويات التراتبيّة لا يمكن النظر إليها من الزاوية نفسها، كما أن تخمين ما يفكر فيه الآخرون، سواء في أسفل التسلسل الهرمي أم في قمته، كان دومًا مشكلة ذهنية صعبة التصور للغاية. بيد أنه لا يمكن نكران أن القادة أيضًا يرتكبون أخطاء كثيرة في هذه المسألة، لكنني أعتقد أن ذلك ليس مردُّه الشعور بالازدراء، بل بالأحرى الافتقار إلى الخيال وإلى استيعاب الواقع.

في الأوقات التي لم نكن نقاتل فيها بعد، كنا ننشغل في كثير من الأحيان بتحريك الوحدات العسكرية على الخريطة. ولنتساءل هنا عمّن منّا عنده استعدادات كافية لتحمُّل كلّ العوائق المادية، وعن الإحباط المعنوي الذي تعانيه القوات على الأرض عندما تُضطر، في عزّ الشتاء، إلى مغادرة تجمّع كان الجندي وبمهارته قد أقام فيه موقعًا لراحته، ليلتحق بإقامة جديدة قد لا توفر له في كثير من الأحيان، سوى مرافق متواضعة يصعب التكيّف معها؟ وثمّة ما هو أسوأ. فقد لاحظت مرارًا، في الحرب السابقة، عدم قدرة القيادة على احتساب الوقت بدقة، الوقت الذي تستغرقه، مرحلة بمرحلة وبالشكل الدقيق، الأوامر الصادرة عن قيادة الأركان للوصول إلى موضع التنفيذ. فمن ينقصه حسن البصيرة لن يلقّنه أيُّ كتاب تدريب كيفية تقدير درجة أمان المسار الذي يسلكه ساعي الاتصال، فضلًا عن الأخطاء التي قد يرتكبها في المسالك الوعرة. في 22 تموز/ يوليو 1918، عايشتُ تجربة مماثلة في جيش الجنرال مانجان (Mangin)، وكانت أساليبه في هذا المجال مؤسفة للغاية، إذ تلقيتُ وأنا في المستودع أمرًا بالهجوم لم يكن من الممكن إحالته إلى الأشخاص المعنيين، لأنهم كانوا في حالة تنقّل. كان الوقت متأخرًا جدًّا بحيث لم يتسنَّ للكتيبة المسؤولة عن العملية استطلاع المكان قبل حلول الفجر. فانطلقتْ بالهجوم على غير هدى وانتهت كلها تقريبًا إلى مقتلة كان من الممكن تجنُّبها. لستُ متأكدًا من أنّ إدارة هذه الحرب لم تقع في الأخطاء نفسها. وفي هذه الحالة، يجب أن نلوم التكوين الفكري برمته، وسنعود إلى الحديث عن هذه النقطة لاحقًا.

ثمة علاج لهذا الخلل صحيح وبسيط ومعروف؛ إذ يكفي اعتماد تشكيل كتل من الضباط تحل الواحدة مكان الأخرى. بيد أنّ كبار القادة كانوا يرفضون التخلّي عن معاونيهم. ففي عامي 1915 و1916، أدى رفضهم الإذعان في مثل هذا الوضع إلى انفصام حقيقي في الرؤية بين المقاتلين والأركان. وحين تمت الموافقة على استبدال الضباط في نهاية المطاف، استوجب التأخر الطويل الذي وقع أن يكون التغيير كثيفًا، لذلك باتت القوات المقاتلة التي تعرضت للإفناء غير قادرة على توفير العناصر اللازمة بالعدد الكافي؛ إذ إن قائد سرية

أو كتيبة في الميدان، لن يكون بالضرورة ضابطًا جيدًا في قيادة الأركان. أما في شتاء عامي 1939 و1940، فلقد انتابني القلق حين لاحظتُ أن هذا التجديد في الكوادر المتصلبة لم يحدث، وسعيتُ حينذاك إلى تحذير رؤسائي من مخاطر ذلك. لكن الأزمة التي واجهتنا في شهرَيْ أيار/مايو وحزيران/يونيو، كانت مفاجئة جدًّا بحيث لم يُتَح الوقت للتحرك بالشكل الكافي.

إن ضباط قيادة الأركان في معظمهم، سواء كانوا من خريجي مدرسة البوليتكنيك (École Polytechnique) أو من مدرسة سان سير (Saint-Cyr) العسكرية، متفوّقون فعلًا ويتميّزون بجدِّيتهم وحرصهم البالغ على الإتقان، وحسّهم الوطني العميق، وذكائهم المشهود له. فهم يشكّلون إذًا، في مجموعهم، هيئة تستحق التقدير. مع ذلك، لا جدال في أنهم هم أنفسهم، أو القادة الخارجين من صفوفهم، قد انتهوا بنا إلى الهزيمة. ولمَ حدث ذلك؟ من الأفضل على الأرجح، وقبل السعي إلى تفسير الأسباب، محاولة استعراض الأساليب التي أدّت إلى هذه الكارثة.

*

لا أنوي هنا كتابة تاريخ نقديّ للحرب، ولا حتى تاريخ الحملة العسكرية في الشمال. فأنا لا أملك الوثائق الضرورية، ولا الكفاءة التقنية للقيام بذلك. لكن، من الآن فصاعدًا، ستكون ثمّة ملاحظات تتّسم بما يكفي من الوضوح بحيث لا يمكن التردّد في الإشارة إليها.

أخطاء كثيرة ومختلفة تراكمت آثارُها، فقادت جيوشنا إلى الكارثة، غير أن ثمة تقصيرًا كبيرًا يهيمن عليها جميعها. فقادتنا، أو الذين تصرفوا باسمهم، لم يجيدوا فهم هذه الحرب. وبعبارة أخرى، كان انتصار الألمان فكريًّا في الأساس، وذلك ما يشكِّل ربّما أخطر ما في هذا الانتصار.

أعتقد أننا يمكن أن نوضح الأمر أكثر. ذلك أن ثمّة سمة قاطعة تفصل بين الحضارة المعاصرة والحضارات السابقة. فمنذ بداية القرن العشرين، تغيّر مفهوم المسافة تغيُّرًا جذريًّا. لقد حدث التحوّل على مدى جيل من الزمن

تقريبًا، وبشكل سريع، بحيث ترسّخ تدريجًا في سلوكياتنا من دون أن تخفي الرتابة ما يحمله هذا التحول من طابع ثوري. لكن كان من شأن اللحظة الراهنة أن فتحتْ أعيننا على الواقع. فأشكال الحرمان التي نتجت من الحرب أو من الهزيمة فعلت فِعلها في أوروبا كأنها آلة للعودة إلى الزمن الغابر، لكنها أعادتنا فجأة إلى أنماط حياةٍ ماضية ظنناها اختفت إلى الأبد. أكتب هذه الكلمات من منزلي في الريف. في العام الماضي، عندما كنتُ أنا والعاملين نعمل على تأمين البنزين لوحدات الجيش، كان مركز المقاطعة الذي يشكّل الموقع الاقتصادي الصغير، قريبًا جدًّا. أما هذا العام، وبالنسبة إلى من يقدرون على السفر، فعليهم أن يكتفوا بالدراجات، أو إن شئت وسيلة أكبر فبالعربة التي يجرها الحمار، بحيث تتحوّل كل مغادرة نحو القرية إلى سفر طويل، تمامًا مثلما كان الأمر قبل ثلاثين أو أربعين سنة مضت! خاض الألمان حربًا بمقاييس اليوم، تحت جناح السرعة. أما نحن، فلم نحاول شنّ حرب بمقاييس الأمس أو ما قبله فحسب، بل إننا، في حين رأينا كيف يُدير الألمان حربهم، لم ندرك، أو لم نشأ أن نفهم، الوتيرة التي تسير بها الإيقاعات المتسارعة لهذه الحقبة الجديدة. لذلك بدا في الواقع أنّ ثمة مواجهة بين خصمين ينتميان إلى عصرين إنسانيّين مختلفين يشتبكان في ميادين قتالنا. فباختصار نحن قمنا بتجديد الحروب التي ألفناها في مستعمراتنا، حيث كان الرّمح يواجِه البندقية، أمّا في هذه المرة فكنا نحن الأكثر تخلفًا[6].

لنراجع قراءةَ قائمة نقاط التمركز التي اتخذها الجيش الأول خلال حملته العسكرية في الشمال حتى يتسنى لنا فهم المسألة أكثر: بلدات وحواضر فالنسيان، ودُويه، ولنس، وإستير، وأتيش، وستينويرك. لقد كنا نلوذ بالتراجع

---

(6) عن تسارع الإيقاع الذي تفرضه تحولات الحاضر على الفكر العسكري، يمكن العثور على ملاحظات ذكية في كتاب صغير لا يتوقّع المرء العثور عليها بين صفحاته، وهو كتاب مارتن شارلزوورث (Martin Charlesworth) المعنوَن: **الطرقات والحركة التجارية في الإمبراطورية الرومانية** (*Les Routes et le trafic commercial dans l'Empire romain*).

يُنظر التفصيلات الواردة في ص 225. خصوصًا ما يورده بقوله: «يتخذ الرجال اليوم قراراتهم بسرعة كانت ستُدهش أسلافنا»، (تموز/ يوليو 1942).

مع كل ضغط يمارسه علينا العدو. ربما كان هذا طبيعيًا في أحوال مماثلة، ولكن ما هو مقدار التراجع المطلوب عادةً؟ ما بين عشرين إلى خمسة وثلاثين كيلومترًا في كل مرة، لا أكثر. وبعبارة أخرى، فإن أقصى حدّ ممكن هو نصف ساعة بسرعة السيارة أو، مثلما علّمنا فيدال دو لا بلاش (Vidal de La Blache)[7] أنه ينبغي اليوم التفكيرُ بمسافات زمنية. بطبيعة الحال، كانت تحركات خط الدفاع بمسافات نسبية، على الأقل على النحو الذي تصوّر من خلاله القادة قدرتَهم على فرض مسار معيّن على العدو. سمعنا بوضوح دوي المدافع الرشاشة من المدرسة التي كنا نتمركز فيها في بلدة لنس. صحيح أن هذا التذكير بأصوات منسية إلى حدٍّ ما قد يبدو موحيًا للغاية لجنود قدامى شاركوا في حرب 1914، إلاّ أنني لا أعتقد أنّ إرادة قادتنا كانت تكمن في إرضاء هيئة أركانهم. ما حصل ببساطة هو أنّ الألمان كانوا قد تقدّموا تقدُّمًا أسرع مما هو معتاد كقاعدة عامة، وثابروا على هذا النحو تقريبًا. وقد علّق أحد رفاقي على أسلوبنا في القتال هذا قائلًا إن استراتيجيتنا هي استراتيجية «على بركة الله»، وهو أحد هؤلاء الشبان الذين كانوا، على الأقل، من أبناء زمانهم، وممن يعانون تجاهلَ رؤسائهم لقدراتهم. في أي حال، لم يتطلب الأمر أن تكون من خريجي المدرسة الحربية أو مركز الدراسات العليا العسكرية (C.H.E.M) لتفهم وضعًا شديد الوضوح. كان جليًّا أنه بمجرّد تعرّض جيش نهر الميز للاختراق، سيصير العدو أكثر قربًا من جبهتنا، ويزداد ضغطه يومًا بعد يوم. حينها لم يبقَ غير فرصة وحيدة للخلاص، هي إعادة بناء خط دفاع جديد يقوم على مسافة من نقطة «تراجعنا»، وتكون نقطة بعيدة إلى الخلف بما يكفي حتى لا يتم اجتياحنا قبل أن يتسنى لنا الوقت اللازم لنتمركز في مواقعنا الجديدة. وبدلًا من ذلك اكتفينا بعبور الثغرة بشكل وحدات صغيرة كان من السهل سحقها فورًا، بينما بقي جزء من القوات مصرًّا على البقاء في بلدتَي فالنسيان ودونان (Denain). وحين تقرّر أخيرًا التراجع نحو الشاطئ، لم تتمكن الفرق العسكرية التي تُركت هناك من المغادرة في الوقت المناسب. ولو كان الماريشال جوفر

(7) جغرافي فرنسي مرموق توفي في عام 1918. صاحب حوليات الجغرافيا (*Annales de Géographie*) التي أعادت تجديد علم الجغرافيا الفرنسية في نهاية القرن التاسع عشر. (المترجمة)

قد أقْدَم على هذا العمل بعد معركتي شارلروا ومورانج (Morhange)، لما انتصر في معركة المارن، بل لَكَان هُزم في غيز (Guise)، وذلك على الرغم من أن القوات كانت تتنقّل سيرًا على الأقدام في حينه.

لستُ أدري ما مقدار المسؤولية التي تتحملها بقية مستويات القيادة عند ارتكاب مثل هذه الأخطاء؛ أكانت الجيش الأول، أم المقر العام، أم على المستوى الوسيط، مجموعة الجيوش الأولى. كان يتولّى قيادة هذه الأخيرة الجنرال بِيّوت (Gaston Billotte) في البداية، ثم بدءًا من 25 أيار/مايو، تولّى الجنرال بلانشار القيادة. لم يتمكن الجنرال بِيّوت من النجاح في عمليات الدفاع وقد أُصيب إصابة قاتلة في حادث سيارة بتاريخ 21 أيار/مايو، وهو ما جعله كبش فداء. وهذا ما حصل فعلًا، إذا حقّ لي أن أتبنّى فحوى بعض المحادثات التي سمعتُها عن غير قصد، في غرفة الطعام الحزينة تلك، في بلدة مالو لي بان.

وكان في تحميل بِيّوت المسؤولية شيء من الصواب. فلنتساءلْ ما هو الردّ المناسب الذي كان ينبغي على الجيوش الفرنسية والبريطانية أن تقوم به إذا ما غزا الألمان بلجيكا؟ ظلت هذه المشكلة الشغل الشاغل لمكاتب «العمليات» في قيادة الأركان طوال فصل الشتاء وكان هناك حلّان يختصران الخيارات المتاحة. اقترح بعضهم أن ننتظر العدو بأقدام ثابتة في مواقع تمتد من بلجيكا، أي من نهر إسكو (l'Escaut)، في اتجاه الشرق، عبر خط من المخابئ والخنادق المضادة للدبابات بمحاذاة حدودنا، إلّا أن هذا الخط لم يكن مكتملًا تمامًا للأسف، وهو ما يفرض إطلاق بعض العناصر للاستطلاع وكسب الوقت. في المقابل أراد آخرون أن تجري الحرب برمتها، وعلى الفور، خارج أراضينا الوطنية، لهذا اقترحوا أن نحتل بضربة واحدة الضفة اليسرى من نهر ديل (Dyle)، وكذلك الضفة اليسرى من نهر الميز في بلجيكا، إذ تمتدّ في المنطقة الفاصلة بين النهرين زاوية من بلدة وافر (Wavre) إلى مدينة نامور (Namur)، عبر السهول العالية في منطقة هسباي (Hesbaye)، تلك المنطقة الخالية تمامًا من العقبات الطبيعية. ويعرف الجميع أن الحلّ الثاني هو ما اعتُمد، ويبدو أن هذا القرار كان بوحي من الجنرال بِيّوت وبتأثير حاسمٍ منه.

ربما كان ذلك الخيار متهورًا في حدّ ذاته، وسيستمرّ ويتضاعف بمجرد أن تَسَارَع التراجع على خط الدفاع البلجيكي حول مدينة لييج (Liège). كان من المفترض أن يوفر لنا هذا الخط فترة سماح لأيام عدّة، وهي فترة ضرورية لتدعيم جبهتنا الجديدة. وبما أن الجسور بين مدينة لييج وبلدة ماستريخت (Maestricht) لم تُقطع في اللحظة المناسبة، فقد تم الالتفاف على المكان من لحظة بدء الهجوم الألماني، وشهادات ضباط الارتباط لم تترك شكًا في أن خط الدفاع هذا سرعان ما سقط في يد الألمان. في الوقت نفسه، كانت الصدامات الأولى بين الجيشين تكشف عن مفاجآت أخرى. لم تكن دبابات العدو أكثر عددًا بكثير من دباباتنا كما افترضته أجهزة استخباراتنا، لكن بعض هذه الدبابات كان فعله أعظم حجمًا. كما تفوّقت القوات الجوية الألمانية على قواتنا الجوية تفوّقًا هائلًا. عُهد بمهمّة إقامة الاتصال في مقدمة نهر ديل، وعلى خط وافر – نامور (Wavre-Namur)، إلى فيلق الفرسان الذي، على الرغم من اسمه التقليدي، كان مجهزًا كليًا بالآليات. وبالمناسبة أخبرني طبيب الجيش البيطري ذات يوم أن هذا التشكيل العسكري هو التشكيل الوحيد الذي لم يسبق له التعامل معه. وبدءًا من 11 أيار/ مايو، اقترح الجنرال بريو الذي كان يقود هذه الوحدة العظيمة، التخلي عن التحرّك المقرّر، وفي حينه كان خط دفاعنا سينتقل فورًا إلى نهر إسكو وإلى حدودنا مع بلجيكا. هنا أيضًا اعترض بِيّوت فجأة على الخطة. حين يتخذ قائدٌ بهذه الرتبة الرفيعة قرار ممارسة الضغوط الشخصية بنفسه، فإنها غالبًا ما تُؤتي ثمارها. ولديّ أسباب كثيرة تدعوني إلى الاعتقاد أن الجنرال بريو عمَد، بعد لقائه قائدَ مجموعة الجيوش، إلى التخفيف من حدة اللهجة في التقرير الذي قدّمه بشأن الأحداث؛ بل من المؤكد أن هذا التقرير لم يكن له أيُّ تأثير يُذكر، في أي حال.

أتساءل ما الذي كان سيحلّ بالجيش الأول، وبالقوات البريطانية والفرنسية المتموضعة على يساره، لو لم تنفتح تلك الثغرة الكبيرة غير المتوقعة على ميمنته في منطقة نهر الميز؟ أنا بالتأكيد لا أملك الخبرة اللازمة لتوقُّع ذلك. في 14 أيار/ مايو، اختُرق الجزء الموكل إلينا من الجبهة وكانت مهمّة الدفاع عنه قد أُسنِدت إلى إحدى تلك الفرق المغربية التي يبدو أن عناصرها لم يتحملوا، في بداية الأمر على الأقل، القصفَ الجوي والهجمات بالدبابات. لكن سرعان ما جرى تدارك الأمر.

لا جدال في أنّ هزيمة جيوش نهر الميز ومدينة سيدان، التي أدّت إلى انكشاف الخطوط الخلفية لقواتنا العاملة في بلجيكا، حكمت على تحرّكاتها بفشل لا يمكن تخطيه. كيف يمكن تفسير عدم تمكّننا من الدفاع عن سهل شديد الانحدار، يقع على ضفاف نهر كبير، ويُفترض أن يكون الدفاع عنه سهلًا للغاية؟ في هذا الصدد لم أتمكن حتى الآن من فك طلاسم هذا الحدث، وهو من أهم أحداث هذه الحرب وربما أكثرها إثارة للدهشة، خصوصًا من خلال ما سمعته من أقوال لا تستند إلى أيّ أسس متينة. ما أعرفه جيدًا هو أن الأمر استغرق وقتًا طويلًا لاستخلاص العبر الضرورية.

في 13 أيار/مايو، علمنا باختراق خط آخر على الميز. وفي اليوم نفسه صدر أمر وقّعه القائد العام للجيوش الفرنسية غاملان (Maurice Gamelin)، يقضي بالمقاومة على خط وافر - نامور. لم يُتّخذ قرار التراجع إلا في 15 أيار/مايو، وكان الانسحاب يجري ببطء شديد كما قلت سابقًا. ووفق هذه الوتيرة، لم يحدث أيُّ تغيير، على الرغم من حلول الجنرال ويغان محلّ الجنرال غاملان (بتاريخ 20 أيار/مايو، ورغم الزيارة التي قام بها في اليوم التالي القائدُ الأعلى للجيوش المعيَّن حديثًا، أي الجنرال ويغان، إلى اللورد غورت [جون فيريكير John Vereker] والجنرال بِيّوت[8]. وكانت رحلة دراماتيكية بالطائرة، لأن الاتصالات الأرضية كانت مقطوعة حتى ساحل البحر. وقيل إنه في طريق العودة من هذه المقابلة، اصطدمت سيارة قائد مجموعة الجيوش، الذي نجا من الموت المحتّم مرات عديدة من قبل، بشاحنة سحقتها كليًا. ما هو الدور الأساسي الذي اضطلع به هذا الشخص [أي الجنرال بِيّوت] في الأحداث التي تلت 13 أيار/مايو؟ ليس لدي أيّ إجابة واضحة بشأن هذا الموضوع. ثمة شيء واحد يمكن تأكيده، هو أن الأخطاء التي ارتُكبت آنذاك كانت حاسمة جدًا، بسبب الآثار التي خلّفتها، وهي أخطاء لا يمكن التغاضي عنها مقارنة بالخيار الأول لخطة العمليات، على

---

(8) أورد هذه الرواية كما وصلت إليّ في حينه، بلا زيادة أو نقصان. إذا فهمتُ جيدًا ما ورد في التقرير الذي قدّمه ويغان أمام لجنة الحرب الفرنسية البريطانية في 22 أيار/مايو، في الصفحة 130 وعنوانه الوثائق السرية للأركان العسكرية الفرنسية، (*Les Documents secrets de l'État-Major général français*)، فإن هذا الأخير لم يتمكن من الاتصال باللورد غورت (تموز/يوليو 1942).

الرغم من درجة المخاطرة التي تضمّنها هذا الخيار. أيًّا يكن الأمر، فكثير من القادة الكبار يخطئون في البداية، لكن المأساة الحقيقية تبدأ عندما لا يعرف القادة طريق إصلاح أخطائهم. وفي أي حال، لم يلاحظ أحد بعد غياب بِيّوت عن مسرح الأحداث أنّ روحًا جديدة حلّت على القيادة، فقد كانت عيوب بِيّوت التي لا يمكن إنكارها شائعة في أوساط مدرسة برمتها.

هل نجحت الحملة العسكرية في الشمال بنتائجها المؤلمة، على الأقل، في إقناع أساتذتنا بأن إيقاع الحرب قد تغيّر؟ الجواب سيحمله تاريخ الاضطرابات الأخيرة التي ستواجهها وحدات الجيوش الناجية من كارثة منطقة الفلاندر على السواحل الفرنسية. لقد ألقت السفن التي ساعدتنا على الفرار من الأسر، جنودًا شتّتهم الانسحاب والإبحار الفوضوي، وحطام السفن الناجز، ونزع سلاحهم. ولقد تطلّب الأمر إعادة تجميع الوحدات وإعادة تأطيرها وتجهيزها مرة أخرى، من الأسفل إلى الرأس. وبهدف إعادة البناء هذه، الحساسة والبطيئة بالضرورة، اختارت القيادة العليا المنطقةَ الممتدة من مدينة إفرو (Évreux) إلى مدينة «كان». كانت جبهة نهر السوم التي بدأت بالتحرك من فورها، على بعد أقل من مئة وخمسين كيلومترًا تقريبًا. ولكان ذلك القدر كافيًا في زمن نابليون؛ وكافيًا من دون شك في عام 1915. أما في عام 1940 الميمون، فهذا ليس كافيًا بالمرة. اتّضح لنا الأمر مع الألمان بشكل جليّ جدًّا، إذ سرعان ما أصبح من الضروري أن نتراجع نحو الجنوب، بمسافات قصيرة في البداية كلما استدعى الأمر، ثم أبعد فأبعد لاحقًا. لكن الانهيار الكبير كان قد بدأ حينها. ربما كان من الأفضل في الحقيقة لو تجمّعنا على نهر شارانت (Charente)، أو على نهر غارون (Garonne)، حيث يوفر لنا هذا الموقع الجيد فرصة التحرك في كل اتجاه، ولأمكننا حينئذٍ أن نكون أكثر فاعلية. لا يزال الشعور بالغضب يعتصر قلبي كلما فكرتُ في ذلك، مثلما كان الحال حين كنا نتموضع في قصور منطقة النورماندي. لم نكن وحدنا ضحايا هذه القسوة اللافتة التي قدّمتها لنا دروس التجربة، ولا كنا الأكثر استياءً على الأغلب. ومع تقدُّم الألمان نحو سهل سون (Saône) وجبل جورا (Jura) ونهر الراين، ألم يكن تطويقُ الجيوش الفرنسية المتواجدة في الشرق، وتقريبًا تلك التي كانت في جبال الألب، متعة بالنسبة

إليهم؟ لقد ظل جهاز ضبط الإيقاع في مقرات القيادة، من بداية الحرب إلى نهايتها، متأخرًا بمراحل شاسعة[9].

ثمة حادثة لم تكن لها نتائج عملية، لكنها تكشف الوضع المزري بحيث أثبتت لي، في ذلك الوقت، أنّ هذا الشكل الغريب من التصلّب العقلي لم يقتصر فقط على السلطات العليا التي تتحمل مسؤولية اختيار أماكن تقع قرب الجبهة، كملجأ لنا. فمنذ أن عُهد إلى الجنرال الذي يقود الفيلق السادس عشر بمهمة توجيه أعمال إعادة تجميع القوّات بعد سلسلة من المغامرات الفاشلة، نُقل أركان الجيش الأول الخاملون والذين لا يُحسب لهم حساب، إلى موقعين منفصلين جنوب مدينة «كان». وفي 15 حزيران/ يونيو، تلقّينا أخيرًا أوامر بالانتقال إلى مدينة رين. كان من المفترض أن يتم الانتقال عبر سكة الحديد كما على الطريق. ولأن عدد السيارات قليل، استُخدمت هذه أولًا لنقل المفرزة إلى محطّة انطلاق القطار. وبحلول المساء، وعند الانتهاء من نقل الجميع، توجهتُ مع أحد رفاقي لمقابلة المقدَّم وهو أعلانا رتبة. وكان الاتفاق أن نقترح عليه الإسراع في المغادرة، فكلنا كان يعرف، في الواقع، أن الوحدات المؤلّلة الألمانية تسللت إلى منطقة النورماندي، وأنها تهدد طرق مواصلاتنا نحو الجنوب على وجه الخصوص. إنّ أيّ مواجهة غير متوقعة بين سيارات مدرعة، وقافلة من ضباط لا يحملون من السلاح سوى بضعة مسدسات، هي مواجهة غبية ولن ينتج منها غير أسرِنا بلا فائدة، وهو احتمال كان يشعرنا بالاستياء التام. لكن المقدم استرسل في الجدل كعادته؛ فقد رأى من غير المناسب وصولَنا إلى مدينة رين ليلًا، ودفعه هذا الانشغال براحتنا، إلى انتظار ساعات الصباح الأولى للمغادرة. لا بدّ من الإقرار بالحقيقة، وهي أننا لم نواجه أيّ مشكلات في طريقنا، لكن الانتظار كان مخاطرة كبيرة دفعتني إلى اعتبار الحادث المؤسف الذي راح ضحيته هذا القائد الذي يعلونا رتبة غير مستغربٍ، إذ قيل إنه وجد نفسه محاصرًا فجأة في منطقة الواز (Oise) في غرفة طعامه من شلّة من المشاة الألمان.

---

(9) «أخبر السيد دالاديه مجلس النواب في 2 شباط/ فبراير 1937 أنه يأسف لعدم عثوره، لدى عودته إلى شارع سان دومينيك، إلا على فرقة مؤللة خفيفة واحدة، هي تلك التي شكّلها قبل نحو أربع سنوات».

إضافةً إلى ذلك، أتساءل إن تمكّنا يومًا، خلال الحملة العسكرية برمتها، من معرفة مكان تمركز العدو. فإن كان قادتنا يجهلون نياته الفعلية، والأسوأ، يجهلون إمكاناته المادية، فذلك لأنّ استخباراتنا كانت سيئة التنظيم. لكن في الوقت نفسه، كان سبب الجهل بتحركات العدو يعود في المقام الأول إلى أنه يسبقنا دائمًا ببون شاسع في تقدير المسافات. كانت مسيرتنا بطيئة جدًّا، ولم نستوعب دائمًا أن الخصم أمكنه التقدم بسرعة كبيرة. حين انطلقنا من مدينة لنس، في 22 أيار/مايو، تقرر أن تقسِّم رئاسة الأركان إلى مجموعتين: موقع القيادة العاملة في إستير، والجزء الأكبر في مرفيل (Merville)، بعيدًا عن منطقة القتال، أو هكذا اعتقدنا. وكانت المفاجأة كبيرة على أرض الواقع إذ اكتشفنا أن ما يسمى «العمق»، كان أقرب إلى خط النار الفعلي من المستوى الذي يسمّى «مقدّمة الوحدات القتاليّة»، بل حين حدثت الثغرة في نهر الميز، وجب علينا، ونحن في خضم المسير، السعي لإجراء تعديل عاجل في نقاط إنزال إحدى الفرق العسكرية، لأننا كدنا نسلمها مباشرة للعدو بذريعة سدّ الثغرة.

بعد وصولنا إلى منطقة الفلاندر تكرّرت هذه الحسابات الخاطئة. وكم حدث أن لاحظ قائد الفرقة، وهو يقترب من النقطة التي حُدّدت له مركزَ قيادة، أنّ العدو سبقه إليها. لا أزال أشعر بالرعب كلما مرّت بذهني ذكرى المأساة التي كنتُ سأتسبب بها ذات يوم، من غير ذنب إن صح القول، إذ انعدمت لدي وسائل توفير المعلومات، وبالتالي لم أكن مسؤولًا لأن المعلومات الكافية التي كانت تتزود بها سائر مكاتب هيئة الأركان لم تكن تصلني في الوقت المناسب. قررت تغيير موقع المعسكر الخاص بإحدى فرق شاحنات الصهاريج لأسباب أمنية، لأن الموقع السابق كان قريبًا جدًّا من الجبهة الشرقية للقتال. ثم علمتُ، بمجرد إرسال الأمر، أن الألمان قدموا من الجنوب الغربي واحتلوا ذلك الموقع بالفعل. ولقد حدثت المعجزة الفعلية بفضل الازدحام الذي حال دون وصول الفرقة إلى ذلك المكان. إلا أن قسمًا من مجموعة النقل بالمركبات كان أقل حظًّا، فقد تعرّض لهجوم بالمدافع الرشاشة عند أطراف الموقع الذي حدده له الجيش، فقُتل بعض من فيه وأُسر آخرون.

أخيرًا، هل لي أن أنسى كيف عرفنا أن الطريق إلى البحر، داخل الأراضي الفرنسية، لم تعد سالكة أمامنا؟ قبل ذلك بأيام عدة، عملنا، أنا ولاشان، على إرسال الجزء الأكبر من مستودعات البنزين إلى معسكر مجاور قريب من الساحل. صار وجود معظم الموظفين المسؤولين عن الخزانات بلا فائدة تُذكر، إذ لم يتبقّ من مستودعاتنا الثابتة غير تلك الموجودة في مدينة ليل. فإذا ما عثرنا في طريقنا، صدفةً، على عربات محمّلة بصفائح البنزين، كنا نكتفي بالسماح للوحدات بالتزود منها فورًا وبقدر حاجتها. لذلك قررنا ألّا نستبقي معنا سوى مفرزة صغيرة من الجنود، وعدد من الضباط، معظمهم كانوا يسهرون على تأمين اتصالاتنا بفيالق الجيش. لكنّ وجودَ القوات المسلحة انحسر إلى مساحة أضيق فأضيق بعد أن أُجبرت على التراجع من كل حدب وصوب. صارت كل مراكز قيادة الوحدات المختلفة متقاربة بعضها من بعض في نهاية المطاف، بحيث كان بالإمكان زيارتها جميعًا في جولة أو جولتين فقط. لذلك، بدا لنا من غير الحكمة أن نستمر في تعريض مزيد من الضباط الذين لم نعُد بحاجة إليهم لخطر الوقوع في الأسر. فقررنا، في مساء 26 أيار/مايو، أن نرسل أحدهم في اليوم التالي ليلتحق بالمستودع الرئيسي. لكني رأيته في صباح 28 أيار/مايو وقد عاد إلى ستينويرك بعد أن صادف دبابات ألمانية على الطريق عينها التي سلكها بين ستينويرك وكاسل (Cassel). كانت تلك أنباءً خطيرة، فأبلغت على الفور رؤساءنا. وسألني الزميل الأول الذي تولينا إبلاغه في المكتب الثالث: «هل أنت متأكد من أنها لم تكن دبابات فرنسية؟». فأجاب فـ... بأن لديه من الإثباتات ما يؤكّد أنهم ألمان، وأول برهان على ذلك ما شاهده بأمّ عينه من تبادلِ إطلاق النار بين هذه الآليّات وقواتنا. وفي الإثر انتقلنا إلى مقابلة الجنرال بريو. وعلى عكس ما كنا نتوقّع، لم يفقد الجنرال أعصابه، بل كان أشدّ تماسكًا ولم يشكك في الأمر. ولا أزال أتساءل كم من الوقت كانت هذه المعلومة ستتأخر في الوصول، لو لم يمرّ ذلك الملازم الشجاع بالمكان صدفةً.

ليس من الإنصاف بالتأكيد، أن نلقي كامل المسؤولية على عاتق الرُّتب العليا من القيادة فحسب، لأن الجنود بدورهم لم يوفّقوا عمومًا في ضبط

إيقاع تحركاتهم وفق السرعة الألمانية، بل إنّ وجهَيْ التقصير مرتبطان ارتباطًا وثيقًا. فعملية نقل المعلومات لم تكن وحدها التي تجري على نحو سيّئ للغاية، سواء من أسفل إلى أعلى أو العكس، بل إنّ ضباط القوات البرية، وهم أقل التزامًا بالنظرية، كانوا في معظمهم، مثل رفاقهم من ضباط الأركان العامة، من خرّيجي المدرسة نفسها. ففي خلال الحملة كلّها حافظ الألمان على عادتهم المزعجة، فكانوا يظهرون حيث ينبغي ألا يكونوا ومن دون أن يلتزموا قواعدَ معينة. في بداية الربيع، شرعنا في إنشاء مستودع «شبه ثابت» للبنزين في لاندريسي (Landrecies)، وكانت تلك فكرة عظيمة لقيادة الأركان العامّة، صمِّمت لتوافق نموذج حرب لم يتحقق إلّا على الورق. وفي أحد أيام شهر أيار/ مايو، صادف الضابط المسؤول عن إنشاء هذا المستودع مفرزة من الدبابات في الشارع ولاحظ أن لونها كان غريبًا. وماذا جرى؟ هل كان ليعرف كل النماذج المستخدَمة في الجيش الفرنسي؟ وعندما سلك رتل الدبابات هذا طريقًا مُستَغربة، لأنه سار في اتجاه مدينة كامبريه، في حين كان من الواضح أنّ «الجبهة» تقع في الاتجاه المعاكس تمامًا، لم يستوعب الضابط حجم الخطر اعتقادًا منه أن رتل الدبابات قد ضل طريقه، فأوشك أن يتقدّم من قائد القافلة ليرشده إلى الطريق الصحيحة لو لم يصرخ به أحد المارّة: «انتبه إنّهم ألمان!».

لقد شكّلت هذه الحرب سلسلة من المفاجآت المتواصلة، نتج منها على المستوى المعنوي عواقب بدت خطيرة جدًّا. سأتطرق هنا إلى موضوع حساس، لست مخوَّلًا أن أستفيض فيه وسيقتصر كلامي على ذكر انطباعات قديمة. فكم من المهم لبعض الأمور أن تُقال بقسوة إذا تطلّب الحال ذلك. لقد قُدّر للإنسان أن يواجه الأخطار المتوقعة في المكان الذي يتوقّعها فيه، أما إذا ظهر الخطر في مكان غير متوقع فتكون مفاجآت لا حول ولا قوة له عليها. بعد تجربة المارن في الحرب العالمية الأولى، رأيتُ قوة من الجنود تتصدر خط الهجوم بشجاعة تحت وقع القصف الرهيب، لكنها استسلمت للذعر في اليوم التالي، لأنّ ثلاث قذائف سقطت، من دون أن يُصاب أحد، على طول الطريق التي انقسمت فيها إلى مجموعات، خلال سعيها لجلب الماء. «لقد غادرنا المكان لأن الألمان كانوا هناك»، هذه جملة سمعتُها مرارًا في أيار/ مايو وحزيران/ يونيو الماضيين،

والمقصود بها «حيث لم نتوقع وجودهم، أو حيث ليس ثمة ما يسمح لنا بافتراض توقّع وجودهم». حتى إن بعض الإخفاقات، التي أخشى أن إنكارها غير ممكن، كان مصدرَها بطء شديد في التفكير والتوقّع. لقد هُزم جنودنا في المقام الأول، وعلى نحوٍ ما، تم التغلب عليهم بسهولة، لأننا كنا متأخرين في التفكير.

*

كانت مواجهاتنا مع العدو غير متوقعة من حيث الزمان والمكان في معظم الأحيان. إنما كانت تحدث، وحدثت في معظمها، بوتيرة متزايدة، بطريقة لم يكن لا القادة، ولا القوات بالتالي، مستعدين لها. كنا نتبادل إطلاق النار من خندق إلى آخر، على بُعد أمتار قليلة، مثلما كنا نفعل في الماضي [أي في الحرب العالمية الأولى] في منطقة أرغون (Argonne). وكان طبيعيًّا انتزاع مواقع من العدو من حين إلى آخر. كان باستطاعة المرء أن يتحسّس قدرته على صدّ هجوم من وراء الأسلاك الشائكة بقوة وحزم، على الرغم من تعرّضها للتدمير بسبب «الألغام»، أو أن يهجم ببطولة على مواقع قُصفت بالمدفعية، وإن بشكل جزئي. رسم ضباط الأركان كل هذا بناءً على تصوُّر للتحرّكات العسكرية كان ينضج بحكمة وتأنٍّ، بفعل التجارب المختلفة. لكن كان ثمة توجس من احتمال أن نقابل فجأة، وجهًا لوجه، دبابات في مساحة مكشوفة. كان الألمان، من جهتهم، يركضون في كل مكان، عبر الدروب، يتحسّسون الأرض، ويتوقفون حيث تبدو المقاومة أشدّ وطأة. فإذا ما تحسسوا أماكن ضعيفة، استغلّوا مكاسبهم على الفور للبدء بالتحركات التالية المناسبة. كانوا بالأحرى، على ما يبدو، يختارون بين الكثير من الخطط المُعدّة مسبقًا من باب التحسُّب، وفقًا للمنهجية الانتهازية التي امتازت بها الروح الهتلرية. اعتمدوا على الإقدام وعلى عنصر المباغتة. بينما اعتمدنا نحن، على مبادئ الجمود في العمل وعلى ما دأبنا عليه عادة.

في هذا الصدد، كشفت الأحداث الأخيرة التي شهدتها الحملة كل عيوب جيشنا، وقد قُدِّر لي أن أكون شاهدًا عليها، في وقت بدا أن دروس الخبرة أضحت مفيدة في النهاية. ومع تقدُّم العدو إلى الغرب من باريس قُطعت

الطريق أمام الجيوش المتراجعة في منطقة نهر اللوار، فتقرر الدفاع عن منطقة بريتانيا من خلال تجميع القوات المنسحبة من النورماندي. أما كيف حصل ذلك؟ فقد أُرسل ضابط محترم برتبة جنرال من سلاح الهندسة ليستطلع فورًا «موقعًا» جيدًا من البحر إلى البحر. ذلك أن لا سبيل لاختيار «موقع» جيد وثابت وفيه منافذ للخروج، مع خط متقدم وخط للدفاع وإلى ما هنالك، ما لم يتم تحديد ذلك مسبقًا على الخريطة، قبل أن يجري التموضع على الأرض. وبالطبع، افتقدنا الوقت الكافي للتحضير، كما افتقدنا المدافع الضرورية لمعارك مستقبلية، والذخيرة لكل هذه المدافع، إذا افترضنا إمكان العثور عليها. وكانت النتيجة أنه بعد تبادل رشقات نيران رشاشة في بلدة فوجير (Fougères) بحسب ما قيل لي، دخل الألمان مدينة رين من دون قتال (إذ يُفترض أن ذلك «الموقع» كان يحميها)، ثم انتشروا في جميع أنحاء شبه الجزيرة وأسروا حشودًا من الجنود.

هل يعني ذلك القول بأن كل أشكال الدفاع صارت مستحيلة في اللحظة ذاتها التي أعلن فيها الماريشال بيتان طلب الهدنة؟ كثير من الضباط كانوا يعتقدون عكس ذلك، ولا سيَّما الشبان منهم؛ فالحدود الفاصلة بين الأجيال توسّعت أكثر وأكثر منذ بدأت وتيرة الأحداث بالتسارع. لكن الرؤساء لم يتمتعوا للأسف بالتفكير المرن. وما زلتُ أعتقد حتى اليوم بأن هؤلاء «المقاتلين حتى النهاية»، كما دعوناهم في عام 1918، لم يكونوا على خطأ. فهم حلموا بحرب حديثة، حرب عصابات ضد دبابات ومفارز مؤلّلة. بل إن بعضهم، إن لم أخطئ التقدير، رسموا لذلك خططًا لا تزال حتى الآن مدفونة في الأدراج. إن الدرّاجات النارية، التي كان العدو يحسن استخدامها وبكثرة، لا تسير بسرعة وأمان إلا على المسالك السلسة. أما الآليّات المزوّدة بالكاسحات فسرعتها على الأسفلت أسرع منها في الحقول، بينما لا يتحمّل المدفع أو المدرعة العادية سوى الطرق المعبَّدة. لذلك كان الألمان، انسجامًا مع برنامج السرعة الذي اعتمدوا عليه منذ البداية، يطلقون عناصر الاتصال الخاصة بهم على الطرق المعبّدة حصرًا. وبالتالي لم يحتاجوا إلى البقاء في مواقع تمتد على مئات عدة من الكيلومترات، بحيث يكاد يكون من المستحيل تأمينها وتزويدها بالإمدادات. في المقابل، كان يمكن التصدّي للغزاة انطلاقًا

من جيوب دفاع تتوزع على الطرق البرية التي يسلكها العدو، وتكون مموهة بما يكفي، وقادرة على التحرك بسرعة، ومجهزة بعدد قليل من الرشاشات وبعض المدافع المضادة للدبابات، حتى لو كانت من عيار 75 الخفيف! حين لمحتُ الرتل الألماني في مدينة رين، المؤلّف أساسًا من راكبي الدراجات النارية التي كانت تسير على طول جادة سيفينييه (Sévigné) بسلام، استفاقت فيَّ ردات الفعل القديمة حين كنتُ في فرقة المشاة، إلا أن ذلك لم يكن ممكنًا، إذ كنا جميعًا، سواء أمناء المكاتب أو عمال مستودع البنزين، مجرّدين تمامًا من السلاح منذ بدء الحملة. ولكَمْ كان مغريًا لنا انتظار ذلك الرتل اللعين في كمين، خلف أشجار هذه المنطقة البريتانيّة التي تتيح نصب الكمائن، حتى لو كانت المعدات المستخدمة متواضعة كالتي في حوزتنا. ثم، وبمجرد إحداث اللحظات الأولى من الفوضى، نعود سريعًا إلى «الداخل» ونبدأ بالتصدّي من جديد للعدو على مسافة أبعد. أنا واثق من أن ثلاثة أرباع جنودنا كانوا متحمسين لمثل هذه الخطة، إنما وللأسف، لا تنص الأنظمة على أيِّ شيء من هذا القبيل.

*

هذه الحرب المتسارعة، كانت بطبيعة الحال تستلزم معداتها الخاصة. حصل الألمان على ما يلزم منها، لكن فرنسا لم تحصل عليها، وإن حصلت فليس بالقدر الكافي. لقد قلنا ذلك مرارًا وتكرارًا: لم يكن لدينا ما يكفي من الدبابات، ولا ما يكفي من الطائرات، ولا ما يكفي من الشاحنات والدراجات النارية والجرّارات، وهذا ما منعنا منذ البداية من تسيير العمليات كما كان ينبغي. من المؤكد أن أسباب هذا النقص المؤسف والقاتل ليست كلها بالفعل ذات طبيعة عسكرية[10]، على وجه التحديد. ونعلم في هذا الخصوص، متى

(10) أدرك اليوم بصورة أفضل، أن هذا النقص في العتاد لم يكن بالقدر الذي قيل عنه. ربما صح الأمر على الجبهة، لكننا كنا نملك الدبابات المعروضة في المستودعات في مدننا، وطائرات لم تحلق قط، وأخرى كانت كقطع غيار أحيانًا. ما الذي حدث إذًا في فيلاكوبلاي (Villacoublay) حين كان الألمان يتقدمون باتجاه باريس؟ هل صحيح أنه تمّ تدمير عدد كبير من الطائرات بسبب نقص طيارين قادرين على التحليق بها، كما ذُكر لي؟ إن هذه الملاحظة الأخيرة تبدو لي قابلة للتصديق. فأنا أعرف طيارًا مدنيًّا جُنِّد بحسب الإجراءات المعمول بها، لكن لم يُسمح له خلال الحرب برمتها بقيادة طائرة عسكرية.

نكشف عن كل شيء عندما يحين الوقت. مع ذلك، لا تُعفي أخطاء بعضهم الآخرين من تحمُّل مسؤوليتهم عن أخطائهم، ومن ناحية أخرى، ليس للقيادة العليا الحق في ادعاء البراءة.

لننتقل إلى إدانة الجريمة الاستراتيجية، إن صحّ القول، التي ارتكزت عليها قوات الشمال لتبرير تخلّيها، إما مباشرة للعدو، وإمّا على شواطئ الفلاندر، عن المعدات الخاصة بثلاث فرق آلية، وثلاث فرق نصف ميكانيكية، وعدد من المدافع المقطورة، وجميع كتائب الدبابات لجيش بأكمله. لكم كانت هذه المعدات الدقيقة ضروريّة لساحات القتال في منطقتي السوم أو «أين» (Aisne)، وهي على الأرجح أفضل سلاح تملكه الأمة. لكنها لم تكن أكثر من مرحلة الإعداد للحرب. وإذا لم يكن لدينا ما يكفي من الدبابات أو الطائرات أو الجرارات، فلأننا، وقبل كل شيء، استنفدنا إمكاناتنا من الأموال والقوى العاملة التي كانت بلا شك محدودة في عمليات تقوية خطوطنا بالخرسانة، ومن دون أن نمتلك الحكمة لتقوية حدودنا الشمالية بالقدر الكافي، والتي كانت عرضة للتهديد كما هي حدودنا الشرقية. ذلك لأنهم علّمونا أن نثق ثقة عمياء بصلابة خط ماجينو (Maginot)، الذي بُني بإمكانات كبيرة ودعمَته حملة هائلة من الدعاية. إلا أن هذا الخط توقّف لمسافة قصيرة إلى اليسار، ليلتف في النهاية ويعود فينطلق عند نهر الراين (بشأن هذه المعلومات الغريبة عن مروره بالراين، فأنا أستقيها فقط مما روته الصحافة: وهذا يعني أن ما من معلومات مُثبتة). فقد تمّ ذلك في إثر قرار اتُّخذ في اللحظة الأخيرة يقضي بالتعجيل بضخ مزيد من الأسمنت لبناء الحواجز في الشمال، والتي تم اختراقها من الخلف بسبب اقتصار الدفاعات الفعالة على جهاتها الأمامية فقط. وقد تعيّن على قواتنا بذل جهود قصوى لحفر خندق هائل مضاد للدبابات، لحماية كامبريه وسان كنتان، وقد وصل إليه الألمان قادمين من هاتين البلدتين. وحدث ذلك لأن العقيدة المنتشرة عادة بين أصحاب النظريات، أكدت أننا وصلنا إلى واحدة من تلك اللحظات في التاريخ الاستراتيجي حين تصير المدرعة أقوى من المدفع: ونعني بذلك أنّه حين يكون الموقع المحصن منيعًا من الناحية العملية، وحين لا تمتلك القيادة في اللحظة الحاسمة الشجاعة الكافية للتمسك بموقفها النظري، تكون حصيلة هذا

الواقع، على الأقل، مغامرة فاشلة مثل تلك التي عرفناها في بلجيكا والتي كان محكومًا عليها بالفشل مسبقًا. إن كثيرًا من الأساتذة المختصين بالتكتيك حذّروا من الوحدات المؤلّلة[11]، التي اعتبروها ثقيلة جدًّا وبالتالي عاجزة عن التحرك بالسرعة اللازمة (بالفعل، كانت حركة هذه الوحدات، لأسباب تتعلق بالأمن، بطيئة جدًّا لأنها صُمِّمت للتحرك ليلًا، بينما دارت حرب السرعة، وبشكل مستمر تقريبًا، في وضح النهار). فدروس سلاح الفرسان في المدرسة الحربيّة كانت تقول إن الدبابات المصممة للدفاع لا تحتوي أيَّ إمكانات هجومية، لأن الفنيين وأشباههم اعتقدوا أن القصف المدفعي سيكون أكثر فعالية من القصف بالطائرات، من دون أن يفكروا في أن المدافع تلزمها ذخائر يُفترَض جلبها من أماكن بعيدة، بينما تعود الطائرات إلى مواقعها للتزود بالذخيرة. باختصار، فقد طاب لرؤسائنا القتال في خضم التناقضات، أي القتال في عام 1940 بطرائق التفكير نفسها التي حاربوا بها في حرب أعوام 1915-1918 [1914-1918]، في حين كان الألمان يقاتلون في عام 1940[12] بأساليب عام 1940 المتطوّرة.

*

يُروى أن هتلر كان يحيط نفسه، قبل وضْع خططه القتاليّة، بخبراءَ في علم النفس. لا أعرف ما إذا كان ذلك صحيحًا لكنه أمر غير مستغرب. يؤكد الهجوم الجوي الذي كان الألمان يجيدونه معرفتَهم الدقيقة جدًّا بالقدرات العصبية

(11) «بحكم طبيعتها نفسها، فإن المؤسسة العسكرية الشديدة التراتب، تقوم على الامتثال»، (Paul Reynaud, *Le Problème militaire français*, 1937).

(12) الآلة هي كل شيء جديد، ولهذا السبب لم يستسغها أساتذة الاستراتيجيا. بالنسبة إلينا على الأقل، كتب ج. دو بييرفو (J. de Pierrefeu) قبل فترة يقول (*Plutarque a menti*, p. 300): «كان روبير دو بوبلان (Robert de Beauplan)، أحد مندوبي صحيفة لو ماتان (*Le Matin*) في أثناء سباق Circuit de l'Est الشهير، وفيه حقّقت فرنسا المعجزة في مجال الطيران. فروى لي حوارًا لافتًا أجراه بعد تجربة النصر الذي شهده وهو يرافق الجنرال فوش قائد لواء الفيلق العاشر. وقد أمسك فوش بذراعه، بلا تكلُّف، حين كان الموكب يهم بالعودة إلى السيارات على هضبة مالزيفيل (Malzéville) وقال له: «كل هذا الذي تراه هنا لا يصلح سوى للرياضة، لكن بالنسبة إلى الجيش فإن فعالية الطائرة العسكرية هي لا شيء». ويمكن مقارنة هذه العبارة بالمقدمة الشهيرة للماريشال بيتان عن مخاطر المحركات. لكن، بين عامي 1914 و1918، حتى الاستراتيجيّون كان لديهم الوقت الكافي ليدركوا الحقيقة (تموز/ يوليو 1942).

للناس وكيفية زعزعتها؛ إذ كيف يمكنك أن تنسى يومًا صوت صفير الطائرات «الحاد» وهي تقترب من الأرض وتستعد لزرعها بالقنابل؟ هذا الصوت الحاد والطويل لا يثير الذعر لارتباطه بصور الموت والخراب فحسب، بل هو مخيف في حدّ ذاته، بسبب ميزاته الصوتية، إذا جاز ليَ القول، بحيث يتشنج كيان المرء برمته وينتهي به الأمر مذعورًا. علاوة على ذلك، يبدو أن حدّته تم تكثيفها عمدًا بالاستعانة بأجهزة ملائمة تحدِث اهتزازًا. وهذا يعني أن الألمان لم يستخدموا القصف بالطائرات كإجراءٍ للتدمير والقتل فحسب. فعلى الرغم من أن مواقع سقوط القذائف كانت متقاربة، إلا أنها لم تكن توقع إلّا عددًا قليلًا نسبيًّا من القتلى بين الجنود. بينما يمكن الصدمات العصبية الناتجة من الأصوات أن تنتشر بشكلٍ أسرع وأبعد، فتُنهك قدرة المقاومة عند القوات على مدى مساحات واسعة. كان هذا بلا شك أحد الأهداف الرئيسة التي اعتمدَتها قيادة العدو، حين كانت تسلّط علينا طائراتها سربًا تلو آخر. ولقد كانت النتائج مواتية لآمالها إلى حد بعيد.

ومرة أخرى، أجد نفسي محرجًا في مقاربة موضوع يتعلق بهذه الحرب الدائرة، وكم أتردّد في الخوض فيه ولو هامشيًّا. وحدهم المقاتلون الحقيقيون لهم أن يتحدّثوا عن المخاطر وعن الشجاعة وعن التردّد أمام الخطر. لكني سأروي، وبصراحة، تجربة وجيزة. إنّ معموديّة النار بالنسبة إليّ، في عام 1940 من الحرب، كانت في 22 أيار/مايو (أما في عام 1914 فكانت في معركة المارن)، على إحدى طرقات منطقة الفلاندر، وأنا لا آتي على ذكر القصف في دُويه أو في محيط لنس، لأنه كان بعيدًا نسبيًّا من موقعي. في صباح ذلك اليوم، قصفت الطائرات بالمدافع الرشاشة القافلةَ التي كنتُ فيها على متن سيارتي، ثم تولت طائرات أخرى قصفنا بالقنابل. لم يربكني الرشاش الذي قتل جنديًّا على مقربة مني. من المؤكد أن مقاربة الموت بهذا القدر ليست إحساسًا محبّبًا، لذلك انتابني شعور طبيعيّ بالرضى عندما توقّف القصف. لكنّ القلق الذي شعرتُ به، طوال الوقت، كان قلقًا منطقيًّا أكثر منه غريزيًّا. تلقيت القلق بأعصاب باردة، وهو لا يشبه بأيٍّ شكل الشعور الفعليّ بالخوف. لم يوقع القصف الجوي ضحايا، على حدٍّ علمي، في محيطي على

الأقل. ومع ذلك، أصابني الأمر بصدمة، وحين خرجتُ من الخندق حيث كنتُ متحصنًا خلال تلك العاصفة، أعترف بأن أوصالي كانت قد ارتعدت بشدة. في نهاية الحملة، تعرضتُ للقصف بالمدفعية، وكان كثيفًا، ولستُ أبالغ في ذلك كوني سبق واختبرتُ قصفًا أكثر كثافة. وقد تحمّلتُه من دون انزعاج ومن دون أن أفقد شيئًا من هدوئي، كما أعتقد. أما قنابل الطائرات، فلم يسبق قط أن جعلتني قادرًا على الحفاظ على مثل هذا الثبات في المزاج، إلا إذا بذلتُ لأجل ذلك جهدًا مضنيًا.

لا شك أن في حالتي هذه شيئًا من ردات الفعل المكتسبة. فمنذ معارك أرغون عام 1914، ترسّخ صوت موجات الرصاص المتتالية في الخلايا العصبية لدماغي، فكأنها مقطع موسيقيّ متكرر، جاهز للعزف بمجرد ملامسة ساعد تدوير الأسطوانة. إنّ أذنيّ لا تزالان سليمتيْن جدًّا، بحيث لا أزال أُحسن، بعد واحد وعشرين عامًا، تقديرَ المسار الذي ستتخذه القذيفة والنقطة المحتملة لسقوطها من خلال سماع الصوت. لكنني لم أتعرض للقصف من الجو إلا نادرًا، ووجدتُ نفسي، في مواجهة هذا الخطر الذي ذكرتُه، بلا خبرة تقريبًا أسوة بأيِّ مجند مبتدئ في قواتنا. مع ذلك، فإن الفرق في درجة الحرارة بين الأنواع الثلاثة من الأحاسيس التي وصفتُها للتو، كان سمة عامةً جدًّا لدينا جميعًا، بحيث لا بد من أنَّ لها أسبابًا أكثر عمقًا من كونها ذات طبيعة شخصية. كما أنّ غياب طائراتنا الدائم تقريبًا عن سماء العدو، وبالتالي المناعة المؤسفة التي حظيت بها قاذفات العدو في أجوائنا، كان له بالغ الأهمية في تثبيط عزيمة قواتنا، لكنه لم يكن كافيًا لتبرير كل شيء.

ربما كان القصف الجوي، في حد ذاته، أقل خطورة من التهديدات الأخرى المتعدّدة التي يتعرض لها الجندي، على الأقل في المساحات المكشوفة. أما في داخل المنازل، فإن انهيار الجدران واهتزاز المكان جراء ذلك يرتدّان في موجات تنتشر في مساحة ضيقة جدًّا ولهذا فهي تُسفر غالبًا عن مجازر حقيقية، بينما تُسفر نيران المدفعية في الأماكن المكشوفة، وإن لم تكن كثيفة جدًّا، عن عدد مماثل من الضحايا. بل إن مجرد رشقات نارية من رشاش، قد لا تُبقي

أحدًا بالمعنى الحرفي للكلمة. منذ الأيام الأولى للحملة تفاجأنا بالعدد الضئيل من الخسائر الناتجة من قصف طائرات العدو، في حين أوحت التقارير القادمة من الجبهة بضخامة هذا القصف. لكن هذا القصف القادم من السماء كان يتضمن قدرة على الإرهاب لا يتضمنها سلاح آخر.

تسقط القذائف من علوٍّ شاهق وتبدو أول وهلة كما لو أنها تتبع خطًّا مستقيمًا، وهذا توهُّم، لأن التأثير الناتج من الوزن والارتفاع يمنح القذيفة اندفاعة هائلة، تعجز الحواجز الأكثر صلابة عن ردّها. إن خلف هذا النوع من الهجوم الذي يتضاعف بمثل هذه القوة شيء من عمل وحشي. كما لو كانت كارثة طبيعية هائلة. يحني الجندي رأسه أمام العاصفة مدركًا أنه بلا دفاعات تحميه (في الواقع، يمكنه الاحتماء في خندق أو «الارتماء أرضًا» في الوقت المناسب، فيحتمي من الشظايا التي تكون في العادة أقل من عدد القذائف. هذا إذا ما استثنينا بطبيعة الحال الإصابات المباشرة من قنبلةٍ ما. لكن، سواء تعلق الأمر بسلاح الطيران أو سلاح المدفعية، فكما يقول الجنود القدامى، «هناك دائمًا متسع بالقرب منك»). إن الضجيج بغيض ووحشي ويوتر الأعصاب إلى أقصى درجة. ثمة الكثير من الصفير الذي يزداد بشكل متعمّد، كما وصفتُه قبل قليل، بحيث يهتز الجسم تحت وقع التفجير حتى النخاع. إن هذا الانفجار، الذي يُحرّك الهواء المحيط بعنف هائل، يُقحم العقل في شعور بالتمزق، يتطابق بامتياز مع المشهد المرعب للجثث الممزقة أشلاء، والمشوهة بفعل آثار الغازات الناتجة من الانفجار. لكن الإنسان الذي جُبل على خشية الموت، يصير أكثر خشية حين تكون النهاية مصحوبة بفكرة التمزيق التام لجسده. إن غريزة البقاء حين تتبلور لن يكون لها مظهر أكثر مخالفة للمنطق، لكنها أيضًا الصورة الأكثر تجذّرًا في الأذهان. ربما لو استمرت الحرب الفعلية مدةً أطول، لاكتسبت جيوشنا، في مواجهة الهلع المصاحب للقصف بالطائرات، شيئًا من هذا الاعتياد، الذي يُعدُّ أحد العناصر التي لا غنى عنها لأيّ مقاومة ضد الخطر. وقد تبيّن بعد التفكير، أن الآثار المادية، وإن كانت رهيبة، لم تكن كبيرة جدًّا. وفي حرب قوامُها السرعة، بدا أنّ توقعات حساب علماء النفس الألمان كانت مصيبة. أما في قيادة أركاننا فكان قادتنا سيسخرون منّا لو اقترحنا عليهم

الاستعانة ببعض العلماء لاستمزاج آرائهم، إذ لن يروا فيهم اختصاصيّين في الاستراتيجيا العسكريّة.

*

إلى أيّ مدى يجوز التحدث عن الفوضى التي كانت تسود قيادات الأركان؟ بغضّ النظر عن اختلاف العادات بطبيعة الحال تبعًا للمجموعات أو الرؤساء، فإن اعتماد مصطلح الفوضى في حد ذاته لا ينطوي على كثير من الدقة؛ إذ إنّ ثمة أكثر من نوع واحد من النظم، وبالتالي، أكثر من نوع واحد من الفوضى. جميع الموظفين العسكريين الذين عرفتُهم، كان لديهم ميل مزعج جدًّا إلى الدقة في بعض الأحيان عملًا بعقيدة التزام ما هو «مدوَّن»، ولذلك وجب ترتيب الكتابة بوضوح تام، والتزام صوغ الأسلوب وفق تقليد صارم بقوانينه، وترتيب الأرقام في الجداول في أعمدة، كما لو أنها تصطف في استعراض. كما تُصنَّف الملفات بعناية، وتُسجَّل الوثائق الواردة والصادرة بحسب الأصول. إن هذا، باختصار، هو ما يمكن أن يُسمّى الشكلَ البيروقراطي للنظام. لذلك من الطبيعيّ أن نراه يزدهر في أوساط رجال ينضبطون، في زمن السلم، وفق نمط حياة بيروقراطي بامتياز. لا أزدري هذا الشكل البيروقراطي بل بالعكس، فهو يدفع العقل إلى تحرّي الدقة كما يوفر الوقت. إنما المؤسف أن هذا الهاجس المعتبَر لتحرّي النظام في الوثائق المكتوبة لا يمتد دومًا إلى التطبيق الفعلي. فأنا لم أرَ قط مكانًا قذرًا ونتن الرائحة أكثر من مقر الأركان في قطاع محصّن، يعمل فيه جندي برتبة معاون. إن المعاون لم يكن يستحق البقاء على رتبته؛ ففي مرقده تراكم غبار هائل بلغ نصف كمية الغبار الذي غطى طاولاتنا وخزائننا حين كنا نعسكر في بوهين. أعرف طبعًا أن حجرات الانتظار في بعض الوزارات المدنية ليست أكثر جاذبية، لكن ذلك لا يشكّل عذرًا كافيًا. هل سأُتّهم بأنني سأتوقف عند محض ترهات؟ أعترف بأني أكره الإهمال فهو يسترعي انتباهي بسهولة. وهنا يبدو أنّ ثمة إصلاحًا ضروريًّا يمكن اقتراحه في مسألة «النهوض» الفرنسي.

إن هذه الدقة الإدارية في ما تنجزه هيئات الأركان المختلفة من مذكرات أو جداول جديرة فعلًا بالتقدير لكن لها عيوبها أيضًا؛ فهي تهدر القوى البشرية

التي يمكن الاستفادة منها بشكلٍ أفضل. تعرفتُ في جيش الاحتياط إلى زملاء من كبار موظفي الإدارة العامة ورؤساء شركات خاصة كبيرة، وجميعهم كانوا يفكّرون مثلي. لقد استهجنوا تكليفهم بالمهمات نفسها التي كانوا قد تركوها لأدنى موظفيهم رتبةً حين كانوا خارج الجيش، وهي مهمات الكتابة وترتيب الوثائق. لقد عُيّنتُ مسؤولًا عن إمدادات البنزين في الجيش، وظللت شهورًا عدة أعمل بنفسي كل مساء على إحصاء يوميّ لعملي. لم يكن الأمر يتطلب الكثير من الوقت، في أي حال، وأُقرّ بأنني بفضل ذلك حسّنتُ من قدراتي المحاسبتيّة المتواضعة جدًّا في البداية. وللحقيقة، فإن أيّ كاتب يستطيع إنجاز العمل بمجرد أن يلتزم مبادئ المحاسبة، وهو ما فعلته. كما لم يكن عملي استثنائيًّا بالمرة، ولا داعي للحديث عن مبدأ «السرّية»، إذ يعكف جنديّ بسيط على نسخ مسوّدتي لاحقًا. أضفْ إلى ذلك أن جولة صغيرة لبضع دقائق في مكتبنا حيث تصطف خرائط مستودعات ذخائر الجيش ومستودعات البنزين ومحطات الإمداد بالوقود، كانت كافية لتضع في يدَيّ أيٍّ جاسوس محتمل بين موظفينا معلومات أكثر قيمة بلا شكّ. الحقيقة هي أن هيئات أركاننا تشبه مؤسسات تجارية يتولّى إدارتها من فوق رؤساء المصالح، وهم هنا الضباط، وفي قاعدتها النسّاخون على الآلات الكاتبة. وفي المقابل كانت هذه الإدارة خالية تمامًا، عند المستويات الوسطى، من الموظفين المناسبين، على الرغم من سهولة توظيف معاونين ممتازين من هذا النوع من بين ضباط الصف الاحتياط! ما يحدث هو أن يُكلَّف رجال دأبوا على تحمُّل مسؤوليات ثقيلة ولديهم روح مبادرة وثّابة، بمهمات تلقائيّة خالصة. علاوة على ذلك، لو كانت قيادات الأركان مزودة بعسكريين من رتبة ضباط صف على نحو كافٍ لأمكن تخفيف عدد الضباط الكبار العاملين فيها، على الأقل حين لا تكون ثمّة معاركُ دائرة. فقد كان على هؤلاء أن يتحمّلوا مسؤولية مواقع أخرى بطبيعة الحال.

كيف يُمكن مع ذلك، تفسير الانطباع الذي تولّد لدى كثيرين منا، ولدى منفذي الأوامر في المقام الأول، أن ثمة حالة من الفوضى سادت في القيادة بمجرد انطلاق العمليات العسكريّة؟ ذلك لأنني أعتقد أن النظام المتحجِّر هو، من نواحٍ عدّة، نقيض النظام النشط والمبدع الذي تتطلبه الحركة. يقوم الأول

على الروتين والترويض، أما الآخر، فعلى الخيال الملموس والذكاء المرن، وربما قبل كل شيء، على قوة الشخصية. وهذان النظامان ليسا متضاربين بالتأكيد، لكن لا يجوز أن يسيطر الأول على الثاني، فأحيانًا، قد لا يسهّل عمله إذا لم نضبطه. في أثناء فترة الانتظار الطويل التي طال أمدها، استمرت العادات ذاتها التي سادت في زمن السلم، فكان الضرر كبيرًا لأن النظام الجيد الذي كنا نفخر به جدًّا، اقترن ببطء شديد. وحين تحتم علينا الإسراع أكثر، لم يكن بمقدور رؤسائنا، في كثير من الأحيان، التمييز بين السرعة والتسرّع.

علاوة على ذلك كله، لا يتطلب الترتيب والتوضيب اليومي لوثائق وأوراق حسنة المظهر جهدًا كبيرًا جدًّا. لكن ثمّة حاجة إلى مستوى مختلف تمامًا من ضبط النفس، لأجل تحمُّل عناء وضع خطط عملٍ قابلة للتطبيق في تواريخ غير مؤكدة، وقادرة على التكيف مع الاحتياجات الجديدة التي قد تفرضها مرحلة اضطراب محتملة، على أن يتمّ كل ذلك في وقت مسبق وبشكل كافٍ وبمرونة واجتهاد. إنّ ما لمسته في خلال مرحلة التعبئة، أول مرة في عام 1939، أصابني بالذّعر. لن أتطرق هنا إلى نظام مراكز التعبئة الذي اعتُمِد بعد الحرب السابقة ليحلَّ مكان نظام التحاق المتطوّعين مباشرةً بفرقهم الأصليّة. فأنا أعلم أنّ مؤسستهم واجهت أكثر من خصم، حتى في داخل القيادة العليا. وبدت لي أنها تسببت، بطبيعتها الخاصة، في الكثير من الصعوبات وحالات التأخير التي لا يمكن تلافيها. وبما أن مهمة توفير معظم الملابس والمعدات لم تزل على عاتق الفيالق، فقد تطلّب إيصالها إلى المراكز الاستعانة بمجموعة كاملة من وسائل النقل، غير ملائمة وبطيئة بحكم واقع الحال. علاوة على ذلك، بدا أنّ ليس من الحكمة إلباس الاحتياطيين، وهم في الأربعينيات من العمر، بزَّات صُمّمت للمجندين الشبان، كما تسريج الدواب المصادرة، باستخدام السروج التي خلّفتها خيول الفرسان، لأنّ ذلك يعني أن تتحمل المراكز «الرئيسة»، أو «الثانوية»، مشكلات غير قابلة للحل بكل معنى الكلمة. أضف إلى ذلك أنه لم يجرِ اختيار القادة بالطريقة المثلى، على الرغم من أن العمل كان يتطلب كثيرًا من الدقة. لقد عرفتُ من بين هؤلاء من تميّز بكفاءة عالية، أما بعضهم الآخر، ممن اختيروا بناءً على سيرتهم المهنية من النقباء أو رؤساء الكتائب، فكم كانوا

يشكون العيوبَ التي يتميّز بها المعاونون القدامى عادة. في اللحظة التي اعتُمِد فيها النظام هذا، كان من الأجدى أن يُعهد بمهمات سير العمل، وتحديدًا ذلك الذي يتطلّب دقة بالغة، إلى الضباط الذين يجري اختيارهم بعناية، والذين ستكون السنوات التي قضوها هنا بمنزلة معايير استثنائية للترقية. وعند هذا الحدّ، لم يستطع الجيش التخلّص من الفكرة القائلة إن الأهمية والأهلية التي تحظى بهما مهمّة ما لا تقاسان بالمظهر والبريق الخارجيين.

من ناحية أخرى، وسواء أكان جيدًا أم سيئًا، فإن نظام المراكز لا يبرر الأخطاء التي لم تكن متصلة بالمبدأ المتبع، علمًا أنني أتصوّر أنّ له، مع ذلك، مزاياه الخاصة. فكيف لضابط خدم في منطقة ما أو في مجموعة الأقسام الفرعية، أن يحفظ، وبسهولة، خريطة كبيرة من «الإجراءات» المحتملة، رقمًا بعد آخر، في ما يسمى فترةَ «التوتر» التي عادة ما تسبق التعبئة العامة؟ أن يتم إيقاظه في منتصف الليل، وهو غير واعٍ تمامًا، بواسطة برقية تقول، على سبيل المثال: «تنفيذ الإجراء 81». فيلجأ من فوره إلى «الجدول» الذي يجب أن يظل دائمًا في متناول يده، ليكتشف أن الإجراء 81 يتضمن جميع أحكام الإجراء 49، باستثناء القرارات التي سبق أن دخلت حيز التنفيذ بفعل تطبيق الإجراء 93، حين يحدث أن يسبق هذا الإجراء الأخير في الزمان، المكانَ الذي يحمل رقمه، وذلك مع إضافة أول مادتين من الإجراء 57. إنني أستحضر هذه الأرقام بشكل عشوائي تقريبًا. فذاكرتي لا تُتيح لي تذكُّرها بدقة تامة، وربما رأى رفاقي أني أُبسّط الأمر على نحوٍ بالغ، لكن ليس من المُستغرب أن تُرتكَب الأخطاء في مثل هذه الظروف. لقد أقدَم الجندرمة في الألزاس واللورين، في أيلول/ سبتمبر 1939، على قتل جميع الحمام الزاجل في ثلاثة مراكز كاملة، بسبب قراءة سريعة غير متفحصة لدليلنا المشترك الغبي. ومن المؤكد أن الضباط الذين كانوا يقبعون في مكتب ضعيف التهوئة في شارع سان دومينيك[13]، أضافوا أرقامًا إلى أرقام ليصنعوا هذا اللغز العصيّ على الحل، مستخدمين خيالهم على طريقتهم الخاصة، وليس بالطريقة التي تقضي بإعطاء الأوامر للتنفيذ.

---

(13) أي مقر وزارة الحرب. (المراجع)

ثمة ما هو أكثر خطورة من ذلك في مراكزنا الشهيرة. فأحدها كان يقع في مدينة ستراسبورغ، وفي حيّ قريب من نهر الراين، أي في مرمى نيران مدفعية العدو الخفيفة، بل في مرمى رشاشاته. مركز آخر، كان موقعه في حصن قريب من النهر أيضًا، بحيث لا يمكن بلوغه إلا عبر جسر واحد بُني فوق الخنادق. وهكذا فإن قنبلة أو قذيفة مصوّبة جيدًا كانت ستجعل من المكان مصيدة فئران حقيقية. سيُقال إن شيئًا من هذا القبيل لم يحدث. حسنًا، ولكن من الذي استطاع توقُّع أنّ الألمان لن يهاجموا ستراسبورغ؟ الحقيقة أن هذا التدبير لم يشكُ سلبياتٍ تُذكر طالما ظلت مقدمة جسر كيل (Kiel) منزوعة السلاح. وفي ما بعد، نسيت القيادة العليا تعديل هذا التدبير، أو أنها لم تعدّله بالقدر الكافي.

أما أخيرًا، فكيف نسكت عن الفوضى البغيضة في التعبئة الوحيدة التي كُلّفت بمتابعتها عن كثب، تلك الخاصة بالعناصر الإقليمية التي كانت تتبع مجموعة الأقسام الفرعية مباشرة؟ عندما تولّى قائدنا منصبه ذُهلنا حين اكتشفنا أنه لم تكن لدينا قائمة بالوحدات التي تعمل تحت أوامره. وكان من الضروري الارتجال في وضع القائمة بطريقة أو بأخرى وبأقل أخطاء ممكنة، من خلال البحث في أرشيف متشابك للغاية. ويا لها من فوضى تلك التي سادت هذه الوحدات! وكيف تداخلت جميعها في ما بينها في الميدان! ففي منطقتنا هنا كان لدينا قسمان. وكان قائد السّرية رائدًا ينتمي، وللأسف، إلى مجموعة أخرى، وهناك أكثر من سرية، لكن بلا عقيد على رأسها. كان حرّاس السكّة جنودًا كبار السّن، لكن شجاعتهم تضاهي دقة عملهم في الحراسة. عدد قليل منهم كان يرتدي أحذية ملائمة، ولحسن الحظ لم يمت أحد منهم من الجوع. وثمة قسم لن أعرف أبدًا ما حلّ به، وقد سعيتُ باحثًا عنه طوال يوم بأكمله على طول خط سان دييه (Saint-Dié)، لكن عبثًا. ليس من الإنصاف ربما الحكم على المجموع بناءً على حالات خاصة، وهناك ما يدعوني إلى الاعتقاد أنه لم يتمّ التحضير جيدًا للتعبئة في موقعنا. لقد أُسندت، من حيث المبدأ، إلى ضابط رفيع المستوى، وقد عمد، رغم مستوى تكوينه كضابط في الأركان، إلى اعتماد سلوكيات مستهترة إلى حدّ ما، متخلّيًا عن المهمة لمرؤوسيه على نطاق واسع. أثار هذا المثال بعض القلق على الرغم من كل شيء. وفي عام 1940 أمكننا أن

نلاحظ أن كل الأخطاء، باستثناء بعضها، أمكن تداركها. فمثلًا لم تُنقل المراكز ولم تُؤمَّن على وجه الخصوص، واستمر حرّاس السكّة مدةً طويلة يمشون على الحصى بصنادل أو أحذية صغيرة، ما لم يتدبروا بأنفسهم أحذية أمتن.

في الجيش الأول، وحتى قبل بداية شهر أيار/ مايو، لم يكن على المرء أن يكون دقيق الملاحظة ليلحظ الشقوق التافهة التي تتحول خلال العاصفة إلى صدوع حقيقية، ويتوجس منها. هذا هو الوصف الذي ينطبق على سوء التنظيم الذي يسود أساليب الاتصال.

وفي هذه النقطة، لم أُكِنّ شخصيًّا ما أشكوه. فخلال الحملة بأكملها تمكنتُ من التواصل بسهولة مع مختلف مفارز مستودعات البنزين. وبلا صعوبات تذكر، تواصلت مع الوحدات التي كان يتعيّن إمدادها بالوقود. ساعدنا كثيرًا تفاني لاشان. ولقد حرصتُ بطبيعة الحال، وكلما بدا ذلك ممكنًا، على عدم تجاوز صلاحياته كقائد. فقد كان يمارسها بقدر كبير من السلطة والكفاءة بحيث لم نكن لنجرؤ على عدم احترامها. ولكننا كنا متفقيْن بأنني الأقرب إلى مصادر المعلومات، وأقل تنقلًا منه، لذلك بإمكاني، في حالة الضرورة الملحة، أن أمرّر تعليمات الجيش مباشرة إلى مرؤوسيه. وقد تمكنّا معًا، بفضل تجاوز هذا الترتيب القيادي في بعض الأحيان، من كسب الكثير من الوقت[14]. كانت تجربة الحرب السابقة مصدر إلهام لكليْنا، حتى إنه تملّكنا رعب حقيقي من الخطر المحدق، الناتج بالضرورة من اتصالات سيئة الإعداد. ورغم تحرُّكنا الدائم ما بين الجيش والمستودع ذهابًا وإيابًا، كنا قادريْن على التواصل معًا في أيّ لحظة، وبصرف النظر عن أيّ قاعدة، نجحنا في تركيب نظام إرسال كامل خاص بنا داخل مصلحتنا.

(14) في الحقيقة، كنا بذلك نتجاوز أكثر من رتبة. في العادة، لم يكن مستودع البنزين يتبع قائد الجيش إلا عبر هيئة وسيطة يشكلها قائد مدفعية الجيش، الممثّل على هذا المستوى بقائد السرب بصفته مديرَ مصلحة الذخيرة والبنزين. تطلّب التسلسل الهرمي أن يمر كل أمر صادر من الجيش إلى المستودع، وقبل الوصول إلى هدفه، عبر هاتين الهيئتين المتتاليتين في التراتبيّة. وهذه هي الطريق التي كانت تسلكها الأوراق الرسمية في بوهين. لهذا كان البطء الناتج من هذه الالتفافة مصدر قلق لنا، أنا ولاشان، حين كنا نذكر متطلبات الخوض في المعركة. لحسن الحظ، تمكنا من تجاوز تراتبية هذا الخط عندما حان الوقت وبلا إشكالات تذكر.

وُضع دائمًا في تصرّفي في مكتبي درّاجَين ينتمي كلاهما إلى فرقة شاحنات، وانبغى على كلٍّ منهما أن يعرف مسبقًا موقع الفرقة التي ينتمي إليها وموقع قيادة المستودع على الأقل. إلى جانب ذلك، كان لاشان ينتدب أحد ضباطه ليلازمني ملازمة دائمة. وكان أربعة ضباط آخرين في المستودع يؤمِّنون الاتصال بفيالق الجيش، وكلٌّ واحد منهم ينتقل كل يوم، وأحيانًا مرات عدة في اليوم الواحد، إلى نقطة قيادة الجيش، ثم إلى فيلقه الخاص تباعًا. هؤلاء الأشخاص، وكثير منهم ما عادوا شبابًا، تحمّلوا مشقة التنقل عبر طرق غير آمنة في كثير من الأحيان. ظل أحدهم، كما أعرف، يبحث عن فيلقه لأكثر من أربع وعشرين ساعة في أثناء انسحابنا الأول بعد الهجوم على بلجيكا. كانوا ينجحون دومًا في الوصول إلى وجهاتهم، وكانوا دومًا مفيدين جدًّا لنا. خلال الفترة الممتدة من 11 إلى 31 أيار/ مايو، لم أضطر لو مرّة إلى الاستعانة بمكتب «البريد» لإرسال أمر أو لتلقّي طلب الإمدادات، وهو مكتب مسؤول أساسًا عن الاتصالات بين هيئة الأركان العامة والوحدات التابعة لها. كما لم أشكّ يومًا في أن الأوامر أو المطالب كانت تصل إلى وجهتها، لأني لاحظتُ أن القوات العاملة في المعركة لم يعوزها الوقود حتى وهي على مقربة بضع مئات من الأمتار من خط النار في بعض الأحيان. كانت تحملُه إليها وبشجاعة سيارات ميكي (Mickeys) (هكذا سمينا في الجيش السيارات التابعة للمستودع، في إشارة إلى رشاقتها). علاوة على ذلك، لم نتخلَّ يومًا للعدو عن مستودعات قد يستخدمها للحصول على إمدادات الوقود. فحين كنا نتراجع من مدينة مونس إلى مدينة ليل، أشعلنا حرائق أكثر من تلك التي أشعلها أتيلا[15] حين أفرغ لاشان وضباطُه الخزاناتِ بإضرام النار فيها، صفيحة تلو أخرى حتى آخر قطرة، وإن كنتُ أتحفظ بشأن مصير الخزانات الموجودة في بلدة سان كنتان، لأن الاتصال انقطع معها بشكل كامل وبسرعة كبيرة. لقد ترك لنا قادتنا حرية التصرف منذ البداية، حين أدركوا، عمليًّا، أن كل أمر كان يسير على ما يرام. وهنا لا يسعني إلا الاعتراف لهم بالكثير من الامتنان.

---

(15) أتيلا الهوني (Attila)، ملك الهون، امتدت غزواته من روسيا إلى أوروبا ووصلت إلى حدود باريس في القرن الخامس الميلادي. أتيلا هو رمز في الثقافة الشعبية بسبب حروبه في أوروبا والبلقان وروسيا، وسطوته وقوته وميله إلى الغزو. (المترجمة)

لكن من ناحية أخرى، كنت أخشى ألّا تتحقّق مثل هذه الاستقلالية أو هذا التفاهم، لأن الاتصالات لا تعمل بطريقة مرضية دائمًا بين مختلف مستويات القيادة، أو على المستوى نفسه بين الوحدات من الرتبة نفسها. في كثير من الأحيان، سمعتُ أن ضباط القوات البرية يشْكون بقاءهم طويلًا من دون أوامر. وبالتأكيد، قدّمتُ أمثلة على قادة أركان لم يكونوا يملكون معلومات كافية عن مجريات الأمور على الجبهة، أو لم تكن تصلهم الأخبار إلا بعد فوات الأوان. فعلى الطرق المزدحمة، باللاجئين خاصة، كحال طرقنا في وقت مبكّر من الحرب، تظل الدراجة الناريّة وسيلة النقل الوحيدة القادرة على التسلل في كل مكان، وللأسف لم يكن ساعي البريد في الجيش، إن لم أكن مخطئًا، يملك واحدة منها؛ بل إنّ عدد سياراتنا لم يكن كافيًا وقد وزِّعت بشكل سيّئ. ومنذ فصل الشتاء، كان كثيرون منا يشعرون بالقلق بسبب هذه الحالة العائدة قبل كل شيء إلى مشكلة في التنظيم والإشراف. ولأن أحدًا لم يحاول حلّ المشكلة، فقد كان لذلك آثاره الواضحة جدًّا في خلال الحملة العسكرية.

مع بدء العمليات، نُقل مركز قيادة الجيش، كما نعلم، من بوهين إلى فالنسيان، وكان الهدف طبعًا تقليص المسافة مع بلجيكا حيث توغلت قواتنا. حين وصلتُ إلى فالنسيان في الساعات الأولى من بعد ظهر يوم 11 أيار/ مايو، استعددت فورًا للذهاب إلى بلدة مونس لتسوية موضوع مصادرة مستودعات الوقود مع المسؤول العسكري البلجيكي المكلّف هناك. يعرف الجميع أن هذه المهمة كانت ملحّة، لكني اكتشفتُ أن جميع سياراتنا كانت تُستخدم لنقلنا من الموقع القديم حيث كنا نتمركز إلى مركز القيادة الجديد. وهكذا استحال عليّ تمامًا التحرك في أيّ اتجاه. ما جدوى تنقُّلي إلى بوهين إذًا، إذا كانت الطرق الأمامية ستُغلق في وجهي على هذا النحو؟ لحسن الحظ، تلقيتُ خلال نهار ذلك اليوم زيارة من كاتب العدل في مدينة ليل، وكان يشغل منصب نائب قائد مجموعة النقل. لقد زارني يطلب الوقود فأجبته بصفاقة: «خدمة في مقابل خدمة. لا وقود إن لم توفر لي سيارة». وهكذا تمّ الاتفاق بيننا فتمكنتُ أخيرًا من الذهاب إلى مونس. واستفدت من هذه التجربة درسًا مفيدًا إذ تعلمتُ كيف أقيم علاقات خاصّة على نحو ما وصفتُه لتوّي.

لنتساءلْ أيضًا بأيّ معجزة كانت الأوامر تصل في الوقت المناسب، في حين كان الجيش في الكثير من الأحيان عاجزًا عن التواصل مع مختلف فيالقه؟ في أحد الأيّام، عندما بدأ سلاح الفرسان بالتحرك، سارع ضابط الاتصال في مستودع الوقود، كالمعتاد، إلى الذهاب للاتفاق مع هؤلاء الزبائن المهمّين. عند عودته إلى موقعنا، اصطحبتُه إلى المكتب الثالث، فقد بدا لي من الحكمة التأكد من معرفة كبار رجال التكتيك عندنا بالموقع الجديد لمركز القيادة. ولاحظنا بعد التحقق من ذلك، أن هناك فرقًا يُقدر بقرابة ثلاثين كيلومترًا بين الموقع الفعلي، والنقطة المرسومة بقلم الفحم على الخريطة. ولا يزال بإمكاني سماع كلمة «شكرًا لك» التي قيلت لنا على مضض، كمكافأة على مداخلاتنا. سادت الشكوك نفسها على مستوى الاتصالات الجانبية. ففي وقت لاحق كان عليّ أن أرسل لاشان إلى قيادة الأركان البريطانية. كانت المسألة ذات أهمية بالغة إذ تعلّق الأمر بتدمير المستودعات في مدينة ليل. لكن أين يقع المقر العام للورد غورت؟ ومرة أخرى، طرقتُ باب المكتب الثالث الرهيب لأسأل عن الأمر، فأجابني بـ...، من دون أن يرف له جفن، بأنهم لا يعرفون مكانه. ولحسن الحظ تمكّنت من العثور على العنوان المطلوب وسط بيانات كثيرة مُشابهة، مدونة على قطعة من الورق كانت في الأنحاء. وهكذا كان رفاقنا أقل اطلاعًا ممّا كانوا يدّعون. لم يكن للضابط المسؤول عن العمليات أيُّ وسيلة اتصال بقيادة القوات الحليفة التي جاءت من فورها للقتال على ميسرتنا، بسبب افتقاد دليل طوبوغرافي بسيط، ولم يخشَ هذا الضابط بعد ذلك أن يُقرّ، وبدم بارد، بهذا الجهل حتى لو كان غير متعمّد. إن هذا الجهل هو إحدى سمات الظروف التي تعيّن علينا العمل في أجوائها.

*

وبالحديث عن «الإنكليز» نتساءل: هل تمكّنا في أيِّ وقت من تنظيم تعاوننا معهم؟ لم يبرز القصور القاتل في اتصالاتنا معهم في أيّ مكان آخر، وبالمعنى الكامل للكلمة، بِمثل هذه الصورة الفظيعة.

لكن مشكلة هذا التحالف الفاشل أكثرُ تعقيدًا. فقد كانت موضوع جدالٍ حادٍّ وشنيع جدًّا جعل تناولها بعيدًا من التحيّزات أمرًا بالغ الصعوبة. وكان لا بد

من التحلّي بالشجاعة لحلّها وجهًا لوجه، على الأقل كما تعلمتُه من تجربتي الخاصة.

لي أصدقاء مقرّبون في بريطانيا، سهّلوا لي الوصول إلى حضارتهم المضيافة التي احتفظتُ تجاهها، منذ مدةٍ طويلة، بميل متّقد. وهم الآن أكثر من أيّ وقت مضى، أكثر قربًا إلى قلبي، حين أراهم يحاربون إلى جانب مواطنيهم، ويدافعون بأرواحهم عن القضية التي كنتُ سأقبل طوعًا أن أموت من أجلها. ولا أعرف إن كانوا سيقرَأون السطور التالية يومًا ما، وربما صُدموا إذا قرأوها، لكنهم قوم يقدِّرون الصراحة، لذلك آمل أن يغفروا لي صراحتي.

إن كراهية الإنكليز داخل الكثير من الدوائر الفرنسية هي الآن موضوع خاضع لاستغلال بائس. إنها ظاهرة قائمة ولا يمكن إنكارها، كما أن لها جذورًا مختلفة، يعود بعضها إلى موروثات تاريخية أكثر حدّة مما قد نتصور في بعض الأحيان. فظلُّ العذراء[16]، وأشباح مريرة لشخصيات مثل «بيت» (William Pitt)[17] واللورد بالمرستون (Viscount Palmerston)[18]، كانت ترسم خلفية الصورة عند رأي عام ذاكرتُه لا يطاولها النسيان. ربما يكون من المستحسن لشعب قديم الجذور أن يتحلّى بملكة النسيان بسهولة. فصور الماضي قد تحجب الحاضر أحيانًا، في حين أنّ ما يحتاج إليه الإنسان، قبل كل شيء، هو التكيّف مع الجديد. كما أن ثمة مصادر أخرى لهذه الكراهية، لكنها مصطنعة إلى حدّ بعيد، وغير منصفة تمامًا. ففي أثناء الحملة الإيطالية ضد إثيوبيا، اطلع قُرّاء صحيفة أسبوعية واسعة الانتشار في صفوف الجيش على مقالة كُتب فيها أن الواجب يدعونا إلى «تدمير» إنكلترا. وُقّعت المقالة باسمٍ قيل إنه لفرنسي، فمن يكون صاحب فكرة كهذه؟ كنّا نعرف جميعًا أنه ليس فرنسيًّا. وثمّة ما هو أكثر

(16) يقصد بها الفتاة الفرنسية الشهيرة جان دارك (Jeanne d'Arc) التي يعدّها الفرنسيون بطلة قومية ولقبوها بعذراء أورليان، وقد قاومت الإنكليز في نهاية حرب المئة عام. (المترجمة)

(17) وليام بيت الأصغر، شغل منصب رئيس وزراء بريطانيا وعرف بتصدّيه لفرنسا أيام نابليون. (المترجمة)

(18) فيسكونت بالمرستون الثالث أو هنري جون تمبل (Henry John Temple)، سياسي بريطاني شغل منصب رئيس الوزراء بين عامي 1855-1859. (المترجمة)

من ذلك حتمًا. فلا بدّ من اعتبار أنّ دولتين مختلفتين جدًّا، قد تواجهان، على الرغم من المثل العليا المشتركة التي تجمَعهما، صعوبة في أن تعرف إحداهما الأخرى، وأن تفهم إحداهما الأخرى، وبالتالي أن تحب إحداهما الأخرى. هذا صحيح جدًّا، ويسود على ضفتي بحر المانش بالقدر نفسه، ولا أعتقد أن التحيّزات الكلاسيكية تجاه «سكان بلاد الغال» [أي فرنسا] فقدت كل حدّتها القديمة عند الإنكليزي الذي ينتمي إلى الطبقة الوسطى، وإلى البرجوازية الصغيرة على الخصوص. وبلا شكّ لم تساعد الحوادث التي وقعت في فترة أخوّة السلاح القصيرة التي حظينا بها مؤخرًا على تبديد سوء الفهم.

خلال الشهور الطويلة من الترقب كانت القوات البريطانية تُرابط معنا على أرض منطقة الفلاندر، وهكذا استقرّ الإنكليز في قُرانا ونظّموا السير على طرقنا. لم يشكل جيشهم الوطني المكوّن من المجندين أهمية بالغة. كان العسكر، على الأقل، يتألف بكامله من محترفين. وكان هذا الجيش يمتلك كل مزايا الجيوش المحترفة كما بعض عيوبها. فالجندي البريطاني، على طريقة الشاعر كيبلنغ[19]، هو جنديّ يُحسن الطاعة، ويُحسن القتال. وقد أثبت ذلك، مرة تلو أخرى، ببذل دمه في ساحات القتال في بلجيكا. لكن كان مبتلى برذيلتي النهب والمجون اللتين لا يغفرهما الفلاح الفرنسي بسهولة إذا ما طاولتا فناء دواجنه أو عائلته. إلى جانب ذلك، نادرًا ما يُظهر الإنكليزي خارج بريطانيا لباقته الفعلية، على الأقل، إذا كان لا ينتمي إلى أوساط راقية. فهو في بريطانيا شخص يمتاز بلطف مثالي بالغ، لكنه يميل، بمجرد أن يعبر المضيق إلى خارج بريطانيا، إلى الخلط بين المضيف الأوروبي و«ابن البلد»، أي السكان الأصليين في المستعمرات حيث الإنسان هناك هو، بحكم التعريف، من رتبة أدنى. وكلّ ما يُبديه الإنكليزي من خجل طبيعي خارج بريطانيا ليس إلا تأكيدًا صارمًا لذلك. ربما بدت هذه الأشياء البسيطة جدًّا بالتأكيد بلا أهمية إذا ما قورنت بالمشاعر العميقة والمصالح الوطنية الكبيرة التي تجمع البلدين. مع ذلك، هل يمكن

---

(19) روديارد كيبلنغ (Rudyard Kipling)، روائي بريطانيّ حصل على جائزة نوبل للآداب في عام 1907. اشتهر برواياته القصيرة التي ألّفها في أثناء الحرب العالمية الأولى كجزء من الدعاية البريطانية للحرب، حيث صوَّر الجنود الإنكليز أبطالًا شجعانًا لا يهابون الموت. توفي في عام 1936. (المترجمة)

إنكار ما لها من تأثير في تشكيل وجدان القرويين عندنا وهم يشْكُون في ما يشكون توجُّسًا تلقائيًا وانغلاقًا نسبيًا حيال الأجنبي؟

بعد أسابيع من العمل الشاق حلّ يوم الإبحار. أعرب البريطانيون بوضوح عن إرادتهم ركوبَ السفن قبلنا، ولم يسمحوا لأحد منّا، باستثناء أعداد قليلة جدًّا، بأن تطأ أقدامهم السفن قبل أن تكون قواتهم كاملة قد غادرت الساحل. إنما هذا لن يدفعني إلى أن أكون من الذين تشدّدوا في شجب هذا التصرف، وذلك لأنه باستثناء قواتنا التي كانت تُدافع عن الواجهة البحرية، كان جيشهم هو الأقرب إلى الساحل. وكانوا من ناحية أخرى يرفضون الزج بهم، أرواحًا وممتلكات، في كارثة لا يعتبرون أنفسهم مسؤولين عنها بطبيعة الحال. وعندما انتهى البحارة البريطانيون من تأمين سلامة مواطنيهم، التفتوا إلى تأمين إبحارنا على سفنهم. ظلت تضحيتهم في مواجهة الخطر المحدق، واهتمامهم البالغ تجاهنا، أيضًا، في الدرجة نفسها التي أولوها لركابهم الذين سبقونا.

وأيًّا يكن الأمر، دعونا نحاول مرة أخرى أن نفهم ردات الفعل الحتمية الناتجة من المشاعر المختلفة. لقد فقدَ جنودُنا قادتَهم وقدرتهم على القتال، وعلى شاطئ الفلاندر الطويل، أو بين الكثبان الرملية، كانوا ينتظرون لحظة الهروب من سجون الرايخ الثالث. يشعرون باقتراب العدو يومًا بعد يوم، ويتعرضون لقصف يزداد عنفًا كل يوم. كل هذا مع معرفتهم الجيدة بأنهم لن يتمكنوا من المغادرة جميعًا، وهذا ما حدث بالفعل، إذ لم يغادر معظمهم، فأيُّ قلوب خيّرة فوق ما يملكه البشر، كانت لأولئك الذين كانوا يراقبون السفن وهي تغادر واحدة تلو الأخرى نحو الحرية، حاملة رفاقًا لهم من دولة أخرى، ولا تشعر بالمرارة؟ لقد كانوا أبطالًا نعم، ولطالما قيل ذلك عنهم، لكنهم ليسوا قديسين. أضف إلى ذلك أنه كان من الصعب توقُّع الأثر الذي تُخلّفه الأحداث الفردية في بعض الأمكنة في ظروف دقيقة كهذه، لكن تبيّن أن دور تلك الأحداث كان أساسيًا في إثارة حساسيات لم تندمل. وهذا بالضبط ما تُحيل إليه قصة ضابط الاتصال الفرنسي في أحد الأفواج البريطانية، وأشهد أنها معبّرة تمامًا عن الحال حينها، حيث تخلّى عنه زملاؤه البريطانيون بعد شهور عدة

من العمل معًا في المعسكر وفي ساحات القتال، وتركوه على رمال الشاطئ حين أُغلقت جميع المنافذ بينه وبين السفينة التي كان أصدقاء الأمس يعبُرون إليها للرحيل. إنّ الاهتمام المؤثّر الذي أُحيط به كثير من رجالنا حين وصلنا التراب البريطاني أعاننا على تضميد هذه الجراح، ومع ذلك، كان هذا البلسم غير كافٍ في بعض الأحيان. استقبلنا السكان البريطانيون بحفاوة بالغة، بينما أبدت السلطات البريطانية، في المقابل، تجهّمًا يثير الشكوك. فكانت جوانب المخيم أقرب إلى مظهر المعتقل. إن القوات المنهكة هي دائمًا قوات يصعب التعامل معها، ومن المستغرب أن تفقد إدارة مكلّفة بمهمّة حساسة مثل هذه، ومعنيّة قبل كل شيء بتأمين النظام، لباقةَ التصرّف على هذا النحو. فمن الطبيعي إذًا أن تُخلّف هذه الأخطاء، حيثما ارتُكبت، آثارها في الذاكرة.

لقد قيل الكثير عن أن البريطانيين لم يساعدونا بما فيه الكفاية. ولأننا قلنا ذلك لنُبرّر إخفاقاتنا الشخصية، فقد ذهبنا إلى حدّ استخدام أرقام غير صحيحة. لكني كنتُ قريبًا بما فيه الكفاية لأؤكد أنهم أوفدوا إلى الفلاندر أكثر من ثلاث فرق عسكرية. بيد أن مكونات هذه الدعاية الماكرة لم تكن كلها مفبركة.

في نظر أولئك الذين يعرفون قليلًا عن التقاليد السياسية والاجتماعية خارج بلدنا، فإن قرار التجنيد الإلزامي في بريطانيا ينمّ دائمًا عن شجاعة كبيرة لدى حكومة جلالة الملك. ومن الصعب إنكار أنّ هذه الشجاعة جاءت متأخرة بعض الشيء في أوساط لندن السياسيّة، ولا غرابة في أن يتساءل أحيانًا الفرنسي البالغ ما بين الثلاثين والأربعين عامًا من العمر لماذا يبقى إنكليزي من عمره في منزله بينما يكون الفرنسي على خط النار. وتداركت بريطانيا للغاية، منذ ذلك الحين، تأخُّرها في بذل التضحية المطلوبة، إذ من كان ليتوقّع ذلك المستقبل؟

ومن المؤكد أيضًا أنه في وقت حاول فيه الجيش الأول فتح ثغرة من الشمال إلى الجنوب نحو مدينة أراس، بموازاة الحركة التي بادرت بها القوات الفرنسية في منطقة السوم في الاتجاه المعاكس، سحبت القيادة البريطانية في اللحظة الأخيرة تقريبًا المساعدةَ التي كانت قد وعدت بها في السابق. وترك هذا التصرف، بطبيعة الحال، ضغائن لمدة طويلة. وقد استغل بعضهم هذا الوضع؛

إذ استسلمت بلجيكا في وقت لاحق، وصاح واحد من المشكّكين في مكتبنا الثالث ذاته حين وصله النبأ قائلًا: «هذه هي فرصة الجنرال بلانشار العظيمة». والحق يقال إن حصارنا كان قد بدأ قبل وقت طويل من تخلّي ليوبولد الثالث[20] (Léopold III) عنّا، بل كنا نِصْفَ محاصرين بالفعل حين تراجع البريطانيون عن مساندتنا. فهل كانت أخطاؤنا ستارًا أخفى أخطاء غيرنا؟

في النهاية، تطلّب الأمر التخلّي عن بذل أيٍّ جهد جدّي لكسر «الجيب الألماني» في الجهة الشمالية. ساهم الرفض الإنكليزي بالتأكيد في إفشال المبادرة بصورة مسبقة، وأخشى أنّ موقف البريطانيين لم يكن لائقًا من حيث الشكل. ففي أسوأ الأحوال، إذا كان واضحًا أن من المستحيل متابعة الالتزامات المتعهَّد بها من حينه فصاعدًا، بسبب التغيّر الذي حصل في الوضعية الاستراتيجية، كان على قيادة جيش التدخل البريطاني (Corps Expéditionnaire) إبلاغ القيادة الفرنسية بدلًا من تركها تتخبط في الوهم أو الشك لمدة طويلة (في هذا الموضوع بالطبع، لم أسمع غير روايتنا نحن). أمّا على مستوى أكثر عمقًا، ربما كان للقرار مبرراتُه[21]. في أيٍّ حال، فإن على المؤرخ أن يفهم الموضوع قبل السعي للحكم عليه. وهنا علينا النظر إلى الجانب الآخر من الصورة.

تحرَّك هجومنا الخاص في اتجاه الجنوب ببطء؛ إذ استغرق الاستطلاع، وإنشاء وإعداد المدفعية، وجميع تلك العمليات الأولية التي تعتبرها العقيدة العسكرية ضرورية جدًّا، وقتًا طويلًا، وقد تسببت في أول مرة بتأخير انطلاق الهجوم. كان من المتوقع أن نخوض معركة كاملة على نطاق أضيق من مالميزون (Malmaison). ولا أعرف ما إذا كان بالإمكان القيام بذلك بشكل أسرع، وربما لم يسمح وضع الجيش، المنتشِر حتى نهر إسكو، بذلك بالفعل. لكني كنتُ أدرك جيدًا أن الاستمرار بهذه السرعة، يعني أننا كنا نخاطر بأن يتقدم

(20) ملك بلجيكا (1934-1951)، اتهم بالتعاون مع النازيين. (المراجع)

(21) أنا مقتنع أكثر فأكثر بأنه كان القرار الصائب الوحيد. فأي مآل كانت ستؤول إليه هذه الحرب لو أن الجيش البريطاني شارك بقوته الكاملة في القتال في أيار/مايو - حزيران/يونيو 1940؟ كان قرارًا حكيمًا من الصعب أن يفهمه المقاتل الفرنسي (تموز/يوليو 1942).

العدو باتجاهنا. ألم يكن منحه كل ما يلزمه من الوقت ليعزّز قواته في المسافة الفاصلة بين جيشنا وجيش الجنوب، كمن يعطيه متسعًا من الوقت لتعزيز طليعة جيشه، وفي الوقت نفسه، للضغط على جبهاتنا الأخرى؟ وعلى الأرجح كان حلفاؤنا الذين تعرّضوا في أثنائها لهجوم عنيف قد استشعروا الخطر. ولذلك فضّلوا عدم الاستمرار في التزاماتهم حتى لا ينجرّوا إلى هزيمة كانوا يتوقعونها.

بلا تردد، ومنذ تلك اللحظة، بدأوا بالحكم على معالجتنا للأوضاع من دون تساهل. صار هذا التراجع في الثقة، على ما أعتقد، أكبر محرك نفسيّ ميّز سلوكهم خلال الأسبوعين الأخيرين من حملة الفلاندر. ففي غضون أيام قليلة أمكننا أن نلاحظ انخفاض ميزان التحالف عشرات من الدرجات. لقد قبِل البريطانيون منذ بداية الحرب، كما نعلم جميعًا، مبدأ القيادة الموحدة، وكان شكلًا غير مكتمل إلى حدٍّ ما في الحقيقة، وأدى تطبيقُه إلى آثار غريبة. كان المقر العام لقيادة القوات العامة البريطانية يعمل تحت إمرة قائدنا الأعلى، لكن من دون وسيط، حتى إن قائد مجموعة الجيوش الأولى، الذي كان يُدير العمليات الفرنسية من سلسلة جبال أردين (Ardennes) إلى البحر، تفاجأ بوجود مفرزة بريطانيّة كبيرة العدد في وسط القوات التي كانت من مسؤوليّته، من دون أن يستطيع الإشراف عليها بشكل مباشر. وعلى هذا النحو، كان الامتياز الذي منحتنا إياه حكومة لندن عزيزًا وغالي الثمن جدًا على كبرياء وطني حساس، وعلى كبرياء مهني لعسكريين يستعجلون استعادة ماء الوجه. إنّ مبرر ذلك يكمن بلا شك في التفوق الساحق لعديد قواتنا البرية، لكنه يعود أيضًا إلى الاحترام الذي كان يحظى به ترتيبنا الاستراتيجي. لقد قاد الماريشال فوش (Ferdinand Foch)، بعد اجتماع دولان (Doullens)، جيوش الحلفاء إلى النصر [في عام 1918]. واليوم، كان يُعتمَد على خلَفه ليسير على خطاه. في أيّ حال، كانت لضباطنا قناعة راسخة بهذا التفوق المفترض لمدرستنا العسكرية، وأتصور أنهم بالغوا في إظهار ذلك في بعض الأحيان[22]. لكن، ما حدث هو

(22) في محضر لجنة الحرب بتاريخ 26 نيسان/ أبريل 1940 (الوثائق السرية للأركان الفرنسية، *Les Documents secrets de l'État-Major général français*, p. 98)، وردت عبارة عن لسان الجنرال غاملان تنمّ عن غرور فائق لا يُحتمل عند عسكريينا. فقد قال: «إنّ توفير الجهد الحربي الأساسي في النرويج هو =

أن جيوشنا انهارت انهيارًا لا يصدَّق على نهر الميز، كما حوصر كل من كان يقاتل في الشمال. وبسبب هذه الكارثة التي كانت تهدد بخسارة فيلق التدخل البريطاني بأكمله، شعر البريطانيون بأنْ لا جدوى من المتابعة. تزعزع إيمانهم بالنصر، وتكفّل أداؤنا البطيء وأخطاؤنا المرتكبة بالباقي. لقد تهاوت هيبتنا ولم يُخفَ ذلك عنا. فكيف يُقال إن هذا خطأ حلفائنا؟

بعد أن أُجهض العمل المشترك المفترَض في اتجاه مدينة أراس، بدا أن قيادتَيْ الأركان على كلا الجانبين، وبفعل نوع من خيبة الأمل المتبادلة، تخلتا بشكل كامل تقريبًا عن التعاون معًا. ونسف البريطانيون عددًا من الجسور لحماية خط تراجعهم من دون أن يتساءلوا إن كانوا بذلك يقطعون الطريق علينا. ومن الأدلّة على ذلك أنهم، وعلى الرغم من احتجاجات المهندس المسؤول، دمروا في مدينة ليل، وبصورة استباقية، مركز الاتصالات الهاتفية الذي يربط بين المدن الشماليّة، فقطعوا بذلك كل وسائل الاتصال تقريبًا عن الجيش الأول. وبسبب ذلك دُنّاهم من دون حرج. لكني في الواقع أعتقد أنّ خيبة أملهم، وهي مشروعة، بسبب تقصير قيادتنا دفعت بعضهم أحيانًا إلى تجاهل إبداء الاحترام للمقاتلين الذين لا يمكن الطعن في شجاعتهم.

ربما لو حُدِّدت مناطق التحرك المقرَّرة في كل عام بصورة أفضل لأمكن تجنُّب الكثير من الحوادث المؤسفة، لكن لم تعُد هناك أيّ سلطة قادرة على رسم حدود هذا التحرّك. فقد أُسندت هذه المهمة سابقًا إلى هيئة الأركان العليا الفرنسية التي كانت مصدر القرار المشترك الوحيد. لكنها توقفت عن إعطائنا الأوامر حين حوصرنا. فهل كان مستحيلًا التوصل إلى اتفاق رضائي؟ لا أعرف إن جرت محاولة في هذا الاتجاه، وإن جرت فربما لم تكلّل بالنجاح. فمن الذي كان يمثِّل قيادتنا في مدينة ليل على وجه التحديد؟ لا أحد يعرف. قبل 10 أيار/مايو كانت هذه المدينة جزءًا من المنطقة البريطانية بالتأكيد، لكنها تحوّلت في النهاية إلى نقطة تمركز للجيش الفرنسي الأول. في هذه المدينة

= مسؤولية الإنكليز... وعلينا للأسف أن ندعمهم معنويًا، وأن نساعدهم على تنظيم القيادة، بل وأن نزودهم بأساليب العمل والشجاعة الضرورية وللأسف!» (تموز/يوليو 1942).

خصوصًا استنفدنا، في بضعة أيام، معظم مواردنا من الوقود. وحين تعلّق الأمر بتدمير المستودعات، قرّرنا عدم التخلّي عن هذه المهمّة لحلفائنا. فقد بدت لنا إجراءات التدمير التي يتبنّونها، من طريق خلط القطران أو السكر مع البنزين، غير كافية مقارنةً بطريقتنا التي تقضي بإضرام النار فيها. وحين طُرحت المسألة على الجنرال بريو، كتب رسالة وأصدر أوامره. وفي الرسالة الموجهة إلى اللورد غورت، بدا وكأنه بلباقة يترك له الخيار. أما في الأمر الذي وجّهه إلينا فقد احتفظ بالقرار لنفسه حصرًا. هذه الدبلوماسية الفطنة ألقت الضوء بشكلٍ فجّ على حالة انعدام الثقة المشروعة التي انتابت كل طرف. وفي أي حال، فقدْ استمر هذا الارتباك حتى النهاية. كان هناك مستودع واحد لم يُحرَق واقع خلف إحدى الأقنية التي دمّر البريطانيّون جسورها. ولسبب لا أعرفه كان الإنكليز يمنعون رجالنا من التنقّل بالقوارب. فمن كان المسؤول عن هذه الفوضى؟ ربما تحمّل البريطانيون جزءًا منها، كما نتحمّل نحن جزءًا منها كوننا تأقلمنا مع الوضع بسهولة كبيرة.

ربما كان التمزق المعنوي الذي أصابنا أقل عمقًا، وربما كانت عواقبه أقل خطورة لو أن اتصالاتنا بحلفائنا كانت متينة الأسس منذ البداية. ولا بد من الاعتراف بأن الوضع كان معقدًا. عملت قيادة أركان اللورد غورت كقيادة عامة للقوات البريطانية وكقيادة أركان لجيش التدخل البريطاني. وبالصفة الأولى المذكورة، كانت قيادة أركان اللورد غورت تتصل بقيادة أركاننا العامة اتصالًا مباشرًا، أما البعثة الفرنسية التي يرأسها الجنرال فوروز (Raoul Amédée Voruz)، فكانت تمثِّل الجنرال غاملان عند البريطانيين. أمّا بصفتها الثانية فقد كان الإنكليز، أو يُفترَض أن يكونوا، على تواصل مستمرّ مع جيشَينا: الجيش السابع على حدود الساحل في الميسرة، والجيش الأول في الميمنة. وفي هذا لم يكن للبعثة دورٌ تقوم به، لأن الجيوش كانت تتولى بنفسها مسألة تنظيم الاتصال في ما بينها. والحقيقة أنّ هذه العلاقات المشتركة خلال فترة الترقّب، اقتصرت على ترسيم الحدود في ما بينها في أغلب الأحيان. هل يعني ذلك أن مشكلات أخرى لن تظهر مع بدء العمليّات الفعليّة؟ وأن حلّ هذه المشكلات سيُرضي الجميع لأنه سيعتمد إلى حدّ بعيد على ما اتُّخذ من خطوات سابقة

لتثبيت التفاهم ولتبادل المعلومات المشتركة في الوقت نفسه؟ لعلّ الحدث الذي ذكرته آنفًا قد تجاوز كلّ التوقّعات؛ إذ اختفت قيادة الأركان العامة من أفقنا بعد الاختراق الألماني لصفوفنا. أما على المستوى العمليّ فلم يعُد من صلة محتملة بيننا وبين البريطانيين إلا على مستوى الجيوش.

سبق أن ذكرتُ أنّني عُيّنت في المبدأ ضابط اتصال بالقوات البريطانية، وقد بذلتُ قصارى جهدي لأداء هذه المهمات خلال الأسابيع الأولى لي في بوهين. هناك تسنّى لي القيام بها بهدوء ومن دون ضغوط، كما لم تتوقف جهودي تلك حتى بعد تكليفي الإشراف على مصلحة البنزين. في قيادة الأركان البريطانية التي وُزعت، لأسباب أمنية، في بعض القرى الصغيرة في ضواحي مدينة أراس، كنت أزور الـ «كيو» (Q)[23]، وهو ما يوازي المكتب الرابع في جيشنا. كما زرت قيادة أركان فيلق الجيش في مدينة دُويه، وتواصلتُ مع البعثة الفرنسية. وسرعان ما أدركتُ أن هذه الرحلات المتقطعة كان يمكن توظيفها لحل بعض المشكلات كلما دعت الحاجة، كما بعض الصعوبات البسيطة المتعلقة بالتفصيلات، لكن بدا أنّ هذه الرحلات ظلّت مقصِّرة عن خلق تواصلٍ حقيقيّ بين الحلفاء.

لا يمكن إقامة روابط فعّالة في مجال العمل من دون نسج بعض الصداقات، والصداقة لا تتطوّر من دون حياة مشتركة. يصحّ ذلك على كل الناس من دون شك، وهو ما ينطبق فعلًا على البريطانيّين. فحالما تنشأ الإلفة بينك وبينهم، تكتشف أنهم لطفاء وموضع ثقة إلى حد البراءة أحيانًا. لكنهم في المقابل، وعلى الرغم من لطفهم البالغ، يُبدون الجفاء إذا ما دخلت عليهم فجأة. أما في حال زرتَهم في مكاتبهم، فهم يزوّدونك بالمعلومات المطلوبة باللباقة المعهودة بلا زيادة ولا نقصان. وربما لم نكن من جهتنا لنفعل أكثر من ذلك. هل كان ذلك كافيًا في علاقاتنا المشتركة خلال الحرب؟ لقد انبغى أن يكون الهدفُ تعلُّمَ كيفية التعامل مع خصائص أجهزة حربيّة مختلفة تمامًا عن الأجهزة الخاصة بنا؛ إذ كانت مؤسستنا الحربية مدعوة لتتواءم مع مؤسستهم،

(23) اختصار لعبارة Quarter-Master General's Branch.

وكذلك الغوص في نقاط ضعفها المحتملة (وأيُّ جيش ليس لديه نقاط ضعف؟)، كما كان علينا التفاهم عند الحاجة. وكان علينا أن ننسج، في المقام الأول، تلك العلاقات الإنسانية المباشرة بين كلا الجانبين والتي وحدها تسمح بتقديم الاقتراحات المثمرة من دون التجريح الذي يطال كرامة الآخر، والتي تجنِّبنا مهلكة الأنانيّة في أوقات الخطر. وقد لا تكفي الزيارات العرضية؛ فالأمر يتطلب تشارُك شرب شاي عند الساعة الخامسة، واحتساء الويسكي والصودا، وجو النادي الذي يمتد لساعات طويلة في تعاون ودّي، أمام طاولة المكتب. من الضروري، بعبارة أخرى، أن يُنتَدب، وبصفة دائمة، ضابط من الجيش الأول إلى مقر الحلفاء. كان هذا رأيي الخاص، يشاطرني فيه قائد أركان البعثة الفرنسية. وهو إجراء عُمل به في الجيش السابع. لكنه ظل لسوء الحظ بلا تأثير تقريبًا بسبب تسارع الأحداث. ذلك أن الجيش، باستثناء الفيلق السادس عشر الذي أُسندت إليه مهمة الدفاع عن دَنْكِرك، انسحب بأكمله تقريبًا، في 15 و16 أيار/مايو، على ما أعتقد، من جبهة مدينة أنفير (Anvers) [أنتويرب]، ليواجه الثغرة على نهري الميز والواز حيث قُضي على معظمه.

كنّا، في الجيش الأول، نكتفي باستقبال ممثل عن هيئة الأركان البريطانية في مكتبنا الثالث. تعرفتُ إلى أحدهم وكان ضابطًا محترفًا سابقًا، وصار مصرفيًّا في لندن. إنّ طريقة تعامله اللبقة والمفاجئة في الوقت نفسه، ومظهره المحب للحياة، وخفة دمه الفريدة اللافتة، بالنسبة إلينا أكثر منها في بلاده، كل هذا جعله يحظى بالترحيب في أوساطنا. كان الرجل ممن يكرسون أنفسهم لمهنتهم، وكان حريصًا كل الحرص على ممارسة السلطة الممنوحة له. وربما سبّب له الإفراط في الحماسة لدى بعض رفاقنا بعض المشكلات، لكنه كان عازمًا على أن لا يعير ذلك أيّ أهمية. من جهتي، أقمتُ معه أفضل الصلات، لكنه كان، بالتأكيد، يفضّل الاحتفاظ بكل خيوط التواصل بين يديه. وفي ما يتعلّق بهذه النقطة خشيتُ ألّا يكون النفوذ الذي حظي به عند رؤسائنا بلا مخاطر دومًا. كما كان، علاوة على ذلك كلّه، شخصًا حاذقًا. من جهة أخرى، لا أظنه كان بعيدًا من الاصطفافات الاجتماعية التي يفرضها الانتماء إلى الطبقة العليا في البرجوازية الإنكليزية، وعلى الرغم من أنه كان يتفادى إبداء مواقفه بفضل لباقته

البالغة، فأنا أعتقد أنه لم يتحرّر أيضًا من الانحيازات القوميّة الدفينة في تقاليد حزب المحافظين.

لذلك، كان من السذاجة جدًّا التفكير في إمكان الاعتماد عليه لمعرفة أوجه القصور المحتملة في ما يتعلّق بالمعدات أو بأساليب القتال البريطانية. ثم حدث أن غادَرَنا هذا الرجل قبيل 10 أيار/ مايو ليلتحق بمنصب في الوزارة المسؤولة عن الحصار (Blocus)، في مركزها في لندن، أي قبل الأوان بكثير من تقديمه الخدمات التي اعتقد جازمًا أنه كان سيؤدّيها لنا حين تبدأ مرحلة المعارك. قضيتُ وقتًا أقل بكثير مع خليفته الذي كان، رغم لباقته، أقل مهارة في مجال العلاقات الاجتماعية. مهنيًّا، لم أتعامل معه غير مرة واحدة فقط وذلك في مدينة لنس حيث بدا لي، من دون شك، حريصًا على النأي بنفسه عن أيِّ مسؤولية. مع ذلك، أيًّا كانت السمات الشخصية لمندوبي جيش الحلفاء هؤلاء، فإنهم لم يعكسوا، للأمانة، غير نصف التمثيل الدبلوماسي المفروض. هل الحفاظ على الروابط بدولة صديقة، ومعرفة ما يجري فيها، وإقامة أواصر الصداقة على أساس متين من التفاهم المتبادل، تعني فقط اكتفاء حكومة ما بتوفير حسن الضيافة لسفير الأمة الأجنبية؟ أبحجة الاكتفاء بوجود هذا المفوض في بلادها تتخلى دولة صديقة كهذه عن فكرة إرسال ممثل خاص عنها إلى البلد الآخر؟

لذلك استجمعتُ شجاعتي ذات يوم وطلبتُ لقاء نائب رئيس أركاننا، وكان آنذاك يتولى مهمات الرئاسة. أوضحتُ له الحجج التي ذكرتُها للتو وبأفضل ما استطعت، ولم أتردد في إفهامه أنني لا أطلب تكليفي مهماتِ ضابطٍ منتدب عند اللورد غورت في الأركان العامّة، وقد بدا لي أن ثمة رفاقًا أكثر خبرة مني في المهنة العسكرية هم الأحق بهذه المهمة. لكني ارتكبتُ حماقة إذ خشيتُ أن يكون رأيي الشخصي بلا قيمة، فاعتقدتُ أنه ربما كان من الأفضل الاستشهاد برأيٍ أكثر موثوقية، هو رأي رئيس أركان البعثة الفرنسية. ويا للأسف، فقد كان المقدم الذي طرحت أمامه حججي عدوًّا لدودًا للمقدم الذي حاولتُ الاستشهاد برأيه. وهكذا لم أُحرز أيّ تقدّم في هذا الصدد. إنّ

طريقة التعاطي في المدرسة الحربية ممتلئة بالأفخاخ لمن لم يختبر أساليبها!
كان محاوري لبقًا، فقد سمح لي بالكلام، ثم بيَّن لي أنني لم أقنعه في أيّ حال من الأحوال، وأنه من جهته مُكتفٍ بوجود ضابط بريطاني إلى جانبنا وهذا كافٍ لكل ما تستلزمه مهمته. حاولتُ، في وقت لاحق، مراسلة مقر الأركان العامة بشأن هذا الموضوع، ومجدّدًا لم أُحرز نجاحًا. وقبل أن يتحوّل ذلك إلى سبب يعرّضني للتأنيب، قررتُ أن أريح نفسي من عناء تنقلاتي ذهابًا وإيابًا على طريق أراس، من أجل بضع دقائق من المحادثات المبهمة وعديمة الجدوى. وهكذا، كرستُ جهدي أكثر فأكثر، بدءًا من تلك اللحظة، للإشراف حصرًا على مصلحة البنزين.

كان في مقر قيادتنا ضابط كبير من أركاننا سبق له التواصل مع البريطانيين في خلال الحملة، حين كان يعمل ممثلًا عاديًّا لنا في مقرهم العام. كان هذا الضابط ذكيًّا وذهنه أكثر انفتاحًا مقارنة بزملائه، وأنا واثق من أنه قدّم أفضل ما لديه، بل أفضل مما قد يقدمه أيُّ شخص آخر في موقعه. لكنه لم يسبق له أن عقد صداقات مع حلفائنا، بل لم يتسنَّ له الوقت لذلك إذ كان يقضي معظم أوقاته متنقلًا من مقر قيادة إلى آخر، ولا سيَّما أن الظروف كانت، أكثر من أيّ وقت مضى، غير مواتية لبناء ثقة ثابتة لا تهتز عند وقوع أيّ حادث. إن التحالف الحقيقيّ هو خلقٌ مستمر لا يُكتب على الورق، ولا يتحقق إلا من خلال عدد من العلاقات الإنسانية الصغيرة التي يشكّل مجموعُها صلة صلبة. تجاهلنا مثل ذلك الأمر في الجيش الأول، فعانينا بسبب إهمالنا بشدة[24].

*

ذكرتُ أنّني أمضيتُ بضعة أيام، عند وصولي إلى الجيش، عاملًا في المكتب الثاني، وهو مكتب استخبارات. لاحقًا، حدث أن وجدتُ نفسي حين كنتُ أحاول الحصول على قائمة دقيقة وحديثة عن مستودعات الغاز

(24) عن أوجه القصور في الاتصال، بين قواتنا وجيش التدخل البريطاني، ينظر مداخلة تشرشل أمام لجنة الحرب الفرنسية - البريطانية في 22 أيار/مايو، وبرقيته بتاريخ 24 أيار/مايو (*Les Documents secrets de l'État-Major général français* [Juillet 1942], pp. 57, 132).

البلجيكي، في تواصلٍ مع المكتب نفسه في فيالق أخرى من الجيش وفي قيادة الأركان العامة. ولَاعتُبِرتُ مؤرخًا ضعيفًا لو لم أهتم، بشكل خاص، بهذه الأسئلة المتعلقة بالمعلومات والشهادات. ولكن، لأني مؤرخٌ تحديدًا، سرعان ما استرعت انتباهي الأساليب المعتمدة حولي وأثارت قلقي.

فلأشرح الأمر حتى لا يُساء فهمي. لا أنوي هنا أن أُدين بشكل مسبق جميع الناس، ومن بينهم الجنود والاحتياطيّون، وكان بعضهم بالتأكيد من العاملين بتفانٍ وكفاءة. في سياق التحقيق الذي أجريتُه، لَقِيتُ في المكتب الثاني التابع لقيادة الأركان العامة، إن لم يكن مساعدةً فعالة جدًّا، فعلى الأقل استقبالًا وديًّا في كل حين. لقد وجدت في مجموعة الجيوش التفهُّم والمساعدة القيّمة والفعليّة. أما في الجيش الذي كنت ملتحقًا به فلم أكن أحظى بالمحبّين، وهذا الأمر كان واضحًا حين تطلق الألسن في قيادة الأركان. لا شك في أن الضابط الذي قاد مكتبنا الثاني، بمظهره الأنيق، كان سيظهر بشرف في أيّ استعراض عسكريّ على رأس كتيبة ذات هيبة، كما لا أشك في أنه كان سيبلي جيدًا في ساحة المعركة، لكن المهمة التي كُلّف بها كانت تتجاوز قدراته فعلًا. ومرة أخرى أقول إن قصور بعض المديرين لا يعني عدم كفاءة كثيرين منهم. لقد عرفتُ في المكتب الثاني زملاء رائعين، بل وأصدقاء إلى حدٍّ ما، خصوصًا في قسم المترجمين الشفويين وكان يقودهم أحد الصناعيين القادم من مدينة ليون. هؤلاء الناس بذلوا قصارى جهدهم، مع الكثير من التفاني، كلٌّ في مجاله المحدود بالضرورة، لكن بحنكة لا جدال فيها.

لا بد من أن أذكر أيضًا أننا كنا نعاني قصورًا في مجال المعلومات! استطعتُ أن أتابع عن كثب بعض النشاطات المتعلّقة بجمع المعلومات عن بلجيكا. ذكرتُ أنّ قيادة الأركان العامة لم توفر لنا غير معلومات غامضة وخاطئة في أغلب الأحيان عن مواقع مستودعات البنزين وقدراتها ومحتوياتها. وما زاد الطين بلّة أنها لم تحاول أن توفر لنا بيانات أفضل. كيف إذًا سيتم تنظيم مصالح الإمداد بالوقود في الجيش البلجيكي إذا ما دُعينا بالضرورة إلى التعاون في حالة تحالف ضد عدو مشترك؟ هذا ما حاولتُ معرفته. وقّع الجنرال

بلانشار شخصيًّا الرسالة التي تضمّنت طلب توضيحات بشأن هذه النقطة. لكننا لم نتلقَّ ردًّا. ولدي أسباب قوية للاعتقاد بأن هذا الجهل لم يكن يخصّ مصلحة مستودعات البنزين التي أَشْرَفت عليها فحسب، بل يطال مصالح أخرى.

كان هناك أولًا عدد كبير من أجهزة المعلومات التي سادَتْ في ما بينها منافسة محمومة، وسنعود لاحقًا للحديث عن ذلك. إنّ الملحقين العسكريين لا يتبعون قيادة الأركان العامة بل الوزارة التي لا تقبل بأيّ شكلٍ من الأشكال التعدّي على صلاحياتها. وتحت غطاء مبدأ مضلِّل هو احترام الحياديّة، اتفقت كلٌّ من الوزارة وقيادة الأركان العامة، كلٌّ بدورها، على منع الهيئات العسكرية التابعة لها من أيّ نشاط استكشافيّ مباشر يخص البنزين في بلجيكا. وفي الحقيقة، لم يسبق لمجموعة الجيوش ولا للجيوش بالذات، أن عملت بصورة مستقلة، بل وصلتنا في واقع الحال بيانات عدة مفيدة خلسة من خارج القنوات الرسمية. ألم يكن من الأفضل إذًا العمل على تنظيم التقاربِ في جهود الاستطلاع؟

ألم يكن من الأجدى أيضًا توجيهها بشكل أفضل وفي اتجاه عمليّ أكثر صرامة. ينبغي النظر إلى المكتب الثاني على أنه نوع من الوكالة التي ينتمي زبائنُها إلى أجهزة القيادة المتعددة، وكالة تعمل على تلبية احتياجات هذه الأجهزة، أي المدفعية والطيران والدبابات وسائر المصالح المعتمدة لتنظيم الحركة في سكك الحديد أو على الطرق، فضلًا عن مكاتب الدراسات الاستراتيجية التي تشرف على الجميع. ذلك لأن لكل جهاز منها انشغالاته الخاصة التي يميل غير المتخصصين دائمًا إلى إهمالها. في حين أنها تسعى إلى توقُّع وتلبية احتياجات هؤلاء بشكل مسبق، كما توفّر لكلٍّ منهم البيانات التي يحتاج إليها بمجرّد تلقّيها.

بدلًا من ذلك، ظلت مهمة توفير المعلومة تُراوح مكانها وتدور في الحلقة نفسها، تُقيّدها التقاليد الضيقة التي لا تأخذ في الحسبان حرب المعدّات. في البداية، جرت محاولة لإعادة تشكيل فرضية «نظام المعارك عند العدو»، أي الجهاز الذي تنتظم فيه وحداتُه، والذي يُفترض أنه يعمل على توقُّع نيات

الخصم. لكن، وبسبب سرعة الحركة في اللحظة الراهنة، كان التوقُّع يُحيل في معظم الأحيان إلى ثلاثة أو أربعة تفسيرات متعاكسة. كما أُضيف إليه بعض البحوث ذات الطابع المعنوي أو السياسي، حيث تجلّى الجهل الصريح بقواعد التحليل الاجتماعي الفعليّ. أتذكر كُتيّبًا عن بلجيكا يُعتقد أنه يقدّم معلومات مفيدة عن الموارد الداخلية للبلاد، وبأفضل أسلوب ممكن، وهو أشبه بأسلوب **كتاب غوتا التقويمي** (*Almanach de Gotha*)[25]، يخبرنا الكتيّب أنّ بلجيكا «ملكيةٌ دستورية». وقد رأيت ذلك بأم العين... وكأننا نجهل ذلك!

أما بالنسبة إلى نشر المعلومات، فهناك نكتة قديمة منتشرة في الأوساط العسكرية تحكي كيف أنّ المكتب الثاني يسرع في تأشير أيّ معلومة تصل إلى مقرّه بعبارة «سريّ جدًّا» بالخط الأحمر، ثم في إحكام الإغلاق على الأوراق التي تحوي هذه المعلومات في خزانة بثلاثة أقفال بعيدًا من أعين كلّ من قد يهمهم معرفة فحواها. وقد تسنّى لي التأكد من أن النكتة ليست مخترعة تمامًا وفيها شيء من الصحة. عرفتُ من مكتبنا الثاني أنه كانت تُرسل إلى فيالق الجيش قائمة مرفقة بملاحظات عن مستودعات البنزين البلجيكية التي نجحنا أخيرًا في تعدادها. بعد مدة قصيرة أُتيحت لنا الفرصة لكي نوجّه إلى الوحدات الكبيرة تعليمات عامة تتعلق بتزوُّدها بالوقود حالَ دخولها بلجيكا، وتناولت أساسًا طلبات المصادرة، ثم تركيب الجيش لمستودعاته الخاصة. أما ما تعلّق بجغرافيا الموارد المحلية، فقد اقتصرت الرسالة على الإحالة إلى الجدول الذي سبق إرساله. وكما هو الحال في كل مقر قيادة، سلِّمت القائمة كالعادة إلى المكتب الرابع المسؤول عن جميع الإمدادات. في اليوم نفسه، تلقيتُ مكالمة هاتفية شديدة اللهجة إلى حدٍّ ما من زميل يشرف في أحد الفيالق على المصلحة نفسها التي أُشرف عليها وفيها احتج قائلًا: «أنت تتحدث عن جدول لم يسبق أن رأيناه». استفسرنا عن الأمر لنكتشف أن

---

(25) كتاب ألماني يُنشر فيه سنويًّا تعداد وإحصاء للملكيات والأسر الحاكمة. نشر أول مرة في عام 1763. نُسب اسمه إلى مجلس مكون من نبلاء وملوك أوروبا، كان يُعقد في مدينة غوتا الألمانية ليُصنِّف الملكيات الأوروبية وحكوماتها وكذلك الإمارات القديمة والدوقيات والعائلات ذات المستويات الرفيعة، ثم صار مفهوم الكتاب السنوي هذا رائجًا في دول العالم وثقافاتها. (المترجمة)

الجدول المذكور أُرسل فعلًا. ولأنّ كلَّ بريد يرسله مكتب ما، يتجه نزولًا ليصل، في المستوى الأدنى، إلى مكتب من الدرجة نفسها، يكون المكتب الثاني التابع للفيلق هو من استلم الرسالة. في ذلك المكتب طوي البريد من فوره وأُحكِم الإغلاق عليه في الخزانة الشهيرة من دون أن يفكر أحد في إعلام الشخص الوحيد القادر على استعماله. وقد علّق رفاقي مستنكرين: «هم لا يرتكبون شيئًا آخر [إلّا الحماقات]!». وهل وُجِّه توبيخٌ أو اتُّخِذت التدابير اللازمة لمنع تكرار مثل هذا الخطأ؟ أبدًا، بل لم يفكر أحد في ذلك مطلقًا. إنّ هذا الروتين المترسخ في هيئاتنا عصيّ على الاقتلاع.

كنّا ندرك جيدًا أنّ مكتبنا الثاني لم يكن أيضًا نموذجًا للعمل المُتقَن. لكن الوثائق التي أعدّها المكتب في خلال فترة الانتظار[26]، ونظريًّا في خلال مرحلة الدراسة التي سبقت الهجوم الألماني، أثارت الذهول في بعض الأحيان في العقول الأكثر تحجّرًا. اشتهرت من بينها خريطة لسكك الحديد رُسِمت فيها الحدود بشكل سيئ جدًّا بحيث ظهرت مدينة إكس لا شابيل (Aix-la-Chapelle) كأنها بلدة بلجيكية، وصُنِّف خط هامبورغ - برلين خطًّا ضعيفَ الحركة. فهل يجوز أن تُرتَكَب مثل هذه الأخطاء في تلك المرحلة. ولقد احتوت «نشرة المعلومات»، التي كانت تصدر بين الفينة والأخرى، على أخطاء في الإدراك أكثر غموضًا، وبالتالي أكثر خطورة. هل تتساءلون لمَ قد ينشغل باحث ما في تشذيب نتائج تحقيقه من وقت إلى آخر، أو عالم آثار، على سبيل المثال، في نشر تقارير متتالية عن الحفريات التي اكتشفها، أو طبيبٌ في توزيع دفتر تجارب باستور الشهير على طلابه، أو أوراق ملاحظات فيها تفصيلات

(26) تسمى هذه المرحلة من الحرب في تاريخ الحرب العالمية الثانية الحربَ الزائفة (The Phoney War باللغة الإنكليزية أو Drôle de guerre باللغة الفرنسية)؛ وهي تشير إلى الوضع العسكري السائد على الجبهة الشمالية بدءًا من 3 أيلول/ سبتمبر 1939، تاريخ إعلان فرنسا وبريطانيا الحرب على ألمانيا بعد غزوها بولندا في 1 أيلول/سبتمبر 1939، وحتى 10 أيار/مايو 1940، تاريخ الهجوم الألماني على فرنسا. ولمدة ثمانية شهور تقريبًا، ساد الجمود في العمليات العسكرية ما خلا اشتباكات متفرقة. يذكر التاريخ طبعًا أن فرنسا وبريطانيا لم تحاولا المبادرة في الهجوم وغزو ألمانيا حين كانت منشغلة في احتلال بولندا، وفضّلتا انتظار الهجوم الألماني كل مرة في عامي 1939 و1940، ولهذا سميت الفترة الفاصلة بين التاريخين مرحلةَ الانتظار. (المترجمة)

عن مرض ما؟ إنّ الهدف هو أن يقولوا لنا، وفي كل مرحلة: هذه شهادة تؤكد ما سبق تقديمه وهذا تفسيرٌ لما اعتُبر في السابق غير قابل للنقاش، وهو ما يتيح لنا تجاوُز معلوماتنا الحالية على اعتبار أنها بلا قيمة. في مجال آخر هناك واقع جديد يشير إلى تحوّل جذري، إلا إذا كان الموضوع لا يخص أمورًا سابقة بل موضوعات قيد الدرس. وبعبارة أخرى، فإنّ كل معرفة تُعتبَر في حدّ ذاتها تنشيطًا تدريجيًا للعقل. إن معرفة الأحداث ذات الطبيعة المتقلّبة لا يمكنها أن تكون، علاوة على ذلك، إلا نتاج فحص دقيق لمتغيّراتها، وأيّ تقرير بحثٍ ينتج من معرفة معزولة، لا وزن له ما لم يرتبط بتقارير سابقة. والحال أنّ «نشراتنا» المختلفة توالت من دون أن يكون بينها رابط واضح. وحين تُقارَن بغيرها، وبعناية، يتضح التناقض في كثير من الأحيان، أو أنها بعد أن تجذب الانتباه إلى مجموعة من المعطيات الغنية بالاحتمالات في البداية، يحدث فجأةً أن تُهملها في المرة التالية، من دون عناء التنبّه إلى ذلك، فهل يعني هذا أنّ المعلومة الثانية قد ألغت الأولى؟ أم أنها عمدًا لم يُؤتَ على ذكرها مجدّدًا؟ أو أنّ تغيُّرًا ما طرأ فعلًا على الواقع؟ إنّ التوصّل إلى إجابة عن الأسئلة هو عملٌ فذّ الذكاء، ومن يُجِب عن هذه التساؤلات قد يُعتَبر من أدهى الدهاة. وأنا أخشى قليلًا أن أبدو مفتريًا إن أبديت كلّ رأيي في الموضوع، لكنّني تساءلتُ غير مرة إن كان في هذا التناقض شيء من الحماقة ومن الحنكة في الوقت نفسه. فالحقيقة هي أنّ كل من يرئس المكتب الثاني يعيش حالة من الذعر خوفًا من أن تكذِّب الأحداث الجدّية، عند وقوعها، التوقُّعات التي زوِّد بها القيادة، وعليه ألّا يعتبر تقديم احتمالات متعدّدة ومتناقضة إلى هذه القيادة مخرجًا للتنصّل من المسؤولية بالقول: «ليتكم صدّقتموني!»[27].

---

(27) بشأن العادات السيّئة التي كانت تسود أجواء أيّ مكتب ثانٍ قبل الحرب، ها هنا شهادة مؤثّرة من برتران دو جوفنيل (Bertrand de Jouvenel) في كتابه **تحلل أوروبا الليبرالية**، ص 212، (*La Décomposition de l'Europe libérale*, p. 212) يقول: «لدى قيادة الأركان عندنا مرور صبياني ينتشر عبر صفحات الدليل (يقصد الدليل العسكري لعصبة الأمم)، وفي حديث عن القوّات التي لا نملكها وعن العسكريين المحترفين الذين لم يتسلّموا مهماتهم وعن الاحتياطيين الذين لم يُستَدعوا وهو ما يعمل على تعزيز الأطروحة الألمانيّة». بالنسبة إلى عام 1914، للمقارنة ينظر: *Mémoires du Maréchal Joffre* (Faux renseignements sur les corps de réserves allemands) [Juillet 1942], p. 249.

ما الفائدة التي قدمتها مصالح المكتب الثاني لخبراء الاستراتيجيا في قيادة الأركان حين انطلقت العمليات العسكرية؟ في هذه النقطة، لا أملك الكثير لأقوله، لأنه لم يتناهَ إلى معرفتي شيء عما قيل أو فُعِل. إنما ثمة شيء واحد مؤكد، هو أن «النشرات» الشهيرة، التي تلتزم الآن صمتًا تامًّا وحذرًا، هي السبب في أنّ الضباط الذين يشغلون وظيفتي نفسها، لا يعرفون عن العدو شيئًا غير القليل مما تلتقطه آذانهم في المحادثات أو الاجتماعات التي يحضرونها، بالصدفة أو بالحظّ، أي، وبعبارة أخرى، لا شيء تقريبًا؛ أعني بذلك، بالمقارنة طبعًا، ليس مع درجة فضولهم التافهة على الأرجح فحسب، بل مع سعيهم الواجب من أجل معرفة كل ما يُعتبر ضروريًّا لممارسة مهنتهم الخاصة. وعندما ينجح أحدهم في الوصول صدفةً إلى مؤشر على قدر ما من الأهمية، فلن يجد مركز معلومات يزوّده به (على نحو المثال الذي ذكرت) لإرساله إلى وجهته. ويكون الحل الوحيد في هذه الحالة هو نقل المعلومة مباشرة إلى قائد الجيش شخصيًّا. كما لو أنَّ القائد الذي يتحمّل الكثير من المسؤوليات ينبغي ألّا تصل إليه مثل هذه البيانات بعد أن يتم جمعها وغربلتها أولًا! علاوة على ذلك، فإن هذه المراكز، أو هذه «الوكالات»، كما سميتُها على سبيل المقارنة في الصفحات السابقة، والمسؤولة عن تنظيم المعلومات ونقلها في الوقت نفسه، ينبغي ألّا يقتصر عملها على ذلك بصفتها «مكتب ثانٍ» منفصلًا، في مقرات الجيش فحسب. فمن الضروري في نظري أن يكون في كل مكتب على الأقل، ضابط متخصص تقتصر مهمته على القيام بهذا الدور المهمّ. وهل يظن المرء أن من السهل تزويد الوحدات بالذخائر، والمواد الغذائية، والمعدات الهندسية، والبنزين، وتحديد موقع مستودعات الذخيرة، ومحطات الإمداد بالأغذية، ومستودعات المعدات الهندسية أو شاحنات الصهاريج، من دون أن تسبق ذلك معرفة مبكرة وكافية بأماكن تمركز هذه الوحدات أو نقاط تموضع العدو[28]؟

---

(28) ثمة شائبة مستحكمة في قيادات أركان جيوشنا تتمثّل في عدم القدرة على تأمين المعلومة إلى الجهة المرسلة إليها. على هذا النحو، يذكر دوق دو فزنساك (le duc de Fezensac) في مذكراته أنه =

من المؤكد أنّ هذه الأخطاء المنهجية المتكاثرة في مكتبنا الثاني، وفي كثير من المصالح الأخرى، وفي جميع الجيوش، لم تمر في معظمها من غير أن يلاحظها قادتنا، وأنا متأكد من أن بينهم، أو في محيطهم المباشر، من تحلّوْا بالأمانة ليشجبوها بقوة في أعماقهم. لكني أتساءل كيف يُعقل أنها لم تستتبعْ عقابًا، أو على الأقل أن يُنقل مرتكب الخطأ وذلك أضعف الإيمان؟ «ما عاد أحد يتعرض للعقاب في الجيش الفرنسي»، هذا ما كان يقوله أحيانًا رفاقي الشبان من الجنود العاملين. تلك عبارة قاسية ولا شك، لكنها تعبّر حتمًا عن وجود أزمة في السلطة لا تتطلّب تحليلًا عن قرب.

لقد تعاملتُ كثيرًا مع ضباط الجند في السابق، ولا يساورني شكّ في أنهم استطاعوا، في هذه اللحظة وفي ما مضى، قيادة وحداتهم بحزم ومرونة في الوقت ذاته، بعيدًا من الفوضى، التي أمقتها شخصيًّا، ومن مضايقة جنودهم كما يحصل عادة مع الجنود الأدنى رتبة. إنها لمهنة جميلة أن تكون قائد فرقة أو كتيبة أو فوج وتقوم بعملك بشرف على النمط الفرنسي. وقد لاحظتُ في كثير من الأحيان أنها تُطوِّر لدى القادة الشبان فضائلَ إنسانية أعترف أنّني من أشد المعجبين بها. كان من دواعي سروري أن أعثر على مثل هذه الفضائل عند ضابط في قيادة الأركان شغل منصب نائب رئيس مكتبنا لبعض الوقت قبل أن يغادر إلى مناصب أعلى. منذ أن غادرنا «ما عاد أحد يهتم لأمرنا»، بهذا أفصحت عاملات السكريتاريا في المكتب عن حزنهن بعد رحيله. وينبغي هنا أن لا يُساء فهم التعاطف على أنه تجاوزٌ للعلاقات الرسمية.

لا أعتقد أنّ قيادة الرجال خضعت في أيّ مكان لمثل هذا القدر من الإنصاف والذكاء الإنساني، ولديّ بعض التقارير الموثوقة التي تجعلني

= تلقّى من الماريشال نيه (Ney) مهمة إيصال أمر إلى أحد الجنرالات الملحقين به. وعندما سأل عن الوجهة التي على الرسول أن يسلكها أجابه الماريشال: «لا أريد أن أسمع أيّ ملاحظات». ويضيف فزنساك «لم يُحدّثنا أحد عن مراكز القوات، ولم يصلنا أيّ أمر بالتحرك، ولم نُبلّغ أيّ تقرير. كان علينا أن نعتمد على أنفسنا للحصول على المعلومة، أو أن نُخمنها». (ذُكِر في: M. Leroy, *La Pensée de Sainte-Beuve*, p. 56). وهذه ملاحظة يمكننا التوافق على صحتها: «أليس الأمر كذلك يا جنرال لاشان؟»، (حزيران/ يونيو 1942).

متأكدًا من ذلك. هناك كلمتان أتمنى لو أنّهما تختفيان من القاموس العسكريّ، وهما «التدجين» و«الإخضاع». ربما كانت لهما أهمية في جيش «الملك الشاويش»[29] (Roi Sergent)، لكن لا فائدة لهما في جيشنا الوطني. ولا أُنكر أن الانضباط ضروري، كما هو الحال في أماكن أخرى، وربما أكثر من أيّ مكان آخر، كما أن تعليمه ضروري أيضًا. لكن ينبغي ألّا يكون هذا الانضباط إلّا امتدادًا للفضائل المدنية، ووفقًا للكلمات المعبرة التي صاغها بيير هامب[30] (Pierre Hamp) لوصف الشجاعة الحقيقية كـ «شكلٍ من أشكال الضمير المهني». ذات مرّة، عبّر أحد الضباط أمامي عن تفاجئه من كون السيدات العاملات في مركز الاتصال الهاتفي في الجيش يقمن بعملهن «أفضل بكثير ممّا يفعله الجنود». كانت لهجته غير مسبوقة، وكأن ذلك أثار عنده شعورًا بالفضيحة أكثر منه بالمفاجأة. فهل سيجعله مثل هذا التفاخر الذكوريّ مؤهّلًا لقيادة قواتٍ استُنفرت دفاعًا عن البلاد من صفوف الشعب كله، ومؤلفة في معظمها من رجال اعتادوا العيشَ المستقل في بيوتهم؟

عمليًا، يصعب التمييز دومًا بين «الانصياع» و«الاحترام» الذي تفرضه أشكال خارجية لا يمكن إنكار أهميتها حين تكون تعبيرًا عن انضباط عميق. لكن فرضها لا يؤتي ثماره ما لم يتم، في الوقت نفسه، بناءُ رابط من الثقة يكون قويًّا بما يكفي بحيث يراعى هذا الاحترام بشكل عفوي عند الجميع تقريبًا. أوافق أنّ على الفرد «الخضوع للتدريب»، لكن ذلك ليس ممكنًا ما لم يستهدف التدريب الإنسان برمته. والقادة الحقيقيون يعرفون كيف يقومون بذلك. فكيف يمكن احترام عقيدٍ من مصاف هؤلاء القادة نزع رتبة أحد ضباط الصف – وأنا متأكد من صحة الرواية – إذ دهمه وهو يضع يديه في جيبَي معطفه العسكري بسبب البرد الشديد؟ وكيف يحظى بالاعتبار وهو على هذا النحو، وقد صارت مهمات يومه كله لا تتعدّى تقديم الملاحظات عن ترتيب الزي العسكري، في

---

(29) لقب أطلقه ملك إنكلترا جورج الثاني على ملك بروسيا الذي تولّى الحكم بين عامي 1713 و1740، واسمه الفعلي فريدريش فيلهلم الأول. (المترجمة)

(30) كاتب وروائي فرنسي اشتهر بتشخيصه أشكالَ المعاناة والمشقة التي ترتبط بعالم الشغل والحرف اليدوية. (المترجمة)

حين سمح بأن تقع قواته فريسة الجليد في منتصف فصل الشتاء بسبب سوء التنظيم في المعسكر؟

لقد شهدتُ بنفسي آثار مثل هذه المحاولة من «التدجين» في النورماندي في أثناء تجمّعنا بعد حملة منطقة الفلاندر. وكم كان جنودنا هناك على قدر من اللطف وحسن النية! على الرغم من أننا كنا جميعًا، حتى أشدنا صلابة، في حالة عارمة من الانفعال! كان الجنود يهبطون من القطار بعد أن استنفدت الرحلة الطويلة كل قواهم، وبسبب الجوع في الكثير من الأحيان. كان بعضهم يرتدي قطع الملابس الرثة التي وزعها عليهم الإنكليز بعد انتشالهم من الماء، وقد أضاعوا في الطريق وحداتهم وقادتهم المباشرين و«رفاقهم». كما كان عليهم السير لكيلومترات عدة للوصول أخيرًا إلى مناطق التجمع التي تتيح لهم تبادل المساعدة في ما بينهم كما هي العادة بين الجنود. رغم ذلك لم يتأفّفوا، لا بل أبدوا «امتنانًا» لكلّ يد امتدت لهم بالعون. ولقد انتابهم شعور بالرضى، ليس بوصولهم مؤقتًا إلى مكان آمن فحسب، بل لنجاة هذا الضابط أو ذاك بعد القلق الذي ساورهم بخصوص مصير رفاقهم أيضًا. وحين صافحني كثيرون منهم بحرارة سرى في روحي شعور بالدفء. في الحقيقة، ستبدّد ذكرى هذه الأيام ما حييت، ومهما حاولت، كل احتمالٍ للشكّ في شجاعة الشعب الفرنسي.

إذّاك عُيّن لقيادتنا جنرال جديد صاحب نيات حسنة على الأرجح، مخلص تمامًا لعقيدته العسكرية، وشديد الحزم مع نفسه كما مع غيره. بيد أنّ سماته النفسية لم تكن تضاهي صفاته الأخرى. اعتبر الجنرال الجديد أنّ الجو في المعسكر لم يكن جو ثكنة عسكرية منضبطة، فقرر أن يعالج الأمر بأنْ ضاعف جولات الضباط، وأمطرنا بالملاحظات عن الزي العسكري غير المنتظم. كان كثيرون منّا قد فكروا، بعد نجاتنا من جحيم منطقة الفلاندر مثلما سمّتهُ الصحف بكثير من الدقة، في استقدام زوجاتهم إلى القرى حيث كنا نُقيم. كان هذا طلب الجنود العاديين وطلب الضباط معًا، حتى لا يُظلم أحد. لكن الجنرال استشاط غضبًا رافضًا الفكرة بشدة. فبالنسبة إليه، يمكن للمحارب إذا شاء إشباع غريزته أن يقصد ماخورًا، في حين أن احتضان زوجته هو بالعكس خطيئة تضرب

عمقَ صلابة الجندي. وبما أن زعيمنا الجديد كان عادلًا على طريقته الخاصة، فقد بدأ بمعاقبة جنرال من كادر الاحتياط كان قائدًا سابقًا لنا، لمدة أسبوعين، وذلك لأنه شاهده ذات مساء وهو يتأبط ذراع زوجته المحترمة، وهو ما دعانا إلى الانفجار ضحكًا. إنما هذا لم يشفِ غليل الجنود العاديين، ففي غضون أيام قليلة، تغيّرت الأجواء المعنوية تمامًا. وليس أدلّ على ذلك مما حلّ بالتحية العسكرية التي تحوّلت من تعبير ودّي حماسي، إلى مجرد إشارة باليد فاترة، تؤدّى بالإكراه. وهكذا، قضت محاولة «التدجين» الزائفة، وبسرعة فائقة، على المزاج الجيّد والصحي للقوات التي نجت من خط النار والتي يُفترَض أن تعود إليه مجدّدًا.

كثيرون ممن عاشوا تحت الاحتلال الألماني زمن حرب أعوام 1914–1918، وعانوه من جديد في الأسابيع الأخيرة، أشاروا إليّ، ومن دون أيّ تفاهم مسبق بينهم، بملاحظة صدمتني بقوة. هي أن أخلاق النظام النازي ربما كانت «أكثر ديمقراطية» مقارنةً بجيش النظام الإمبراطوري الألماني؛ إذ لم تكن المسافة بين الضابط والجندي العادي بالصرامة نفسها (بل إن الضباط كانوا يقللون من شأن التحية العسكرية، وقد شهدتُ ذلك بنفسي). ويظهر بوضوح التوافق على إرادة مشتركة من أعلى هرم الرتب إلى أسفله. هذا الاتحاد الروحي تحقق بفضل نوع من التفاني مهما بلغت وحشيته. لكن هذه التقاليد القديمة البروسية، التي تلاشت في بروسيا نفسها، لا يجوز أن تحجب عنا روحنا الوطنية الحقيقية باعتبارنا فرنسيين.

لم يتخلّ الجيش الفرنسي إذًا، سواء عن حق أم عن باطل، عن تراثِه في فن العقاب. لكن، من ناحية أخرى، لم تستفد القيادة من شهور الانتظار الطويلة التي أتاحها لها العدو، للقيام بعمليات التطهير الضرورية في كوادرها. وخلال فترة الاشتباكات، دوّت في صفوف الجيش الأول أخبار عمليات تسريح بعض الضباط. لكن، هل كان لا بد من الانتظار حتى تلك اللحظة، أي بعد فوات الأوان، لتطهير الصفوف؟ إن بعض أوجه القصور القائمة اتضحت في وقت مبكر من ذلك التاريخ. فهل نزيد مثالًا آخر؟ كان قائد الأركان العامة للجيش

ضابطًا عجوزًا وودودًا، من دون أن يُخفي ذلك عجزه التام عن القيادة. كان يطيب له أن يردّد: «أنا لا أفهم شيئًا منذ اثنتين وثلاثين سنة». وسيذهلني حتمًا لو تبيّن لي أنّ هذا الاعتراف الصريح الذي انتقل من لسان إلى آخر، وتناقلته حناجرنا، لم يصل إلى آذان أعلى قادتنا. في الحقيقة، لم تكن صلاحيات هذا الرجل المشابه للكابتن برافيدا[31] (Bravida) ذات أهمية طالما كنا في مدينة بوهين، لكن الجميع كانوا يعلمون أن هذه الصلاحيات ستتوسع حين تنطلق مرحلة العمليات، لتشمل، على وجه الخصوص، ووفقًا للوائح نفسها، إدارةَ قسم العربات التابع للأركان، والذي ظل قبل تاريخ 10 أيار/مايو، وبعده للأسف، قسمًا مُهمَلًا. لم تكن إقالة ضابط بهذه الرتبة صعبة جدًّا مقارنةً بقرار نقل جنرال أو قائد للجيش. نُقل قائد كتيبتنا إذًا بسبب خموله، ولم نره طوال فصل الشتاء، ثمّ خلال الحملة برمتها التي لم نشاهده في خلالها إلا نادرًا، حتى جاء اليوم الذي كنا نتأهب فيه للرحيل في دَنْكِرك، فاختفى بشكل غامض. تساءلنا عمّا أصاب الرجل، وصارت نهايته موضوع روايات كثيرة، لكن من الأفضل الاعتراف بأننا لم نعرف شيئًا، وإن افترضنا أنه ببساطة مات في سبيل فرنسا، وفي النهاية هذا ممكن جدًّا بعد كل شيء، أو أنه وقع أسيرًا بسبب خطأ ما. من المؤكد في أي حال أنه لا يتحمل مسؤولية إبقائه في منصب يفوق بكثير قدراته المتواضعة، ولم يكن المثال الوحيد في هذا الوضع. لقد كنا بحاجة إلى يد تضرب بقوة كالجنرال جوفر في عام 1914، كما كنا بحاجة إلى بعض من هؤلاء الشبان الضباط من ذوي الإقدام. بعضهم كانوا لا يزالون في قيد الحياة، لكنهم تقدموا في السّن، وعُلقت على صدورهم نياشين الشرف، وراحوا يعيشون بهدوء بعد أن عُيّنوا في مناصب إدارية رفيعة نظير إنجازاتهم.

أعتقد أننا ورثنا هذا الضعف في القيادة أوّلًا بأوّل عن العادات التي تشرّبناها بسبب تعوُّدنا العملَ المكتبي في زمن السّلم. تخيّلوا للحظة لو أنّ رئيس المكتب الثاني الذي أخفق في إيصال بيانات ذات أهمية قصوى إلى

---

(31) بطل رواية ألفونس دوديه (Alphonse Daudet) الذي لم يعرف شيئًا من فنون القتال. (المراجع)

الضابط الوحيد المعني بها، كان على رأس مصلحة كبيرة في مؤسسة خاصة. ماذا كان سيحدث حينئذ؟ أعتقد أن مديره كان سيدعوه إلى مكتبه ويغلق الباب ويوبّخه بشدة ثمّ يُعيده إلى عمله مع ملاحظة شديدة اللهجة: «إياك أن تكررها ثانية»، وربما لن يكرر الخطأ مرة أخرى. اسمعوا الآن ماذا كان سيحصل لو أني فكرتُ في الحصول على موافقة مسؤولي المباشر، ثم رئيس الأركان، ثم جنرال الجيش نفسه على توجيه ملاحظة إلى الضابط المسؤول عن ارتكاب الخطأ. لَكان عليَّ حينها تقديم مذكرة خطية، والأسوأ من ذلك كله هو أنّ هذه المذكرة، وفقًا للقواعد الهرمية المقدسة، لم يكن لها أن تُوجّه في نهاية المطاف إلا إلى شخص واحد هو اللواء قائد فيلق الجيش بذاته: لأنه في رتب القيادة، لا مراسلات إلا بين من هم في أعلى الرتب على كل مستوى. وستبلغ القضية، على هذا النحو، درجة شديدة الحساسية بحيث سينصحني الجميع بأن أتخلى عنها، ولأن مضمون ورقتي كان سيفقد من حدَّتِه تدريجًا، على حافة طاولة فخمة بعد أن تتداوله أساليبُ كتابةٍ عدّة، في حال حدث ذلك. وأضيف أن عوامل الخوف من «الإشكالات»، أو ضرورة التحلي بالدبلوماسية، وهو هاجسٌ يتحوّل بالنسبة إلى من هم بحاجة إلى الترقي في رتبهم، إلى جزء من الشخصية، تجسدها الخشية من إثارة استياء شخص قوي في أيّ وقت كان.

ذات يوم، وبناءً على اقتراح مني تقرّر أن تُخفض مخصصات فيلق في الجيش من البنزين، وتُرفع مخصصات فيلق آخر. وقد استتبع ذلك كتابة مذكرتين متوازيتين. الأولى هي مذكرة الاقتطاع، وقد عمل نائب رئيس الوحدة على توقيعها من جانب الجنرال بلانشار. أما من ناحية أخرى فقد احتفظ لنفسه بتوقيع الورقة التي تتضمن تسهيلات لافتة في الاستهلاك لمصلحة الفيلق الآخر. وهكذا سيبدو أن لا يدَ له في الأخبار السيئة التي يحملها قرار الاقتطاع، فيما في الحالة الثانية سيبدو كجالب الخير كله. بهذه الطريقة تُدار المسيرة المهنية؛ فأنتَ قد تتعرض للخطر إذا علا صوتك يومًا، وإن كنت لا تتحلّى بالشجاعة للقيام بذلك، ستخشى، وعن خطأ في بعض الأحيان، من أن يتهدد موقعُك إن فعلت. وهناك أخيرًا العادات الروتينية التي تجعل المرء طيِّعًا وتستوعبه؛ فقد تعوّدنا، على مدى سنوات طويلة من البيروقراطية، الكثيرَ من أوجه القصور التي

لم تكن تتخذ طابعًا مأساويًا إلّا في ما ندر. تغيرت الأزمان فيما بقيت العادات على حالها. وباختصار، ربما يكفي أن نقول إن قيادة الأركان في وقت السلم لم تكن مدرسة مثالية لتكوين الشخصية العسكرية. وأيًّا يكن تبقى الأمثلة على ذلك كثيرة[32].

*

يصف مثَل عسكري قديم المشاعر المتبادلة بين ضابطين يتسلقان معًا درجات التسلسل الهرمي بالقول التالي: «الملازمون أصدقاء والنقباء رفاق والمقدّمون زملاء والعقداء متنافسون أما الجنرالات فأعداء». لَن يستغرب القارئ إن قلت إنني لم أكن في موقع يسمح لي بمعرفة الكثير من الخلافات التي تدور بين كبار القادة لنتكلم عنها في الخفاء. إنها خلافات تتأجّج بفعل الزبائنية التي تحيك حول كل زعيم أشكال التفاني والدسائس، في مناخ مُواتٍ يُذكيه تشابك الصلاحيات. هل لنا أن نفهم، نحن أبناء الجيش الفرنسي، أن النظام والمعلومات ستتأخّر حكمًا بالوصول إلى الهدف عندما يجب أن تمر بدرجات ومستويات عدّة. أما الأسوأ من ذلك فهو أنه عندما يكون عدد الرؤساء المتداخلي الصلاحيات كبيرًا، تتضاءل درجة المسؤولية في ما بينهم إلى درجة يتوقف معها الجميع عن الإحساس بوجودها. وهذا العيب منتشِر في البيروقراطية العسكرية على كل المستويات. أشرتُ آنفًا إلى أنّ اللائحة في مصلحة البنزين تفيد أنّ ثمة سُلّمًا من ثلاث درجات يفصل المجنّدين عن ممثل الجيش. فبين قائد فوج المشاة والفرقة تُشكّل هيئة أركان فرقة المشاة حاجزًا

---

(32) بالمناسبة هناك مشكلة كبيرة جدًّا تتعلق بهذا الموضوع. ولا يوجد نص يعرض المسألة ببراعة كما يرد في الجزء الأول من مذكرات الماريشال جوفر. إن هذه المذكرات تقدّم لنا قائمة مذهلة من الجنرالات الذين أعفوا من مناصبهم في الشهور الأولى من الحرب (أي من تاريخ التعبئة العامة إلى 6 أيلول/ سبتمبر 1914 على سبيل المثال، وهو ما شمل نصف قادة فرق المدفعية العاملة، ونصف قادة فرق الفرسان). كما يورد جوفر ملاحظة بخصوص أحد جنرالات فيلق من الجيش حيث يقول: «لقد أظهر عجزًا عن الانتقال من ذهنية زمن السلم إلى ذهنية زمن الحرب»، وهذه الملاحظة تنطبق على غالبية القادة الذين «سرّحوا» وعددهم يقارب نصف عدد قادة زمن السلم. وهنا نتساءل ما فائدة التدريب العسكري إن كان يحضّر لكل أمر إلّا لزمن الحرب؟ (تموز/ يوليو 1942).

كنا نطلق عليه، حين كنتُ في فرقة المشاة، اسم «جهاز التأخير». ولم أفاجأ حين عرفتُ أن اللقب لا يزال معمولًا به منذ ذلك الحين. أما في المستويات العليا فهناك الجيش ثم مجموعة الجيوش، وهي من حيث المبدأ مجرّد أجهزة للتنسيق الاستراتيجي، لكنها غالبًا ما تحاول تخطّي هذا الدور. ثمّ تأتي قيادة مسرح العمليات في الشمال الشرقي المكلَّفة سير الحرب على مختلف الجبهات الفرنسية باستثناء جبال الألب. وتُختم هذه التراتبيّة بالقيادة العليا للقوات البرّية. استمعت إلى محاضرة عن التنظيم الجديد للمقر العام لقيادة القوات البرية حين قُسِّمت الصلاحيات بين المستويين الأخيرين، أو بكلام آخر بين قيادة أركان الجنرال جورج (Alphonse Georges) وأركان الجنرال غاملان، وتابعت عرضًا للتنظيم الجديد لهيئة الأركان العامة. كان المحاضر يتكلم بكثير من الوضوح، ومع ذلك، لم أكن الوحيد الذي لم يستخلص من خطابه غير استنتاج واضح إلى حدٍّ ما وهو أننا كنا نسير نحو فوضى وتشابكات لن تنتهي. وقد أثبتت الأصداء التي وصلت إلى مسامعي لاحقًا صدقَ توقعاتنا، إذ لم نكن نتوقع استحداث هيئة ثالثة للأركان زُرعت في أعمق وأهم ثنايا القيادة: في المكتب العسكري للقائد الأعلى!

كل هذا كان يحدث بعيدًا من موقعي فعلًا. لكن سنحت لي فرص كثيرة لكي ألمس درجة الخلافات بين المكاتب القريبة من القمة، تلك التابعة لقيادة الأركان (قيادة الأركان العامة) وقيادة أركان الجيش (أي وزارة الدفاع).

من بين أبرز الضباط الذين عرفتُهم على الإطلاق المقدَّم الذي ذكرتُ اهتمامه بعمل سكرتيراتنا آنفًا، وقد أخبرني أنه «يجب ألّا يكون هناك مكاتب في أيّ قيادة أركان». وكان يقصد بذلك أن هذا التقسيم الحتميّ ربما كان محفوفًا بالمخاطر، لأنّ كل جزء سيتصرف بالضرورة باعتباره الكلّ، والمجتمع المغلق على نفسه يعتبر أنه الوطن بأكمله. إلا أن المكتب الثالث هو ملجأ الخبراء الاستراتيجيين الذي تلقّبه التعابير السيئة عندنا بـ «اتحاد العقول». يبدو عادة وكأنه قدس الأقداس، بحيث يفخر الضباط الذين ينتمون إليه بدورهم المهم والحساس، فلا يتكلفون عناء التعاون مع رفاقهم في الأجهزة الأخرى،

البعيدين بطبيعة الحال مما يُعتبر أنقى مصدر للفن العسكري. ويبدو أحيانًا كما لو أنهم يحتقرون تلك الأنشطة التي من دونها قد تصير السهام الجميلة التي يرسمونها على خريطة العمليات مجرد علامات لا جدوى منها. والأمر نفسه ينطبق، ولأسباب أخرى، على المكتب الثاني الذي يسكنه هاجس السرية. وباستثناء بعض الحدّة في المراس، تغلُب عليه السمة الحضرية كسلوك، إذ هي الأنسب لاستدعاء مبدأ التحفظ. لا شك في أن حواجز الكتمان هذه توجد في كل مكان، لكن أكثر تجاربي رهبة، والتي لم أشهدها في أيّ مكان آخر، كانت في قمة القيادة ذاتها، أيْ في قيادة الأركان العامة.

في شهر كانون الثاني/يناير، قضيتُ نصف يوم تمامًا في محاولة للتنسيق بين المكتبَيْن الثاني والرابع، في مسألة تتعلَّق، كما يمكن التخمين، بموضوع البنزين، وهي مسألة ذات أهمية. وطالما أنها تعني أطرافًا ثلاثة ليس لي الحق حتى يومه، في معارضتها، لذلك سأجدني مُرغمًا على التنبّه لبعض المحاذير.

أطلعني أحد المخبرين على موقع مستودع للوقود في مكانٍ ما من بلدٍ صغير ومحايد، على مسافة متساوية بين الحدود الفرنسية والألمانية. لم يطلعني مخبري المعتاد على كمية البنزين في تلك الحاويات لكن بدا أنها ضخمة. اضطرني ذلك إلى التحفظ في الرّد عليه وقد أبلغني هذا المخبر قائلًا: «إنني أستطيع، وبحسب رغبتكم، إبقاءها ممتلئة بغرض تسهيل إمدادكم بالوقود في حال اضطرّت قواتكم يومًا ما إلى دخول هذه الأراضي، أو على العكس، الاحتفاظ بكميات محدودة تكفي لاحتياجات التجارة، وذلك حتى لا تخاطروا بأن تتركوا للألمان مواردَ قيّمة. دعوا الأركان العامة الفرنسية تقرر، وبمجرد معرفة التعليمات، سأنفّذها أيًا كانت». لقد تجسّدت المعضلة، باختصار، في معرفة أيّ جهة ستصل أولًا، الأعداء أم نحن، إلى المنطقة في حال انتهاك الألمان حياد دولة بلجيكا. كان الأمر يتجاوز كفاءتي الشخصية بكثير، فالجيش الذي كان يتموضع في تلك المنطقة من الحدود لم يكن الجيش الذي أنا من عداده، بل أكثر من ذلك فهو لم يكن ينتمي أصلًا إلى مجموعة جيوشنا، وبالتالي، لم يكن ثمة من مخرج غير طلب الأوامر من الهيئة العامة.

أجريت أول اتصال بمقر المكتب الثاني الذي زوّدته بما أحمل من معلومات. وحين وصلتُ إلى الموضوع الشائك، كان من المنطقي أن يجيبني السادة هناك بقولهم: «عملُنا هو تقديم المعلومات، وليس اتخاذ القرارات. عليك التواصل مع المكتب الرابع». غير أنّهم لم يرافقوني إلى هناك لعِلمهم المسبق بالنتيجة. وربما كان من الأفضل لي، في أيّ حال، لو تحدثتُ مباشرة إلى مساعد الجنرال المسؤول عن العمليات أو إلى ممثليه، لكن هل يملك المبتدئ حق الوقوف على عتبة الباب المقدس؟ لذلك، سلكتُ شارع فرتيه سو جوار (Ferté-sous-Jouarre) الطويل والممتلئ برجال الدرك، باتجاه المكتب الرابع، وطبعًا، كانت ممراته مألوفة لي. هناك، أحالوني من غرفة إلى أخرى، وفي كل مكان سمعتُ الرد نفسه: «العدو؟ لا نعرف عنه شيئًا. سنضع إمدادات فرنسية تحت تصرفكم. هذا كل شيء وانتهى. وبالنسبة إلى الباقي، هل مخبرك الخاص موثوق به؟ ماذا إذا كان ينصب لنا فخًّا؟»

– المكتب الثاني يتحمل مسؤولية دقّة المعلومات.

– أوه! المكتب الثاني! وهل صار هذا المكتب يهتم بمسائل البنزين؟ فإن بدأ يتدخل في عملكم، فليكمل إذًا!

– لا مانع لديّ، ولكن إذا كان هذا هو ما تراه، أتمنى أن تخابره هاتفيًّا».

كفاني على الأقل أن أحظى هنا بتجاوبه. وعلى الهاتف تبادل الطرفان محادثة جافة بلا نتيجة، إذ كان كل طرف منهما يرمي الكرة في مرمى الآخر. وبعد بضع دقائق، أنهى المكتب الثاني المكالمة بردٍّ جاف آخر يقول: «لا شأن لي بهذا». وهكذا، بدا الأمر كما لو كانوا مجموعة مالكين يتنازعون على جدار منزلي مشترك. ولم يفكر أيٌّ منهم أن الأمر يتعلق بمسألة مهمة هي مصلحة الجيش الفرنسي بالذات. ولأني كنت بطبيعتي شخصًا عنيدًا، استأنفتُ المحادثة مع المكتب الرابع. ومن رتبة إلى رتبة في سلم القيادة أوصلوني في نهاية المطاف إلى ضابطين برتبة مقدّم. كانت الحماسة بادية في أسلوب حديثي، وربما كان مردّ ذلك إلى تواضع رتبتي. ثم أدركتُ في الوقت المناسب أنني بدأتُ أتجاوز حدود الاحترام الهرمي، ولأن ذلك كان يهدد من دون شك

بتخريب ما جئتُ لتحقيقه، فقد التزمتُ الصمت من فوري. وتملّكني الإحباط بعد كل هذا العناء، إذ لم أحصل إلا على بعض الوعود الفضفاضة بأنْ تُعرض المسألة على مساعد الأركان العامة لشؤون المصالح. وإذا رأى هذا الأخير أنها مستعجلة، ربما عمد بدوره إلى مراسلة زميله في جهاز العمليات المكلف بهذا الشأن. لم يكن ذلك أكثر من تجاوبٍ مع مزاج شخص مزعج أو مجنون يلحّ على أمر ما مثلما فعلت، لأنه في الواقع، لم يأتِ أحدٌ على ذكر هذا الموضوع من بعد.

مع ذلك ما كنتُ لأتحمل بسهولة أن أتخلى عن الرد على شخص «متعاطف» معنا على الجانب الآخر من الحدود، عرض علينا مساعدته من دون أن تكون له أيّ مصلحة في ذلك، وعلى الرغم مما قد يتعرض له من مخاطر جرّاء ذلك. إن المصلحة العملية لهذه المقترحات، الواضحة جدًّا، لم تكن وحدها على المحك، بل صمتنا عن الرد كان من شأنه أن يكشف تردّد القيادة الفرنسية أمام شخص من دولة أجنبيّة. ويكفي أننا ندرك ذلك هنا. وبالاتفاق مع الصديق الفرنسي الذي كان الوسيط بيننا، وهو شخصٌ مدنيّ، أجبتُ بقولي: «لا تملأوا الحاويات». كان في ذلك إساءة استعمال للسلطة من جانبي ولا شكّ، لكن الأحداث التالية خففت من شعوري بالقلق، إذ كما توقعنا بالضبط، كان الألمان أول من وصل إلى ذاك الموقع حين اندلعت المعارك.

كشفت لي تحقيقاتي بشأن موارد البنزين أيضًا، كيف أنه، على هامش الحرب التي كنا نستعد لخوضها ضد الألمان، جرت معركة كبيرة أخرى خلف جدراننا بالذات. كانت المعركة تدور بين القيادة العامة للأركان، وقيادة أركان الجيش، أي بين مقر فرتيه سو جوار ومركز باريس. وكان تقليدًا ربما امتد بعيدًا إلى زمن مقر شانتيّي (Chantilly)، والجنرال جوفر، والجنرال غالييني (Joseph Gallieni) في الحرب الأولى. أظهرت استقصاءاتي الأولية أن المعلومات بشأن المستودعات البلجيكية لم تكن كاملة. وكان المُخبر ينتظر الأوامر لجمع المزيد من البيانات. ولكن، بأيّ وسيلة نستطيع أن نُعلمه باحتياجاتنا؟ فمن المستحيل التفكير في استدعائه إلى باريس. رفض هذا المخبر مقابلة الملحق العسكري

لأن مقابلة كهذه قد تعرّضه للملاحقة، كما رفض مقابلة جهاز الاستخبارات الذي يحسن التعامل مع مخبرين مرتزقة لا مع مفاوضين محترمين. أضف إلى ذلك أن مسائل البنزين لم تكن من اختصاصهم. بدا لي أنّ أبسطَ طريق هي أن أطلب من وسيطنا الفرنسي أن يذهب بنفسه إلى بروكسل بحجة طبيعية جدًّا هي القيام برحلة عمل. وكان هذا أيضًا رأي المكتب الثاني في مجموعة الجيوش الذي كان يتابع الموضوع عن كثب. وبقيت مسألة توفير التأشيرات الضرورية لهذا المندوب المتطوع وإيصالها إليه بأقصى سرعة، وذلك لتجنيبه إضاعة المزيد من الوقت في محطات الانتظار الطويلة في أروقة الشرطة أو السفارات، إذ يكفيه ما قد يضيع من وقت في هذه الرحلة، وقد قبِل التضحية به طواعية. وبدا أن الأمور ستسير بسلاسة إذ كنتُ متأكدًا من الرد الإيجابي لأن هذا الرسول كان أحد معارفي، إضافةً إلى كونه شخصية معروفة ومحترمة في عالم التجارة في باريس، وقد جعله نشاطُه المهني على اتصال مستمر بوزارة الدفاع الوطني، كما أن مجموعة الجيوش، وقيادة الأركان العامة، صاروا يتابعون أخيرًا الموضوع باهتمام. مع ذلك كله، لم يكن من الممكن تخطّي المكتب الثاني في الوزارة. وعلى الرغم من التوصية الصريحة التي قدّمتْها مجموعة الجيوش باسم هيئة الأركان العامة بصفتها متحدثةً باسمها، أو ربما بسبب هذه التوصية، لم يشأ موظفو الوزارة الاستجابة. فردّوا بالقول: «نحن لا نعرف هذا الرجل. ولا ما يعتزم القيام به» (وغنيّ عن القول طبعًا أنهم كانوا على علم تامّ بالموضوع)، «نحن نرفض تحمُّل أيّ مسؤولية. فليتدبرْ أمره». وقد تدبّر الرجل أمره بالفعل، بعد جهد مضنٍ، وبعد أن استعان بعلاقاته الشخصية لحسن الحظ، في تسريع الكثير من الخطوات. أدركتُ حينئذٍ، وبشكل أوضح من أيّ وقت مضى، أن الجيش الفرنسي لم يكن جيشًا واحدًا في واقع الأمر بل إن مناطق نفوذ عدة كانت تتوزّعه.

تمكنتُ من ملاحظة ذلك بشكل أكثر وضوحًا وفي ظروف مأساوية أكثر بكثير، عندما تعلّق الأمر بإعادة بناء ما تبقّى من القوات المسلحة في منطقة النورماندي، من خلال عملية تجميع من نجا من حملة الفلاندر. حينها اضطررنا إلى مراجعة جنرال بعد آخر، جنرالات كانوا أحيانًا يتغيّرون في اليوم نفسه، بل

كان كل واحد منهم يسارع فور استلام منصبه إلى التراجع عن استكمال ما بدأه سلفه. وكم استمرت المنافسة المريرة بين القيادة العامة للأركان ووزارة الدفاع، غصبًا عنّا وعلى حسابنا، أو بالأحرى على حساب البلاد. فقد كنا نتبع الوزارة من حيث المبدأ، على الأقل في البداية، حين كانت النورماندي خارج جبهة الحرب، بحيث افتُرض أنها مقاطعة بعيدة بما يكفي من الجبهة (التي صارت في السوم منذ ذلك الحين). لكننا كنا في الواقع تحت تصرُّف القيادة العامة للأركان. ولا حاجة بي إلى التشديد على الفكرة، فقد كنا متأكدين من أن هذه المنافسة المذكورة آنفًا لم تساعد على التعجيل في إعادة تجميعنا ولا على إعادة تسليحنا. ورغم اقتراب العدو، بالتحديد، من أبواب المدينة بل وأقرب من ذلك في الواقع، فإنّ الحزبَيْن لم يوقفا خلافاتهما، ولا أقصد الأحزاب السياسية، بل الأحزاب العسكرية، التي تُدان على أكثر من ذلك بكثير.

*

إن الشجاعة الشخصية، بالنسبة إلى أولئك الذين يختارون مهنة السلاح، هي الأولى بين جميع الفضائل المهنية. ولأنّ لا غنى عنها في ضمير أيّ جماعة، يصبح وجودها أمرًا مسلمًا به. وأنا واثق من أن الأغلبية العظمى من ضباط الجيش كانوا مخلصين لهذا التقليد الشجاع. وإذا كانت ثمة استثناءات هنا وهناك، فلن يؤثر ذلك في شرف المجموعة. عرفتُ منهم واحدًا أو اثنين في الحرب الأخيرة وتصورتُ أنني سأعثر على بعضهم في هذه الحرب أيضًا. وهي استثناءات تُثبت ببساطة أن ارتداء الزي العسكري لا يضفي عليك صفة المحارب. كما تُثبت أن هناك أشخاصًا معدومي الخيال بحيث يختارون مهنة من دون معرفة عواقب خياراتهم. فأن تختار مهنة الجندي على سبيل المثال يعني أنك قد تنتقل فجأةً من حياة الثكنة العسكرية إلى عالم الحرب. لذلك فإنّ هؤلاء الضعفاء هم في المقام الأول مساكين في أعماقهم وذلك لأنهم أخطأوا الاختيار في الأساس. ويتبقّى أنّ في عدم الاكتراث بالخطر درجات ومستويات. لكننا لن نستطيع الخوض في هذا كله، فإن فيه أسرارًا عن أشخاص تملّكهم الخوف، فهل نفعل ذلك من دون المخاطرة بإيذاء صورهم في ذكرياتنا؟ كل من اقترب من خط النار يعرف جيّدًا أن

أصلبَ الأنفس يصعب عليها أحيانًا ترويض الخوف، كما يمكن في أحيان أخرى أن يتولد الشعور باللامبالاة تلقائيًّا كما لو كان مُنتَجًا عفويًّا لما يجب فعلُه، إن بفعل العادة أو فقط نتيجة حدوث توازن دماغي مُواتٍ.

وليست الشجاعة حكرًا على مهنة أو طبقة. تدفعني تجربتي في حربين، وفي الحرب الأولى تحديدًا، إلى الاعتقاد أن هذه الشجاعة تكون متأصلة عند الأصحّاء من الناس، على الأقل في شعبنا، حيث العقولُ الصلبة والأجساد المكتملة. يتصور كثير من الضباط، وعن خطأ، أن أشجع الجنود هم القادمون من صفوف أناس همجيّين أو مغامرين أو لصوص. أما أنا فقد لاحظتُ دائمًا، على العكس من ذلك، أن هؤلاء المتوحشين يترددون أمام أيّ خطر داهم. إن شجاعة الجندي هي تأديتُه عملَه على أتمّ وجه. فالرجل الشريف الذي يلتزم، بإخلاص، العملَ الموكلَ إليه في حياته العادية، سواء أكان عاملًا في مشغل أم في الحقول أم خلف طاولة للبيع، أو أجرؤ أن أُضيف، يجلس خلف مكتب مثقف، سيواصل، بطبيعة الحال وبالبساطة نفسها، الوفاءَ بواجبه تحت القنابل والرصاص، خصوصًا إذا ما أُضيفت إلى هذه الحاجة الفطرية لإتقان العمل غريزةُ الجماعة. وهذا النوع من الرجال هو على مستويات متنوّعة؛ ففيه المندفع وفيه المتهور الذي لا يتخلى عن رفيقه إلى حدّ التضحية في سبيل الجماعة. لكن الأشكال الأكثر بدائية تؤدي تدريجًا إلى أشكال أعظم من التضحية. في حرب أعوام 1914–1918 لم أتعرف إلى محاربين أفضل من عمال المناجم في الشمال، أو في منطقة با دو كاليه (Pas-de-Calais). لكن استثناءً يخص عاملًا واحدًا حيّرني مدةً طويلة، قبل أن أعرف صدفةً أن ذلك الجبان كان يُنعت بـ «الأصفر»: أي العامل غير المنتمي إلى نقابة، والذي يُستعمل لتخريب الإضرابات. لستُ هنا بصدد اتخاذ موقف سياسي ما، بل أعني ببساطة أنّ الشعور بالتضامن الطبقي حين يغيب في زمن السلم، تكون القدرة على التعالي فوق المصلحة الأنانية الفورية أدنى في ساحة المعركة. تشكّلت فرقة المشاة في منطقتَي فردان والسوم، على مستوى الجنود كما على مستوى أغلبية الكوادر، من مجنّدي الاحتياط، كما كان جنود الاحتياط هم أيضًا يعملون معي في مستودعات البنزين وشاحنات الصهاريج

قبل مدةٍ قصيرة. وقد باتوا أصدقاء أوفياء لي ولم يهابوا النيران التي أضرموها في الحاويات لأنه ينبغي ألّا تُترك محتوياتها للعدو. لقد زوّدوا الدبابات بالبنزين على مسافة قريبة جدًّا من خط نار متحرك باستمرار، واضطرّوا مرات عديدة إلى أن يستعيدوا شاحناتهم قبل أن يتمكنوا من إزاحة أنابيب الإمداد المتأرجحة كذيل طويل خلف السيارات. وبما أنّنا كنّا نشكّل «مصلحة تعمل في الخطوط الخلفية»، فقد كان معظمهم مجرّدًا من الأسلحة! رفض أحد هؤلاء الجنود الشجعان، وكان سائقًا متواضعًا، أن يجري إجلاؤه بعد إصابته بجرح قاتل في أثناء تنفيذ إحدى عمليات الإمداد هذه، وصاح قائلًا: «لا أمل لي في النجاة، اذهبوا أنتم، فلا أريد أن يُصاب أحدٌ من الرفاق بسببي». لقد رأيتُ عن كثب، في السنوات الأربع من حربي الأولى، وهي معركتي الحقيقية، أمثلة كثيرة من هذا النوع، وإن استرسلتُ في الحديث عنها فلن أتوقف.

لكن في هذه الحرب، جرت أحاديث كثيرة عن أوجه القصور في الجيش، خصوصًا قصور الضباط. ورُويت قصص هروب عن قادة تملّكهم الذعر، فركضوا هاربين بسياراتهم بين المارة. كما أُشيرَ إلى حدوث حالات هروب من مواقع عسكرية، وإلى دعوات إلى الهروب صادرة عن مراكز عليا. ربما لم أكن شاهدًا مباشرًا في حينه على ذلك، لكن ليس من الضروري أن يشاهد المرء أحداثًا بأم العين ليصبح شريكًا في الأسطورة: كل شعبٍ مهزوم يبحث عن غانيلون (Ganelon)[33]، أو أن يبحث في أسوأ الأحوال عن كبش فداء يحمّله مسؤولية الهزيمة. لنعترفْ مع ذلك، وهذا ما أخشاه، أن هذه القصص ليست كلها خيالية. إن الوحدات القتاليّة كانت تعاني، مثلما سمعتُ أحيانًا من رفاق في مقرات قيادة الأركان، «حالةَ هلع في أوساط الكوادر»[34]. وهنا أيضًا كانت مسؤولية القيادة العليا في هذا الأمر عظيمة جدًّا.

---

(33) شخصية تاريخية شهيرة، وأسطورية إلى حدّ ما في الذاكرة الجماعية الفرنسية، وهي ترمز إلى الخيانة. (المترجمة)

(34) أعتقد اليوم، وقد حلّت بنا الهزيمة، ووفقًا للكثير من الشهادات التي جمعتُها خلال العامين الماضيين، أن أوجه القصور في قيادة القوات الفرنسيّة كانت أكثر بكثير مما كنت أتصور. سأترك نصي بلا تغيير بطبيعة الحال، لكن ربما كان من الضروري تأكيدًا لهذه الحالة، أن أصرّ على إبرازها. وكم هو =

تتألف الكوادر الثانوية أو الوسطى في القوات المحاربة، في معظمها، من ضباط الحامية القدامى. لكن، وبقطع النظر عمّا يفكر فيه المرء في بعض الأوساط، لا يمكن أن يُسهم الروتين اليومي الخاص بالضّبط والتفتيش، والتمارين التي تجري في ميادين المناورة، وقصص الانضباط الداخلي التافهة، في الإعداد الفعّال للرجال الذين سيتحملون مسؤولية القيادة في حياةٍ تملؤها المغامرات الحربية وبعيدة تمامًا عن الدعم الذي توفره اللوائح والمقدرة على الانتظام. ولتطوير الصفات التي تتطلبها مثل هذه الظروف المتجدّدة، فإن الكثير من المهن المدنية يشكّل مدرسة أفضل لأنه يتضمن، على الأقل، بعض عناصر المسؤولية الإنسانية، كالتكيّف مع ظروف العمل المتغيرة. أضف إلى ذلك الجو المنهك لمهنة الموظفين الصغار الذين لا يكادون يجدون ما يقومون به، وهذه كانت المسيرة المهنية المعتادة في زمن السلم للكثير من النقباء أو رؤساء الكتائب بقطع النظر عن هيبة الرتبة. ولا تُفلت من هذه السموم إلا الأرواح الوثّابة أو التي يحركها الشعور القوي بالواجب، وإن كانت لا تتساوى كلها بالقدر نفسه من التعالي. أما في فترة الترقب التي استمرت حتى 10 أيار/ مايو، فكان بالإمكان إجراء التطهير اللازم وبالتالي إعادة حيوية الشباب الضرورية إلى صفوفنا. ولمواجهة الجمود والتصلب كان لا غنى عن دماغ يحتفظ بمرونته في جسد تسري فيه دماء فيّاضة. ربما لم يكن النقيب كوانييه (Jean-Roch Coignet) وأقرانه خلال الحروب النابليونية عباقرة لكنهم كانوا شبابًا. ولا جدال في أن الجيش الألماني بدوره، حتى وإن كنا لم نلمحه إلا صدفة، كان يوحي بالشباب مقارنة بجيشنا. لكن التطهير، كما نعلم، لم يحدث قط في صفوفنا. اكتُفي بدلًا من ذلك بتعيين ضباط صف من جنود الاحتياط في مناصب الملازمين والمقدّمين بعد إلحاقهم بدورات تدريب إضافيّة

= مؤلم الاعتراف بهذه الحقائق وإني لأذكرها مع شعوري بالألم. لا شك أن ثمة أزمة معينة في أخلاقيات المجموعة الطبقية (لدى ضباط الاحتياط كما لدى الضباط العاملين) كانت أعمق مما يمكن تخيّله. كما أننا نعلم أنها لم تطَل الجميع، إذ بجانب أوجه الضعف هذه، ثمة مواقف شجاعة نبيلة في الأوساط نفسها. إن هذه التناقضات هي ما يجعل التعبير عن التاريخ بدقّة أمرًا صعبًا. علاوة على ذلك، لا بد من أن ندرك بصورة جيدة أيضًا أزمة الأخلاق الجماعية لدى بعض طبقات الأمة، وردات فعل بعض هذه العناصر وانعكاسها على الأزمة. وكان نهج تعاون (Collaboration) بعض الفرنسيين مع الألمان، حجرَ الزاوية في المسألة التي تعنينا (تموز/ يوليو 1942).

محدّدة. وبشأن هؤلاء، لا يمكن تجاهُلَ أنهم أظهروا في تجربة عام 1914 قدرة عالية على ممارسة السلطة ونسبة عالية من المهارة والإخلاص في صفوفهم. كما أعرف أن قادتهم من العقداء كانوا يمنعونهم من متابعة دورات التأهيل بحجة أنهم كانوا بحاجة ماسة إليهم، أو لأن «الواسطة» وللأسف لم تكن كافية! هل كان علينا انتظار الاشتباكات حتى نقوم بالفرز المطلوب؟ ينسى المرء إذًا أن الحرب قد لا تدوم أربع سنوات وأكثر، أو ربما لا تمتدّ، في الواقع، أكثر من المعارك الأولى التي اندلعت في آب/ أغسطس عام 1914 وانتهت بتسابق الجيوش حتى بلوغ شاطئ البحر.

شدّدتُ كثيرًا على أهمية عنصر المفاجأة، وينبغي عدم فهم الكلمة إلا في معناها الاستراتيجي البحت. إن أسوأ أشكال الشلل التي تصيب الشخصية العسكرية مصدرُها حالة الذهول والخزي التي توقِع بها، في حربٍ مفاجئة، رجالًا أعدّهم مُعلموهم لمواجهة صورة مختلفة جدًّا عن سير المعارك الدائرة. هذه الصدمة النفسية لم تستثنِ ضباط الجيش. ولم تكن النتائج الكارثية في أيّ مكان آخر أكثر وضوحًا مما كانت عليه في بعض المصالح التي تقع في منتصف المسافة بين الجبهة وعمق الخطوط الخلفية كمصلحة الإمداد، والمناطق، والمقرات الإقليمية. هناك، وكما في كل مكان، توترت بعض النفوس القوية في مواجهة المحنة. لكنني أعرف ضابطًا برتبة قائد موقع في مصلحة الإمداد، خرج مشوّهًا من الحرب السابقة، تطوّع في محاولة لتسهيل مرور مفرزة من الدبابات. حصل ذلك في حين اتّخذ الانسحاب الحتمي في أماكن أخرى، وفي كثير من الأحيان للأسف، طابع الهروب. وفي بعض الأحيان كان الهروب يستبق الأحداث، لسوء الحظ. واضطرّت قيادة الأركان العامة إلى إعادة جنرال كان يقود منطقة عسكرية إلى موقعه بعد أن انسحب من مدينته بحجة أن العدو أصبح على مسافة قريبة من دون تلقّي أمر من القيادة. إنّ مثل هذا الشعور بالضعف، وهو ليس المثال الوحيد على الكارثة، مصدره قصور يستحق التوبيخ بالتأكيد، لكنه يستدعي بعض الشفقة أيضًا. ففي ظروف مختلفة، كان مثل هؤلاء الأشخاص سيدفعون بأنفسهم إلى خط النار بشجاعة وشرف. وأيًّا كان الموقع الذي ألقاهم فيه مصيرهم المحتوم، كان عملهم اليومي امتدادًا لما كانوا يقومون

به في زمن السلم. وما كان المناخ المعنوي السائد سوى امتداد نفسي للغبار المسيطر على مكاتبهم أو قياداتهم، وكأنهم كانوا في كل مكان إلّا على الجبهة لأنّ العدو قلب الوضع بتقدّمه. كانوا جنودًا شرفاء شاب معظمهم وهو يخدم بالزي العسكري، فما هو التفسير الذي لم يُعطَ لهم في حينه بشأن كيفية تحوُّل الصفوف الخلفية، في حروب الحياة والموت، إلى مقدمة الجبهة؟

*

إن أفظع ما في الأمر هو أن هذه الفوضى امتدت إلى دوائر أكثر مسؤولية بكثير. تمكَّن كثيرون منا من ملاحظة التطورات المروّعة التي كانت تظهر يوميًّا تقريبًا لدى بعض الضباط الذين يشغلون أهم المناصب في قيادة الأركان. وكان من بينهم ضباط مكلفون شخصيًّا بقيادة العمليات. كانت أعراض المرض الأولى علامات لا تزال خارجية تمامًا، عيون حائرة ولحى غير حليقة، وعصبية كانت تتحول فجأة، تحت وقع التوتر الناتج من أتفه الأسباب، إلى مظاهر تستحيل معها العودة إلى حالة الصفاء. حين كان يبادر أحد القادة بالقول: «ما الفائدة؟»، عندئذ فليحذرِ الجنود! وبالتالي تحلّ مرحلة المد المتصاعد من اليأس الذي يبدو أنه يدفع إلى نوع من التهاون والفتور، بدلًا من التحفيز على العمل. لم أشعر بمشهد أكثر إحباطًا من الوهن الذي أصاب موظفي المكتب الثالث إلى درجة التجمد في كراسيهم. وبطبيعة الحال كنا نتشبث أحيانًا بأوهام لا تصدّق، خصوصًا عندما يبدو أنّ مبادرة خلاصٍ آتية من طرف آخر من غير قواتنا. بلغت بنا الحماسة أشدّها طول يوم بأكمله في أتيش، ونحن نتخيل جيش إنقاذ قيل إنه كان يتقدم في «زحف سريع»، آتيًا من أراس وبابوم (Bapaume). ثم سرعان ما نال منا الإحباط المضاعف وخارت إرادتنا تمامًا. سمع أحد رفاقي ذات يوم أحد قادة الفيالق في الجيش، وهو يواجه الجنرال بلانشار في لانس بهذه الكلمات: «افعل شيئًا يا جنرال! إفعلْ ما تريد، لكن على الأقل تصرّفْ!». وهذا مثال آخر على حالة الإحباط في المستويات العليا.

أما أنا فقد تناهى إلى مسمعي ما هو أسوأ من هذه الكلمات. لم يكن عليّ أن أسترق السمع حينها بلا شك، وعزائي أن الأمر حدث رغمًا عني،

بسبب عاداتي الليلية. فقد رفضتُ النوم في القبو خلال الحملة بأكملها. ولم يكن ذلك الرفض بدافع الغرور بالتأكيد، بل استند، وبكل بساطة، إلى أساس عقلاني، وإني لأثق في عقلانية حساب الاحتمالات. كنتُ لسوء الحظّ أعاني بشدة داءَ المفاصل، وكانت احتمالات إصابتي بالشلل بسبب ليلة من الرطوبة تصل في تقديري إلى تسعين في المئة. فما قيمة ذلك مقارنةً باحتمال ضئيل بسقوط قذيفة على مقر القيادة؟ والحال هذه، لم يكن من السهل دائمًا بالنسبة إليَّ الحصول على نوم مريح، فقد كنا نستخدم النقّالات بدل الأسِرة منذ كنّا في لانس. أما في قصر أتيش، فلقد وضعتُ نقالتي في مكتبنا في الطابق الأرضي في البداية، لكن التجربة لم تكن مرضية، إذ كان الجنرالات يدخلون الغرفة فيجدونني ويوقظونني من نومي للسؤال عن معلومة أو لأدلهم على طريقٍ أضاعوها في متاهة المعسكر، رغم أني لم أكن في الخدمة لليلتين متتاليتين. وكان من الصعب جدًّا بالنسبة إليَّ أن أجيبهم من دون أن أستيقظ لأقول لهم: «أيقظوا الرفيق المجاور، ليس دوري في الحراسة».

في الليلة الثالثة، أي في ليلة 25-26 أيار/مايو، قررتُ أن أجد لنفسي حلًّا أفضل. كان الطابق الأول يحوي مجموعةً كاملة من الغرف المخصّصة لمن هم أعلى رتبة مني، يفصل بينها ممر طويل يمكن اعتباره شاغرًا. طلبتُ أن يُحمل فراشي إلى أعلى، وحين انتهيتُ من عملي، في وقت متأخر جدًّا كالمعتاد، ذهبتُ للحصول على بضع ساعات من الراحة.

في الصباح الباكر، استيقظتُ على وقْع صوت باب يُغلَق، ثم محادثةٍ بين شخصين. أحدهما كان قد دخل لتوه الغرفة المجاورة ليتحاور مع شاغلها، من دون أن يفكر أيٌّ منهما في خفض الصوت على الأقل. لم أعرف قط من كان الزائر، وربما كان شخصية رفيعة المستوى، فصوته لم يكن مألوفًا بالنسبة إليَّ. لكني في المقابل، تعرفتُ بشكل جيد جدًّا إلى محاوره. كان صوت الجنرال بلانشار بلا أدنى شك، كما أن موضوع الحوار ذاته كان كافيًا لتبديد أيّ شكوك. وهكذا، قادني الحرص على إيجاد مكان مناسب للنوم في الممر، وبعيدًا من تيارات الهواء البارد، ومن دون قصد مني، إلى عتبة الغرفة نفسها التي كان

ينبغي عليّ تجنُّبها. وعندما أدركتُ ما يجري، كان الوقت متأخرًا جدًّا للقيام بأيّ حركة، وكيف لي أن أعترف لهما بأنني سمعتُ بعضًا من حديثهما؟ وأيًّا يكن الرعب الذي انتابني وأنا أفكر في جميع أنواع الأكاذيب لأنقذ نفسي، كان الحل الأفضل في نهاية المطاف هو التظاهر بالنوم، طالما لم يُكتشَف وجودي. واستمر الحوار الذي لم أفهم منه الكثير، ولم أبذل جهدًا لفهمه، بل ربما نسيتُ أغلب ما تناهى إلى سمعي، إلا أني متأكد، ومتأكد تمامًا، من أمر واحد وبيقين لا يزعزعه أيّ شك، أني سمعتُ الجنرال بلانشار يقول، وبهدوء لم أتخيله يومًا: «ما أراه هو استسلام مزدوج». وكنا حينها لا نزال بتاريخ 26 أيار/ مايو ولم تزلْ لدينا الوسائل، إن لم يكن لإنقاذ أنفسنا، فعلى الأقل لنقاتل ببطولة مدةً طويلة، أو بيأس كما في تموز/ يوليو 1918، حين حوصرت جزر المقاومة على خط متقدم على جبهة منطقة شامبانيْ (Champagne)، فاستخدمناها لصد زحف القوات الألمانية. حملتُ هذه الكلمات التي سمعتُها في داخلي خلال الأيام التي تلت، كأنها سرّ ثقيل لم أشأ مشاركته مع أحد. أشعرتني تلك الكلمات بقشعريرة لا أزال أحسّ بها حتى الآن.

لنعترفْ أن هذا التعبير غير الموارب كان في الواقع، ولمرة واحدة، يُظهر الوهم الذي ألقى بظلاله المروّعة على معاناة جيوشنا في منطقة الفلاندر، بل ما هو أسوأ من ذلك، على معاناة جميع الجيوش الفرنسية. «الاستسلام»، هذه إحدى الكلمات التي ينبغي لأيّ قائد حقيقي عدم التلفظ بها، حتى لأوثق معاونيه، بل يجدر به ألّا يفكر فيها بتاتًا. لا يجوز أن يبوح بها للقوّة التي بإمرته، مثلما تقرر لاحقًا، حين أعلن الماريشال[35] الذي نال الكثير من المجد حتى الآن، في 17 حزيران/ يونيو، عزمَه على التماس «وقف النار»، قبل أن يضمن الشروط الضرورية للحصول على ذلك. حين استمع أحد رفاقي الشجعان، مثلي، إلى هذا الخطاب الشهير للأسف، قال لي: «أنا وأنت على حدّ سواء متأكدان تمامًا أننا سنقاتل على الأرجح حتى النهاية. لكننا نشعر أنه سيتعيّن علينا، من الآن فصاعدًا، بذْل مجهود

(35) في إشارة إلى الماريشال فيليب بيتان الذي أعلن وقف إطلاق النار بوجه الغزو الألماني في عام 1940. (المراجع)

شاق حتى نمنع أنفسنا من الاستسلام للغريزة التي ستدفعنا أكثر من أيّ وقت مضى إلى تجنّب التعرض للخطر، إذ ما من فكرة أكثر إزعاجًا من أن يموت المرء في صباح اليوم الأخير من الحرب! أيُّ إرادة تبقّت للجندي العادي الآن ليقاتل بها؟». أن يكون المرء قائدًا حقيقيًّا فهو، قبل أيّ شيء آخر، أن يكون قادرًا على الصمود، وأن يبثّ في نفوس الآخرين تلك الثقة التي لا يمكن أن يمنحها لأحد ما لم يمتلكها في نفسه أولًا. عليه أن يرفض، حتى النهاية، أن يتغلغل اليأس في قدراته، وأن يقبل، أخيرًا، من أجل أولئك الذين يقودهم ومن أجل ذاته في الوقت نفسه، التضحيةَ المثمرة بدلًا من خزي لا جدوى منه. في الماضي، اختار بعضهم طريق الاستسلام، على الرغم من أنهم لم يكونوا أغبياء، كما أنهم لم يجفلوا في مواجهة الخطر الذي هدد حياتهم. لكن التاريخ العسكري لن يذكر هؤلاء بشيء سوى الازدراء. في نهاية أيار/مايو، سمعتُ من أحد الضباط العاملين كلمات رهيبة إذ همس لي: «منذ رأيتُ ما يجري من حولي، فهمتُ كيف شعر دوبون (Pierre Dupont de l'Étang) في بايلن[36] (Baylen)، وبازين (François Achille Bazaine) في ميتز[37] (Metz). لكن ربما كان على بازين أن يخبرنا، إذا ما كان صحيحًا مثلما أثبتته الأحداث اللاحقة، إن لم يكن هذا التخلي النهائي عن بذل أدنى جهد ناتجًا من الإحباط المقترن بروح التحزّب والطموحات السياسية الدنيئة». لذلك، بازين هو من انتصر في عام 1940.

*

كي يتمكن القائد إذًا من الصمود في وجه المحنة، يجب أن يحظَى قبل كل شيء بعقل سليم في جسد غير مرهق. لم يكن بازين مجرد سياسي، بل كان أيضًا رجلًا مرهقًا. إنّ أسباب الانهيار السريع لمحفزات قيادتنا الأخلاقيّة تكمن في ظروف العمل السيئة التي عاناها كثيرون. منذ أيامنا الأولى في مدينة فالنسيان،

(36) مدينة إسبانية جرت فيها معركة في عام 1808، حيث هُزِمت القوات الفرنسية التي كانت بقيادة الجنرال دوبون الذي استسلم بسبب استسلام القوات التي أُرسلت لفك الحصار عنه بشكل مبكّر. (المترجمة)

(37) شهدت معركة ميتز هزيمة الماريشال الفرنسي بازين، حيث استسلم جيشه دونما قتال في مواجهة القوات الألمانية خلال حرب عام 1870 كما تعرف تاريخيًّا. (المترجمة)

حين لم يكن الوضع قد بلغ بعدُ مرحلة الانهيار، على الرغم من خطورته، دبَّ فينا الذعر حينما شاهدنا كثيرًا من الضباط الذين يشغلون مواقع القرارات الأكثر خطورة، وقد فقدوا قدرتهم على النوم. كانوا يتناولون الطعام على عجل، خارج الأوقات المحددة، ويهيمون بلا هدف من مكتب إلى آخر طوال النهار، أو يتقلبون بين قضية وأخرى، من دون أن يتوقفوا لحظات ليفكروا بهدوء في سُبل الخلاص. ربما تصوّروا أنّ المبالغة في إظهار معاناتهم دليل على الجَلَد، أو أن الركض يمينًا ويسارًا قد يوحي بالفعالية. ونسوا أن للمعاناة ثمنًا، وأن من دون جدول زمني جيد التنظيم، لن يكون نشاطٌ مثمر. تعودنا، وبسهولة بالغة، استمرارَ مناخ الفوضى في مقرّاتنا، حتى في أوقات الهدوء، فيما على العكس من ذلك كان من الضروري أن نتدرب بصورة مسبقة على ضبط الوقت، وإن كان ضبطه شبه مستحيل إبَّان المعارك. ومع ذلك وجب السعي الدؤوب في هذا الاتجاه. سمعنا كثيرًا، في الأوساط العسكرية، قصّة خلود الجنرال جوفر، الملقب بالأب جوفر، إلى النوم لساعات قبل المعركة[38]، فهل قلّدناه بأفضل صورة؟

لكن أوجه القصور في الشخصية العسكرية تجد جذورها الرئيسة، كما أعتقد، في مستوى النباهة والإعداد.

في حملتين مختلفتين، ولمرتين اثنتين يفصل بينهما أكثر من عشرين عامًا، سمعتُ ضباطًا تخرجوا في مدارسَ عسكرية، يقولون وهم يتحدثون عن التعليم الذي حصّلوه: «خدعونا في المدرسة الحربيّة». ولا يعود ذلك إلى أن المدرسة قدمت الدروس نفسها في الفترتين. ففي عام 1939 لم يكن قادتنا من أنصار نظرية غرانميزون[39] (Grandmaison) ، ذلك المجرم على حد تعبير أحدهم، في

(38) كان جوفر يردد: انتصرت في معركة المارن في عام 1914 وذلك لأنني نمت ليلتذاك ملء جفوني. (المراجع)

(39) عسكري فرنسي من خرّيجي مدرسة سان سير العسكرية. ولد في عام 1861 وتوفي في الحرب العالمية الأولى في عام 1915. ترقى في الرتب العسكرية حتى وصل إلى رتبة جنرال في عام 1914 بفضل إنجازاته في الحروب التي خاضها في الهند الصينية والجزائر ثم في الحرب العالمية الأولى. ترك مؤلفات عن المهنة العسكرية وحاضر في مركز الدراسات العسكرية العليا في باريس في عام 1911. (المترجمة)

حين أن واضعي استراتيجية 1914 كانوا يعتمدونها. ما من شيء كان يتعارض مع نظرة قادتنا اليوم مثل مبدأ الهجوم بأيّ ثمن، وهو ما كان يستوجب ازدراءَ مفاعيل المدفعيّة الثقيلة وكذلك الدعوةَ إلى غزو المراكز المحصّنة وذلك بحراب البنادق. لكن محتوى الدروس لم يكن مهمًّا في هذا الإطار إنما الأساليب التي لم تتغير بما فيه الكفاية.

بدا النقيب تـ... وكأنه ذو مزاج انتقاديّ، وهو كذلك فعلًا، لكن مزاجه هذا كان مزاج قائد حقيقي. فقد اعتاد انتقادَ «الأفكار العامة» التي اجتهد أساتذة المدرسة الحربيّة في تدريسها. «لا وجود لما يسمى الأفكار العامة»، والعهدة هنا على صاحب المقولة. في الحقيقة، ما أراد تـ... قوله في النهاية، هو أن أيّ فكرة في مجال العلوم الوضعية أو التقنيات ليس لها قيمة في ذاتها إلا بقدر ما تعكسه من صور أو حقائق ملموسة. وما عدا ذلك هو مجرّد تسميات لا تُحيل إلّا إلى ما يشبه الفراغ. وأيُّ أستاذ يعرف ذلك جيدًا، وربما يدرك المؤرخ أفضل من أيّ شخص آخر أن ليس في علم التربية ما هو أخطر من تعليم «الكلمات» بدلًا من الأشياء [كأشياء في حدّ ذاتها]. كما أن ثمة فخًّا أكثر فتكًا في الواقع، وهو أن العقول الشابة تميل كقاعدة عامة إلى الانتشاء بالكلمات والتعامل معها على أنها أشياء. ولأن خريجي المدارس العسكرية يمثّلون على وجه التحديد مثقّفي الجيش ويستمدون من وعيهم لهذا الدور الذي يؤدونه شعورَهم بالتفوق، فقد لمست عند معظمهم حساسية لافتة تجاه الصيغ الكلامية. «كم من المحزن أن تقاتل على أرضك»، هكذا علّمنا قائدنا العقيد الذي تخرّج في المدرسة الحربيّة في عام 1916، وكنا حينذاك نتجه نحو خنادق المغادرة في منطقة السوم حيث لقي حتفه. لكنه أردف بسرعة: «لا يهم! تُعلّمنا الاستراتيجيا أن الشيء الوحيد الذي يهم هو هزيمة جيش العدو أينما كان». وهكذا تبدو محاصيلنا المدمَّرة، ومصانعنا المغلقة، ومناجم المعادن الخام التي تُستخدم لصناعة المدافع الألمانية، كل هذا بلا وزن طالما بقي العقل قادرًا على الاختباء خلف كتيّبات التدريس. يشرح تان[40]، في بضع صفحات لا تزال أهم ما ورد في كتابه الملحمي الرهيب،

(40) إيبوليت أدولف تان (Hippolyte Adolphe Taine) (1828-1893): مؤرخ وناقد وفيلسوف =

كيف أن عبقرية نابليون تكمن، من دون شك، في قدرته الدائمة على اكتشاف الحقائق القابعة خلف الحروف. وأخشى أن يكون الذين خلفوا نابليون اليوم قد فقدوا الكثير من هذا الفن السيادي. ألم يصر بعضهم في مدينة رين في 17 حزيران/ يونيو على الانتشاء بكلمة «موقف» كأنها شراب سحري؟

إن التعليم القائم على التلقين لن يترك إلا آثارًا عابرة، وما يكتسبه المرء بنفسه يسِم ذهنه في المقام الأول. كان كل رؤسائنا أو زملائنا في الجيش طلابًا سابقين مارسوا مهنة التدريس. فمن بين جميع الرياضات التي تُمارس في الجيش، تلقى الرياضة البيداغوجية (sport pédagogique) في الواقع، أكبر إقبال، وهي تقدِّم نموذجًا لشبكة مدرسية واسعة تمتد من النظريات الموجهة للطلاب المبتدئين، إلى الدروس العلمية التي تُقدَّم في مركز الدراسات العليا العسكرية. أنتمي أنا أيضًا إلى هيئة المدرسين، وللأسف، لستُ من بين الأصغر سنًّا، لكن يمكنني أن أقول بارتياح إنه يجب دائمًا أن يؤخذ الحذر بعض الشيء من الأساتذة القدامى. ذلك أنهم يُنشئون لأنفسهم، في سياق حياتهم المهنية، ترسانة كاملة من التراكيب اللفظية بحيث ينتهي الأمر إلى أن تتشبث بها عقولهم، فتصدأ كما تصدأ المسامير. وهم علاوة على ذلك، وكونهم رجال إيمان وعقيدة، يفضّلون، ومن دون انتباه في كثير من الأحيان، المطيعين من تلامذتهم وليس المعارضين منهم. قليلون جدًّا هم هؤلاء الذين يحتفظون بذهنيات مرنة حتى النهاية، وبحسٍّ نقدي متحرر من تحيزاتهم الخاصة بحيث يُفلتون من سلبيّات المهنة هذه. وحين يكون المتلقّي مرؤوسًا بالضرورة، يصبح الخطر أعظم، إذ يتحوّل الإحساس بالتناقض إلى فقدان للانضباط! إن الرتب العليا في قيادة الأركان يشغلها أساتذة متمرسون، أما المكاتب الثالثة فيُختار شاغلوها من بين أفضل تلامذتهم في العادة. ولربما كانت هذه الشروط غير صالحة تمامًا للتكيّف مع ما يطرأ من جديد.

أُدرك أن العاملين في المدرسة الحربيّة يحرصون على أن يتلقّى الطلاب تعليمًا مكثفًا في غير مجال. وقرأتُ فعلًا الكثير من كتيّباتهم المحشوّة بالأرقام،

=فرنسي. وضع كتابًا عن تاريخ فرنسا بعنوان **أصول فرنسا المعاصرة** (*Origines de la France contemporaine*). (المترجمة)

والحسابات الزمنية، وبيانات عن الأسلحة، أو استهلاك الذخيرة أو البنزين، وكل هذا مفيد على الأرجح وهو عمومًا معروف بشكل جيد جدًّا. لكن بجانب ذلك كله كان هناك نظام كريغسبيل[41] (Kriegsspiel) الرهيب الذي لا غنى عنه. وحين نرى هؤلاء الأساتذة والتلامذة وهم يحركون الوحدات على الخريطة، مستعينين بالأسهم المتعددة الألوان، نتساءل كم يحتاجون بعدُ من خيال موهوب ليبقوا متنبِّهين دومًا إلى الحقائق الكامنة وراء هذه العلامات، مثل المسار المرهق الذي تخوضه الوحدات، والحوادث المتعددة على الطرق، والقصف، والتأخير الخارج عن الإرادة، وتأخر مواعيد تقديم العشاء، وتعثّر ضابط الاتصال الذي يضل طريقه، أو مشكلة القائد الذي يفقد أعصابه؟ ما هي الجهود العقلية المضنية التي يجب بذلُها لمعرفة ما هو غير متوقع، أي معرفة العدو في المقام الأول؟

لكن هذا العدو كان بالطبع مخربًا حقيقيًّا للاستراتيجيا المعتمدة، ولم يكنْ أحد ليتوقّع ما سيفعله بصورة مسبقة من أجل إعداد الردّ الملائم. لسوء الحظ، في هذه الحرب، ومثلما حصل في آب/ أغسطس 1914 أو قبل هجوم الجنرال نيفيل (Robert Nivelle) في ربيع عام 1917، لم يتصرف العدو، الذي لم نكن نعرفه مطلقًا، كما كان متوقعًا. ولا أتصور أن الخطأ يكمن بالضبط في عدم كفاية عنصر التوقع، بل إن التوقعات التي وُضعت كانت على العكس من ذلك غنية بالتفصيلات. ما حدث هو أنها لم تكن تُطبَّق، في كل مرة، إلّا على عدد قليل من الحالات الطارئة. يعلم الله أنّ «مخطط ديل»[42] كان مُتقنًا! وبالنسبة إلى دوري المتواضع في هذه المناورة، فلو لم أُحرق

---

(41) باللغة الإنكليزية war game أو لعبة الحرب، وهي لعبة ابتكرها الألمان في القرن التاسع عشر كأداة لتدريب جنودهم. تقوم لعبة الحرب مقام نظام للتدريب بلاعبين متحركين، وقواعد محدّدة، وأشكال مختلفة، وحلقات متتالية أو مباريات، ترتكز في مجموعها على محاكاة ميادين القتال. اكتملت الصورة الأولى للعبة في عام 1924. (المترجمة)

(42) إنها الخطة الاستراتيجية التي أعدتها القوات الفرنسية في بداية الحرب العالمية الثانية، والتي تستند إلى التدخل العسكري في بلجيكا في حالة غزو القوات الألمانية تلك البلاد. وقد شكلت بلجيكا منطقة عازلة في كل الحروب الفرنسية – الألمانية. (المترجمة)

سجلات محفوظاتي، لكنتُ تحدثتُ كيف كان عليّ تنظيم الإمدادات بالبنزين إلى بلجيكا في اليوم التاسع من الغزو. لكن وللأسف! لم يكن قد تبقّى لي، ولسبب وجيه، أيّ مستودعات في بلجيكا في ذلك اليوم، ولا أيّ مستودعات تقريبًا في الخطوط الخلفية. لقد اعتدنا في مدارس زمن السلم الاعتمادَ المفرطَ على دروس المناورة، وعلى نظريات التكتيك المدوّنة على الورق، وبعبارة واحدة، كان الاقتناع راسخًا، من دون شك، أن كل شيء سيحدث كما هو مكتوب. وعندما رفض الألمان أن يلعبوا اللعبة وفقًا لقواعد المدرسة الحربيّة، ساد الاضطراب وضاع الردّ، مثل خطيب سيّئ يخضع للاستجواب فلا يجد ما يقوله. ونتيجة لذلك ظننا أن كل شيء قد ضاع، فتخلّينا عن كل شيء لأن قيادة العمل التي كانت تمسك بتلابيب العقيدة أو الكلمة المكتوبة، لم يتبقَّ لها موارد إلا عالم الواقع، والقرار، والارتجال، وهي موارد لا يستطيع أيُّ تعليم فوقي تدريبَ الأذهان عليها.

هذا المضمون الملموس إنما تستمده الاستراتيجيا، كما تُدرّس عادة في جميع البلدان، من التاريخ. ولأنّ لا غنى لها عنه، فإنها لا تنجح دومًا في الحصول عليه. وكيف للأمر أن يكون خلاف ذلك؟ فالفن العسكري ينتمي إلى نوع من التقنيات التي يُحظّر فيها التجريب المباشر. فليس على صانع السيارات، إذا تصوّر فكرة عن سيارة جديدة، إلا بناء نموذج لقياس أدائها. في المقابل، ماذا لو سعى أستاذ في علوم القتال إلى امتحان السلوك المحتمل لجيشيْن من النوع نفسه، في ساحة المعركة؟ لكان تعيّن عليه دعوة عشرات الآلاف من الرجال، وتزويدهم بالسلاح، ثم تنظيمهم وفق ما يراه، وإجبارهم على الاقتتال. طبعًا هناك مناورات حربية ضخمة بالفعل، لكن لأن القتل فيها ليس هو القاعدة، فإن هذه «الحروب الصغيرة»، كما كانت تسمى في الماضي، لا تقدّم إلّا مثالًا لا يشبه في أيّ حال الحرب الحقيقية، وهي أحيانًا لا تعكس، كما نعلم، إلا صورة مشوهة وغريبة عنها. لا عجب أن في مثل هذه الشروط، يجب الرجوع إلى أمثلة الماضي التي هي أيضًا تجارب حيّة بالنسبة إلينا.

هل يعود القصور في إعدادنا الاستراتيجي إلى تدريس مادة التاريخ؟ ويتساءل بعضهم عن هذا الموضوع بشكل آخر: «أنعتبر أن التاريخ هو ما خدعنا؟». بعد هزيمة مربكة، وذلك خلال الساعات الأخيرة من وجودنا في منطقة النورماندي، فاجأني هذا التشكيك الصادر عن ضابط شاب تخرّج لتوه في المدرسة الحربيّة، فإن كان يقصد بذلك إلقاء الشك على تدريس مادة التاريخ المزعوم التي تلقّاها، فهو على صواب، لأن هذا التعليم لم يكن بالفعل تعليم التاريخ، بل على عكس ذلك كان منافيًا للحقيقة.

فالتاريخ في جوهره هو علم التغيير. إنّه يَعلَم ويُعلِّم أنّ أيّ حدثيْن لا يتشابهان أبدًا في ظروف حدوثهما، لأن الظروف لا يمكنها أبدًا أن تتطابق. وهو علم يدرك، ولا شك، أنّ تطور الإنسان يقوم على عناصرَ، إن لم تكن ثابتة، فهي على الأقل دائمة. كما أنّه يرى في الوقت نفسه أن هذه العناصر تتداخل في توليفات متنوعة إلى ما لا نهاية. وهو يعترف حتمًا بوجود نمط من التكرار من حضارة إلى أخرى، وإن لم يكن من سمة إلى أخرى، وهذا على الأقل في خطوط التطوّر الكبرى، ليلاحظ بعد ذلك أن الظروف الرئيسية كانت متشابهة على كلا الجانبين. ويمكن التاريخ أن يحاول توقُّع المستقبل، وأنا أعتقد بإمكان ذلك، لكن دروسَه لا تعني أن الماضي يعاود الحدوث مرة أخرى وأنّ ما كان بالأمس سيكون غدًا. بل يمكنه، من خلال البحث في كيفية اختلاف الأمس عمّا قبله وأسباب ذلك، اكتشاف وسيلةٍ للتكهّن بالطريقة التي سيختلف بها الغد بدوره عن الأمس عبر هذه المقارنة. وفي البحوث التاريخية، ليست الخطوط التي ترسمها أحداث الماضي مستقيمة كليًّا، بل هي منحنيات تمتد في الزمن حيث لا يسود اليقين. لا يملك علم التاريخ، بسبب طبيعة موضوعه، حريةَ التعديل في عناصر الواقع، كما هو الحال في التخصصات التي تقوم على التجريب. فالتاريخ يكتفي بالملاحظة والتحليل كأدوات، لغرض الكشف عن العلاقات التي تربط بين الظواهر على الرغم من وجود اختلافات عفوية في العوامل المؤدية إليها، ليصل من خلال ذلك إلى أسباب الأشياء وتحوّلاتها. التاريخ هو، في كلمة واحدة، علمٌ تجريبي أصيل لأنه علمٌ يمكنه النجاح تدريجًا، من خلال دراسته للحقائق وتفكيكها بفضل إعمال العقل والمقارنة،

في اكتشاف العلاقات المتبادلة بين السبب والنتيجة. فعالِم الفيزياء لا يقول إن «الأكسجين غاز لأننا لا نراه من حولنا إلّا كذلك»، إنما يقول: إن «الأكسجين يتمظهر في حالة غازية في ظل شروط معينة في درجة الحرارة والضغط، وهي أكثر العناصر شيوعًا من حولنا». وبالطريقة ذاتها، يعرف المؤرخ جيدًا أنه إذا حصلت خلال الفترة الفاصلة بين حربين متتاليتيْن، تحوّلاتٌ في الهيكل الاجتماعي، وفي التقنيات، وفي طرائق التفكير، فإنها لن تؤدّي أبدًا إلى النمط عينه من الحروب.

لكن تعليم التاريخ، كما يدرّس دومًا في المدارس العسكرية، يواجه اتهامًا رهيبًا يعكسه هذا الاستدلال البسيط الذي لا يمكن دحضه: أكّد هذا التعليم للقادة العسكريين في عام 1914، أن حرب عام 1914 ستكون تمامًا على غرار الحرب التي خاضها نابليون. أما بالنسبة إلى قادة عام 1939، فقد أكد هذا التعليم أن حرب عام 1939 ستشبه حرب عام 1914. قرأت في ما مضى محاضرات الماريشال فوش الشهيرة، تلك التي ألقاها قرابة عام 1910، إن لم تخنّي الذاكرة. ونادرًا ما أصابتني قراءة شيء ما بمثل هذا الهلع. ففيها خضعت المعركة النابليونية لتفكيك مثير للإعجاب بالتأكيد، لكنها استُعمِلت أيضًا كمثال يُحتذى بقطع النظر عن التغيّر الحاصل في الأزمان. ولا أنكر أنّ فيها بعض الملاحظات المتناثرة هنا وهناك تتحدث عن اختلافات في التسلح أو الإعداد لساحة المعركة، فهل هذا كافٍ؟ كان ينبغي، قبل تقديم أيّ وصف للحرب، التحذير بالقول: «حذار! إنّ المعارك التي ستوصَف بعد قليل وقعت في بلدان كانت طرقُها أكثر تباعدًا مما هي عليه اليوم، ووسائل النقل فيها كانت بطيئة كأنها في القرون الوسطى. وقد جرت بين جيوش كانت قوةُ نيرانها ضئيلةً مقارنةً بما نملكه اليوم من أسلحة، في قتال كان يعتمد على حِراب البنادق، لأنّ الرشاشات والأسلاك الشائكة لم تكن قد اختُرِعت بعد. وإذا ما استطاع القارئ، على الرغم من ذلك كله، أن يستقي بعض الدروس من قصص هذه المعارك، فسيكون ذلك مشروطًا بأن يتذكّر دائمًا أن ظهور هذه العوامل الجديدة التي لم تكن موجودة في التجربة القديمة، إنما يُفقدها كل قيمة». أعترف بأنّني لم أقرأ الكثير من الأعمال أو المؤلفات التي تركها

أخلاف الماريشال فوش الحاليين، لكن النتائج وحدها تؤكد لي أن طرائق التفكير لم تتطوّر.

ثم حدث أن صار قياديّو عام 1914 هُم أنفسهم قياديّي عام 1918، وقد تمكّنوا، على الرغم من الكثير من الأخطاء المُدمِية، من تعديل الخطط العسكريّة وتكييفها مع الواقع الجديد. كان الجنرال غورو (Henri Gouraud) أستاذًا متحمسًا وعبقريًّا، وفي بداية عام 1918، قدّم أمام عدد من الضباط وأنا من بينهم، عرضًا لفرقتين من المشاة: إحداهما مسلّحة على نمط عام 1914 وتتحرك وفق الزمن نفسه، والأخرى، كانت من نمط جديد في تكوينها وتسليحها وطريقة حركتها. فكان التباين بينهما لافتًا. كان ذلك مجرد مثال من داخل القاعدة فقط، لأن التحول طاول سير الحرب برمتها تقريبًا. فكيف يُعقل إذًا أنّ قادتنا في عام 1940 كانوا أقل قدرة على الاستفادة من الدروس؟

لا شك في ضرورة أن نأخذ في الحسبان الفرق الشاسع في المهل؛ إذ كيف يمكن لحرب قوامها السرعة أن تمنح متسعًا من الوقت يكفي لإصلاح الأخطاء التي ارتُكبت في بدايتها؟ ذلك أن هيئات الأركان خلال فترة 1914-1918، كان لديها أربع سنوات من الزمن لتغيِّر طرائقها، في حين لم نحظَ نحن، في عام 1940، إلا ببضعة أسابيع. كنا نحتاج إلى عبقرية فَذّة لتحقيق التحوّل المنشود في خضم المعارك، في حين لم تكن حالة المعدات لتسمح باكتماله. وكان ينبغي، والحال هذه، استخلاص البيانات الجديدة المتعلقة بالمشكلة الاستراتيجية قبل وقوع الحدث. في الواقع، يصعب على معظم الرجال التكيُّف المسبق مع حقائقَ تمَّ توقّعها وتحليلها نظريًّا فقط. فهذا المنهج يشكّل لأكثر الناس تمرينًا ذهنيًّا بالغ الصعوبة بدل محاولة تكييف عملهم شيئًا فشيئًا بناءً على وقائع يبصرونها مباشرة.

على الرغم من ذلك، لا تفسّر هذه الملاحظات كل شيء ولا تمدنا بالأعذار الكافية، لأنه وباختصار، ليس مفروضًا بنا جهل كل شيء عن أساليب الجيش الألماني وعقيدته العسكرية في مرحلة السلم. فنموذج الحملة البولندية على وجه الخصوص كان ماثلًا أمام أعيننا منذ صيف ذلك

العام، ودروسُه كانت واضحة بما فيه الكفاية، مع احتمالات كبيرة بأن الألمان سيكرّرون حملة مماثلة باتجاه الغرب. كما أنهم منحونا أيضًا ثمانية شهور من الانتظار، تلك الهديّة التي كان بالإمكان استغلالها للمذاكرة والإصلاح، فلماذا إذًا لم نستفد من ذلك كله؟ لا بد هنا من إدراج عامل إنسانيّ ونفسيّ كانت له أهميته البالغة. فمن هم قادتنا في عام 1940؟ هم جنرالات جيش، أو جنرالات في فيالق الجيش، خدموا خلال الحرب العالمية الأولى في رتب رؤساء كتيبة أو عقداء. ومن هم مساعدوهم الرئيسيّون؟ هم عسكريون خدموا برتبة رائد في عام 1918. وجميعهم ظلوا، وبدرجات متفاوتة، تحت وطأة ما يذكرونه من الحرب السابقة. فكيف نستغرب تصرّفهم هذا؟ هم لم يكتفوا بتلاوة خبراتهم المجيدة هذه، وكتابتها مرارًا وتكرارًا، وباستخلاص مادة دراسية منها فحسب، بل إن هذه الخبرات حُفرت صورها في وعيهم بقوة كما عايشوها في شبابهم. فكانت تتألق ببريق النظر الذي شهدته أعينهم، ورنينُها ما زال يهتز ليؤثّر في أعمق مناطق العاطفة من ذاكرتهم. وهذا الحدث، الذي رأى فيه الآخرون مجرّد مثال جاف يُستدعى في دروس الاستراتيجيا، لم يكن بالنسبة إليهم، كما بالنسبة إلينا جميعًا نحن قدامى المحاربين، سوى تلك الأحاديث التي لا تُنسى عن تحدّي الخطر بشجاعة وعن الزميل الذي يقع صريعًا بقربك، وعن الغضب الذي ينتابك بسبب تلقّي أمر في غير محلّه وعن حالة النشوة التي تعتريك أمام مشهد عدوّ يتقهقر. كان كثيرٌ منهم، في عام 1915 أو 1917، على رأس وحداتهم للهجوم على خنادق لا تزال جاهزة للمواجهة. وحين كانوا يغلقون أعينهم، يبصرون أجساد جنودهم وقد أُمطرت بوابل من المدافع الرشاشة على الأسلاك الشائكة. أما في هيئات الأركان، فكان إسهامهم في إعداد عمليات محنكة وبطيئة قُدّر لها قيادة النصر ذات يوم، مثله مثل الغارة على هضبة مالميزون، التي شكّلت محاولة تكتيكيّة جديدة، كما الصمود الثابت الذي أبداه جيش غورو في 15 تموز/يوليو 1918. بيد أنهم، وبسبب التعليم الذي تلقّوه أو كانوا يُلقنونه، لم يكونوا جاهزين ليفهموا، بفطرتهم الخاصة، أن ثمة قانونًا لا يُقاوَم هو قانون التغيير. فأيُّ قابلية نادرة للتعلم كانوا بحاجة إليها ليتخلّصوا مما رأوه أو سمعوه من

خبرات الماضي؟ إن كل شيء، على العكس من ذلك، جعلهم يتصورون أن الانتصار في الحرب الجديدة يتطلّب تجنُّب الأخطاء التي كادت تؤدي إلى خسارة الحرب الفائتة، وكذلك الحاجة الضروريّة إلى تكرار الأساليب نفسها التي ضمنت النصر أولَ مرة. في شهر شباط/فبراير كتبتُ إلى صديق لي أقول: «ثمة أمر واحد مؤكد، هو أنه إذا ارتكب قادتنا أخطاء ما، فلن تكون على غرار غزوات شامبانيْ أو الجنرال نيفيل». للأسف! إن مجال الأخطاء المرتكَبة لا حدود له، وما اعتبرناه بالأمس حكمة وحسن تقدير، قد يصير غدًا قلة إدراك.

ما من شك في أن غواية الماضي كانت أقل تأثيرًا في الأذهان التي لم تتصلب بعدُ بفعل عامل السّن. وقد لاحظتُ، بوضوح متزايد مع مُجريات الحملة، أن ضباط الأركان اليافعين الذين لم يشارك معظمهم في الحرب الفائتة، كانوا عادة أصفى بصيرة من قادتهم. أما الطلاب المجتهدون الذين يشغلون، لسوء الحظ، أكثرَ المناصب تأثيرًا، فقد ظلوا في الحقيقة أوفياء عنيدين للمذاهب التي تلقنوها. وللأسف كان هؤلاء يشغلون أكثر المواقع العسكرية تأثيرًا. في المقابل بدأ كثرٌ آخرون، على الرغم من ولائهم السابق لأساتذتهم، بالتخلص من العوائق الفكرية التي صاروا ينتقدونها بشدة. وحتى الضباط الأكثر نضجًا في صفوف قدامى المحاربين من عام 1914 أو 1918، والذين لا يزالون شبانًا، أبدى بعضهم قابلية للتجدّد. إنّما ما حدث للأسف هو أن قادتنا كانوا من المسنّين.

إن معايير الترقي في زمن السلم، التي مَنَحت من هم في الأربعين من عمرهم رتبَ رؤساء كتائب، منحتْهم وهم في الستين من العمر رتبَ جنرالات. وكما يحدث عادة، فإنّ هذه الشخصيات المسنّة، بما تحمله من نياشين الشرف، والمجد القديم في نظر بعضهم، نسيت تمامًا أنها كانت في عمر الشباب زمنَ مآثرها الماضية، وصار شغلها الشاغل إعاقة الطريق أمام الأصغر منها سنًّا. ثمة قانون لم يحظ كفاية بالاهتمام العام، سُنّ قبل الحرب بمدة وجيزة، أُضيفت فيه إلى التراتبية العسكرية رتبتان جديدتان. فلمدة

طويلة، لم يكن في الجيش رتبة أعلى من رتبة جنرال فرقة. إلا أن مذكرة إدارية لا غير، تُمنح بناءً على تقدير من الحكومة أو من هيئة الأركان العامة، كانت كافية لتحديد صلاحيات الضباط ذوي الرتب الرفيعة، بحيث يمكن تأهيلهم لقيادة جيش، أو حتى مجموعة الجيوش، أو فيلق من الجيش، أو فرقة منه. فهل ثمة ما هو أفضل من هذه الجنة الفعلية التي تتيح، والحال هذه، الوصولَ إلى قمة العرش من دون المرور بعدد كبير من الدرجات؟ ثم قُرّر في أحد الأيام أن منصب جنرال في الجيش أو في فيالق الجيش، الذي كان حتى الآن مجرد وظيفة، سيتحول إلى رتبة. ربما بدا أن الأمر يتعلق بمجرد إرضاءٍ بريء لرغبة بعضهم في الحصول على مزيد من الاحترام والشعور بالتميّز. لا وألف لا! ذلك أنه عندما تختلف الرتب، يقضي الانضباط بأن ينال شاغل المستوى الأعلى بحقّ تولّي القيادة، وهذا أمر مفروغٌ منه، ويعني أنه، من الآن فصاعدًا، سيستحيل حصول القادة الشبان في الأقسام الفرعية على ترقية إلى قائد جيش على سبيل المثال، ما لم يُرقّوا أولًا، وشكلًا، إلى رتبة جنرال في فيالق الجيش، ذلك أنه حين يتولى الجنرال رئاسة وحدته الجديدة في الرتبة الأولى سيصبح تحت قيادته، بحكم التعريف، مرؤوسون من الرتبة الأدنى. أضف إلى ذلك أن الانتقال من رتبة إلى أخرى يخضع، بطبيعة الحال، للوائحَ أو ممارسات تجعله أبطأ وأصعب بكثير من مجرّد تغيير في الوظيفة. ترقّى أعضاء المجلس الأعلى للحرب جميعهم إلى أعلى الرتب من خلال هذا الإصلاح الذي كانوا هم مصدرَه بلا شك، ولمصلحة الرتب الجديدة لجنرالات الجيش، وبذلك تسنّت لهؤلاء فرصةُ الاستمرار أبدًا في مناصبهم، ومهما حدث في قيادة أمة على أهبة الحرب. في الحقيقة، لو طُبِّق هذا النظام في الحرب الفائتة، أشك في أننا كنا سنرى ضابطًا برتبة مقدم أول في عام 1914، ويُدعى دوبُنيه (Marie-Eugène Debeney)، يقود الجيش الأول نحو انتصارات مونديديه (Montdidier) وسان كنتان في عام 1918. ولا كان العقيد بيتان - ذاك الذي عرفناه في شبابنا - سيترقّى ويجتاز المراحل، ويحصد الدرجات المجيدة، ليتبختر أخيرًا، في صباح أحد أيام الصيف المشرقة، تحت قوس النصر (l'Arc de Triomphe)، في الصف الأول من القوات الفرنسية برمتها.

إذًا، هل كان لنا حين أدركنا، ومنذ الإخفاقات الأولى، أنّ قيادتنا العليا ربما تستحق بعض اللوم، أن نتساءل من هم القادة الشبان الذين طُلب إليهم أن يمدّوا هذه القيادة بالوسائل التي من شأنها أن تُعيد إليها بعض القوة؟ وُضع رئيس أركان في إحدى القيادات العامة في الحرب الفائتة على رأس قيادة الجيوش، واختير جنرال آخر من هذه القيادات العامة مستشارًا تقنيًّا للحكومة. الأول شغل منصب نائب رئيس المجلس الأعلى، والثاني شغل، في الوقت نفسه، منصب وزير الحرب. وكلاهما كان في ما بعد، وبهذه الألقاب، مسؤولًا بقدر كبير عن الأساليب التي تفتّقت عن كل النقائص التي شهدناها. ثمة أشياء كثيرة كانت لا تزال مهيمنة على النفوس في الأوساط العسكرية وحتى بين حكامنا المدنيين، مثل أسطورة العمر، واحترام المكانة. ومع ما تستحقه هذه المكانة من وقار طبعًا، ربما كان ينبغي، للحفاظ على استمرارها على الأقل، أن تُلفَّ بإجلال في كفن إلهيّ بلون الأحمر الأرجوانيّ. ثم أخيرًا، كان الاعتقاد الكاذب بخبرة تؤدي، وهي تستمد دروسَها من الماضي، إلى فهم خاطئ للحاضر. أكبر مثال على ذلك أن ضابطًا شابًا برتبة عميد قد عُيّن عضوًا في الحكومة، فماذا سيفعل شخص مثله في مجالس الحكومة؟ لستُ أدري. أخشى حينها أن النجمتين المعلقتين على كتفه كانتا بلا وزن وسط كل تلك الكواكب. ولكانت رفعته لجنة الخلاص العام[43] (Comité de Salut Public) إلى منصب قائد أعلى للجيش. لقد ظلت حربنا، حتى النهاية، حربًا يقودها أشخاص مسنّون، أو أصحاب نظريات فُهمت بصورة عكسية، وأدّت إلى أخطاء تاريخيّة. هذه حرب اخترقتها رائحة العفن المنبعثة من المدرسة الحربيّة، ومن مكاتب هيئات الأركان في زمن السلم، ومن الثكنات. إنّ العالم ملك لمن يحبون الجديد، لذلك، عندما واجهت قيادتنا هذا الجديد من دون أن تملك القدرة على تلافيه، لم تعانِ من جرّاء الهزيمة فحسب، بل تقبّلتها كما يتقبّلها الملاكمون المثقَلون بالوزن حين يقعون بفعل أول ضربة غير متوقَّعة.

---

(43) لجنة أُسست أيام الثورة الفرنسية للدفاع عن مكاسب هذه الثورة بوجه الجيوش الأجنبية الغازية. (المراجع)

إنّ قادتنا ما كانوا ليرضخوا لهذا الإحباط بمثل هذا القدر من الرضى عن النفس، وهو واحد من أسوأ خطايا الحكمة، لو أنهم وثقوا بمواهبهم الخاصة. لكنهم كانوا مهيّئين في أعماق قلوبهم، ومنذ وقت مبكر، لفقدان الأمل في البلد الذي كان عليهم الدفاع عنه، وفي الشعب الذي كان يزوّدهم بالجنود. وهنا علينا أن نغادر المجال العسكري، لنبحث بعيدًا في العمق عن جذور سوء فهم خطير جدًّا، هذا إن لم نضطر إلى اعتباره أحد الأسباب الرئيسة للكارثة.

الفصل الثالث

فرنسيّ يفحص ضميره

ليس مِنْ هيئة مهنية، في أيّ أمة من الأمم، تُعتبَر مسؤولة بالكامل عن أفعالها؛ إذ يتطلب تحقيق مثل هذا الاستقلال الأخلاقي أن يكون التضامن الجماعي على قدر كبير من التلاحم. استعملت قيادات الأركان في عملها الأدوات التي وفرتها لها البلاد وعاشت في مناخ نفسي لم تكن مسؤولة عن تكوُّنه. كانت هي نفسها من صنع الأوساط الإنسانية التي انتمت إليها ونتاجَ الشروط التي سمح بها المجتمع الفرنسي. لذلك، لن يبقى جندي نزيه مكتوف اليدين خلال الهزيمة من دون أن يعتبر ذلك [السكوت] بمثابة خيانة بحق الوطن، لذلك كان أن بذل كل ما بوسعه ليذكر بحسب تجربته الشخصية، ما ظنّ أنها رذائل القيادة العسكرية وما ارتكبته. فالإنصاف يقضي بأن تتعدى شهادة الجندي هذه إلى شهادة مواطن فرنسيّ يفحص ضميره.

لستُ سعيدًا في الواقع بالتطرق إلى هذا الجزء من مهمتي، إذ سأُضطرّ كفرنسي إلى الحديث عن بلدي في حين أنّه ليس كلّه جيدًا، ومن الصعب التحري عن نقاط ضعف الوطن الأم المفجوع. وكوني مؤرخًا يتاح لي أن أدرك، أفضل من أيّ شخص آخر، صعوبات تحليلٍ يقتضي العودة - لكي لا يبدو ناقصًا جدًا - إلى تشعّبات سببية قديمة جدًّا وشديدة التعقيد، وفي حالة العلوم الإنسانية اليوم، أكثرها احتجابًا. فما همّ الوساوس الشخصية الصغيرة في هذه الحالة؟ كيف لا ألام من أبنائي الذين سيقرأون هذا التقرير أو من أصدقائي المجهولين إن وقع هذا التقرير بين أيديهم. نعم كيف لا ألام وقد يبدو تقريري هذا تلاعبًا بالحقيقة وغضّ نظر عن بعض الأخطاء التي شارك فيها كل مواطن فرنسي وأنا الذي ركّزت أحكامي القاسية على أخطاء وأهملت أخطاء أخرى؟

*

نادرًا ما يكون المقاتلون في الصفوف الأمامية راضين عن زملائهم المتواجدين في الصفوف الخلفية. لا بد من قلب كبير ليتحمل المرء، وهو ينام في ظروف قاسية، أن ينعم رفقاء الأيام الخوالي بالنوم على أسرّتهم الناعمة. كما لا بد للمرء من أن يشعر بالمرارة وهو تحت وابل الرصاص في حين أن الأمن يعمّ المناطق التي تعجّ بالدكاكين التي لا تخلو من الزبائن، وبالمقاهي الهانئة بسحرها في الداخل، حيث شرفاتها البعيدة من خط النار لا تعرف عن الحرب غير تأملات استراتيجية. هل انتهت المعركة إلى كارثة؟ إن حصل ذلك يقع الشرخ بين جزأي الأمة وقد يستمرّ طويلًا. فالجندي الذي يعي تضحياته الخاصة، يرفض أن يتحمّل شخصيًّا مسؤولية عدم جدوى تلك التضحيات. أما قادتُه الذين كانوا يخشون محاسبته لهم، فكانوا يدفعونه إلى البحث عن الذين تقع عليهم المسؤوليّة في أيّ مكان آخر خارج الجيش. وهكذا تولد الأسطورة الوخيمة التي تروّج [فكرةَ] طعنة في الظهر، أسطورة تعبّد الطريق إلى النهوض المعكوس والانقلابات، وحالات النهوض الارتداديّ. وقد أثبتت الصفحات السابقة بإسهاب أن جميع الجنود القدامى الذين خدموا في عام 1940، ليسوا على استعداد للاستماع إلى مُحْدِثي الفِتن هؤلاء. إنما لا بدّ من الاعتراف بأن الخطوط الخلفية تتحمل الكثير من المسؤولية.

هل كان ثمة خطوط خلفيّة، أو بالأحرى، هل كان ممكنًا إقامة خطوط خلفية كهذه بالمعنى الذي نفهمه تلقائيًّا اليوم؟ خلال حرب 1915-1918 [1914-1918]، كانت خريطة فرنسا المجنّدة تتألف من خطوط عدة من الأراضي متراصفة الواحدة تلو الأخرى. ونسبة إلى تدرُّج الخطر فيها، كان كلٌّ منها يُميَّز بلون خاص. المنطقة الأخطر في الجبهة تأتي في المقدمة، والصحيح أنها كانت غير ثابتة، وكان الاعتقاد السائد أن خط التراجع يكون رهيبًا لو انتقل من حدود سان كنتان إلى ضواحي نوايون (Noyon)، وهو ما يشكّل مسافة نصف ساعة بالسيارة. هذا مع العلم أن المنطقة نصف الخلفيّة (demi-arrière) التي تمتد على مسافة عرضها ضئيل نسبيًّا، كانت تتألف من مجمعات الاستراحة ولم تكن بعيدة جدًّا من موقع الخطر. وأخيرًا، كانت هناك الخطوط الخلفية الممتدّة إلى ما لا نهاية مع ما تحمله من أمان الحقول والمدن. ولا شك في أن هدوء هذه الملاذات

الهانئة كان يتعكّر للحظات، بفعل إنذار مفاجئ وفاضح قد ينطلق من حين إلى آخر، كأنْ يحلّق طيار في سماء باريس، أو أن يُلقي منطاد بقنابله، أو أن يرمي بيرتا (Bertha) [المدفع الثقيل] قذائفه بشكل مفاجئ، فتطال حوض حديقة عامة أحيانًا، أو تُصيب أحد أعمدة كنيسة بصورة أكثر دقة، أحيانًا أخرى. لقد كنا نرتعد في خنادقنا حين نفكر في سلامة عائلاتنا. وهل كانت هذه بذكريات تُذكر إذا ما قورنت بذكريات أقرب حضورًا؟

إنّ القصف بالطائرات وحرب السرعة خلقا البلبلة في هذا الترتيب الخاص لمفهوم المخاطر؛ إذ لم تعد السماء خالية من التهديد، والتهمت قوةُ تغلغلِ العناصر الآلية مفهوم المسافة. في دقائق قليلة، لقي المئات من الأشخاص مصرعهم في مدينة رين في منطقة بريتانيا حيث كان يمكن الاعتقاد، بالأمس القريب، أنها كانت أكثر أمنًا من قلب أميركا. وتعرضت طرق منطقة بيري (Berry) لوابل من الرصاص لم يفرّق بين جندي وصبي. هل كانت هذه الفظائع جديدة تمامًا كما اعتقد بعضهم؟ من المؤكد أن القاذفة المجنحة، ككارثة مدمرة، ليس لها سابقة في قوتها ولا في سرعتها خصوصًا، لكن لم يغب عن ذاكرتنا، بعد تلك الحقب من التاريخ، ما خلّفته الحروب، أكثر مما كانت تفعله في صفوف المقاتلين، من أعداد هائلة من الضحايا في الأرياف وقد أرهقها الجوع والنهب، أو على طول الشوارع في المدن المنهوبة. وحدهم من يُحسنون تدارس الماضي سيتذكرون ذلك. إنّ الماضي القريب هو، بالنسبة إلى الرجل العادي، شاشةٌ مريحةٌ تخفي عنه الأحداث البعيدة واحتمالات تكرارها المأساوية، فما أبعد تلك الفترات الوحشيّة حين لم يكن المقاتل وحده يقع ضحيّة الحرب! وفي العمق الداخلي، كما هي الحال في مكاتب الإدارات أو الحاميات، ساد الاعتقاد أن ثمّة تمييزًا بين الجنود والمدنيين.

بيد أنّ أسبابًا وجيهة كانت تدعو إلى الشك في صحة ذلك، وربما لم يرغب الناس في تصديق الأمر في أعماقهم، فقد صدر ما يكفي من التحذيرات. أوَلم يكن كافيًا ما كنّا نشاهده من تلك الصور البشعة عن دمار إسبانيا في صالات السينما؟ ألم تخبرنا بما فيه الكفاية تقارير صحافية متلاحقة عن مأساة

المدن البولندية؟ فبشكلٍ ما كنا على علم كافٍ بالأمر. لم أزل واثقًا من أن الدعاية التي أطلقها العدو كانت على علاقة بالإصرار الماكر منه على خطورة القصف الجوي. وربما كان من الممكن الدفاع عن باريس، ومن دون أن تعيق أوهام «المدن المفتوحة»[1] سير العمليات، لو تمثّل الرأي العام في وعيه مصير مدريد، أو نانكين [نانجينغ] (Nankin/Nanjing)، أو وارسو، بانتباه أكبر على الأقل. لقد تم التهويل علينا بما يكفي لنشعر بالخوف، لكن ليس بالقدر الكافي، ولا بالشروط التي كان من شأنها الدفع بالشعور العام إلى تقبّل أمر لا مفر منه، وليوافق، في ظل الوقائع الجديدة أو المتجددة للحرب، على إعادة صوغ ما يشعر به المدنيون.

هذا الحديث لا يجعل مني شخصًا عديم الرحمة. ربما جعلتني المشاهدُ التي فرضتْها عليّ حربان متتاليتان قاسيًا إلى حدٍّ ما. لكنّ هناك مشهدًا أشعر أني لن أعتاد عليه أبدًا، هو رؤية الرّعب على وجوه الأطفال الفارين من سقوط القنابل في قرية تُقصف، وهذا المشهد، أصَلّي كي لا أراه نصب عينيّ مرة أخرى لا في الواقع ولا حتى في المنام. إنه لأمر فظيع ألّا تسعى الحروب إلى استثناء الأطفال، ليس لأنهم يمثّلون المستقبل فحسب، ولكن خصوصًا لأن براءتهم وضعفهم البالغ يدعواننا ويطالباننا بحمايتهم. ما كانت الرواية المسيحية لتبلغ هذه القساوة بحق هيرودس لو اقتصر الأمر على إعدام السابق يوحنا المعمدان[2]، إلاّ أن مذبحة الأطفال الأبرياء ما كانت لتُغفَر له.

من ناحية أخرى، يتساوى جميعُ البالغين أمام التهديد الذي يواجهه الوطن والالتزامات التي يفرضها واجب الدفاع عنه، وإن لمن سوء التفاهم اللافت أن يُعترف لأيٍّ منهم، كائنًا من كان، بحصانة أو امتياز ما. ما هو مفهوم كلمة «مدني» في زمن الحرب؟ هو شخص يُعفى من حمل السلاح بفعل سنّه أو صحته وأحيانًا مهنته التي قد تُعتبر ضرورية جدًّا لمهمات الدفاع. فأن يُمنع المرء

(1) يشير الكاتب إلى إعلان باريس مدينة مفتوحة أي إنها لن تقاوم الجيش الغازي. (المراجع)

(2) يوحنا المعمدان، لقِّب بالسابق لأنه سبق المسيح ومهَّد له، لكن هيرودس الكبير الذي قتل الأطفال في الرواية الإنجيلية كان والد الذي قتل يوحنا. (المراجع)

من خدمة بلاده بالطريقة التي يتمناها كل مواطن، هو أمرٌ يشكّل كارثة ولا شيء يبرّر أن يتهرب المرء من مواجهة الخطر المشترك. في غضون سنوات قليلة قادمة، سأبلغ السّن التي تعفيني من التعبئة العسكرية وسيحلّ أبنائي مكاني، فهل سيعني ذلك أن حياتي أصبحت أغلى من حياتهم؟ كلا ولكن من الأفضل بكثير، على العكس من ذلك، لو حُفظ لهم شبابهم على حساب شيخوختي إذا لزم الأمر. عبّر المؤرّخ هيرودوتس عن ذلك منذ زمن بعيد حين قال إن لعنة الحرب الكبيرة هي أن الآباء هم من يدفنون أبناءهم. فهل نلوم أنفسنا إن عدنا إلى قانون الطبيعة؟ أما بالنسبة إلى الأمة، فليس من مأساة أكبر من أن تُضطر إلى التضحية بحياة أولئك الذين يتوقف عليهم مصيرُها. فمقابل هذه القوى الفتية، لا وزن يُذكر للآخرين. ولن أستثنيَ النساء من اعتباري، على الأقل من غير الأمهات الشابات، وذلك لحاجة أطفالهن الماسة لوجودهن إلى جانبهم. تضحك زوجاتنا على ارتجاف جداتهن، وهنّ على حق تمامًا؛ فالشجاعة لا تخصنا وحدنا، ولا تُلزمنا أكثر مما تُلزمهن. وفي زمن كانت الجيوش فيه مؤلفة من المهنيين فقط، كان الجندي المحترف، سواء أكان نبيلًا أم مرتزقًا، يبذل دماءه في سبيل من فوّضوه الدفاع عنهم. وفي المقابل، يخصّص له السكان غير المقاتلين ضرائبَ أو يدفعون له أجرًا. وإذا ما استهان بحماية أمنهم فشكواهم حينئذٍ مشروعة، لأن ذلك يُعدّ خرقًا للعقد المبرم. في وقتنا الحاضر، كل شخص يملك القوة اللازمة ليصير جنديًا، ولا أحد في الوطن المهدد يستطيع الإفلات من حالة الاستنفار الجماعية، لا من ضيقها ولا من مخاطرها. وهنا تتجلى السبل الواضحة الوحيدة، أما ما تبقّى، فليس إلا عواطف زائفة، أو جبنًا مكشوفًا.

إنّ هذه الحقائق هي من البساطة بحيث يشعر المرء ببعض الخجل وهو يُذكّر بها. فهل يا ترى كنا لنتلقّفها دائمًا وبالإجماع في خلال الشهور التي مررنا بها لتوّنا؟ تصديقًا على ذلك، رأينا عددًا كبيرًا جدًا من المسؤولين يتصوّرون أنهم يقومون بواجب تُمليه عليهم مواقعهم، حين يطلبون عدم الدفاع عن مدنهم، كما رأينا عددًا كبيرًا من القادة، مدنيين أو عسكريين، يذعنون لمثل هذا المفهوم المضرّ بالمصلحة العامة. في الحقيقة، لم تكن هذه الأنفس المرتعبة

مسكونة بهاجس إنقاذ الأرواح البشرية فحسب، وهو أمر مؤثر في حدّ ذاته. فتدمير الممتلكات الرهيب الذي رافق حرب 1914-1918، كان قد ترك ذكريات مريرة. ومن المعروف أن تدمير تراث البلاد الفنّي هذا قد أسهم إلى حدّ بعيد في إعاقة الازدهار. وقد ارتأى هؤلاء أن من الحكمة قبول كل شيء بدلًا من معاناة هذا الإفقار المزدوج، مرة أخرى. وهي حكمة مستهجنة، تلك التي لا تتساءل البتة إن كان ثمة كارثة أسوأ، على الحضارة كما على الاقتصاد، من أن تقع أمّة فريسة أمّة أخرى!

ثم جاء يوم تقرَّر فيه إعلان كل مدينة يفوق عدد سكانها العشرين ألف نسمة مدينة مفتوحة، وبالتالي ما هَمَّ إن وقعت قرية بسكّانها المساكين فريسة القصف والاجتياح والحريق، هكذا كان يفكّر على الأرجح أولئك الرسل الأبرار. أما أن تقصف مدينة تقطنها البرجوازية، فلا وألف لا!... لهذا نُذكِّر أنه حين كان تلامذة مدرسة الفرسان في سومور (Saumur) يُقتَلون على ضفاف نهر اللوار، كان العدو، في غفلة منهم، قد عبرَ جسور المدينة المفتوحة نانت التي حرِّم فيها القتال.

لا بد من التحلّي بالشجاعة للاعتراف بأن هذا الضعف الجماعي كان في الكثير من الأحيان حصيلةَ نقاط ضعف فردية. فقد لاذ بالفرار موظفون قبل أن يتلقّوا الأمر بترك مواقعهم. ولكم أُعطيت أوامرُ المغادرة قبل الأوان، وفي جميع أنحاء البلاد، وهو ما أحدث موجة نزوح كارثية. من منا لم يلتقِ على الطرقات بين أوساط المنسحبين تلك الأفواج من الإطفائيين منتصبين على مضخات شاحنات البلدية؟ لقد فرّوا، غداة الإعلان عن تقدّم العدو، لحماية أنفسهم وممتلكاتهم! هل تلقّوا أمرًا بالانسحاب؟ أتمنى أن يكون ذلك صحيحًا. ما هَمَّ لو التهمت النيران كل شيء طالما حافظنا على أدوات إخماد النار هذه...! هذه جمالية البيروقراطية كما يقول بعضهم. لكن المشكلة كانت أعمق للأسف! أعرف مركزًا صناعيًّا سارع رؤساء الشركة فيه، مع اقتراب الوحدات الألمانية، إلى الهرب والتخلي عن مصانعهم على عجل من دون أن يدفعوا أجور العمّال. فلو أنهم انخرطوا في الجيش لكانوا أنجزوا واجبهم حتى النهاية كما أتصوّر.

إلّا أنهم ظلوا «مدنيين» فنسوا، أو لم يُكرَّر على مسامعهم أن لا مهن في زمن الحرب، وأنّ أمة تحت السلاح، لا مكان فيها إلّا للمناصب القتالية.

هل أنا مخطئ؟ هل سأستسلم بدوري لما يصيبنا ونحن نتقدم في السّن إذْ نقلل من شأن الأجيال القادمة مقارنةً بذكرياتنا التي تعود إلى زمن الشباب؟ فقد بدا لي أنه حتى بين الرجال القابلين للتعبئة العامة، فقدت فكرة المساواة أمام الخطر شيئًا من قوتها الدافعة التي وسمت استنفارنا في عام 1914. بعض الإعفاءات من الخدمة كان يُقدّم إلى الشعب كما لو كان محاباة، بل وكأنه حقوق مكتسبة، وليس بوصفه ضرورات مزعجة ومهينة إلى حدّ ما. فكان يُقال للفلاحين: «لماذا العمال وليس أنتم؟» وإلى أرباب الأُسَر: «أطفالك يحتاجون إليك»، وإلى قدامى المحاربين: «استُدعيتم مرّتين، هذا كثير في الحقيقة». وحين أُعيد تنظيم وزارة التسلح وتطويرها اشمأززنا قليلًا جراء اندفاع الكثير من ضباط الاحتياط إلى مكاتبها الآمنة. كانوا يغادرون وهم يصيحون: «يا لها من مشكلة! كم هم بحاجة إليّ!» . فهل كانوا في الواقع ممنّ لا يستغنى عنهم؟ ألم يكن من الممكن، في الكثير من الأحيان، أن يحلّ محلهم الأكبر سنًّا؟ كنتُ أسمع أحيانًا أناسًا يتمنّون، عن حسن نية، لو يُعفى شبابنا المثقف على الأقل من مواجهة المجازر الهائلة التي شهدتها الحرب الفائتة، وهذا شعور يبدو باطلًا بالنسبة إليّ. صحيح أنّ كثيرًا من الآمال خابت على ضفاف نهر المارن أو نهر الإيزر (Yser) أو نهر السوم، وأنّ قوانا الروحية نزفت مدةً طويلة، لكن، في ما يتعلق بحمل السلاح، ألم يكن ثمة عامل ما ينبغي وجودُه في المعادلة؟ ما من أمر أكثر سوءًا من الهزيمة كان سيطاول حريتَنا الفكرية وثقافتَنا وتوازنَنا الأخلاقيّ؟ كما أن الأمر حين يتعلق بالتضحية لا يمكن تصوّر أيّ استثناءات. ولا يحقّ لأحد أن يظن أن حياته أكثر فائدة من حياة جيرانه، لأن الجميع، كلٌّ في مجاله، صغيرًا كان أم كبيرًا، سيجد دومًا أسبابًا مشروعة تمامًا للاعتقاد بأن وجودَه ضروري.

لا أعرف ما هو الدور الذي أدّاه هذا الهوس المتمثّل في إنقاذ حياة الشبان، في التأخير الغريب الذي حصل في تكوين المجندين وتأهيلهم. في لحظة الانهيار، لم يكن استدعاء مجندي عام 1940 في غالبيتهم قد اكتمل،

ولم يكونوا قد تلقّوا بعدُ، عمليًّا، أيّ تدريب. أما المراهقون الأصغر سنًّا، ومعظمهم كان يصرّ على الالتحاق بكبارهم في معظم المدن، فلم تُبذل أيّ محاولة لإعدادهم العسكري. من المسؤول عن هذا الإهمال الغريب؟ هل هي القيادة العسكريّة أم الحكومة السياسية؟ (وفي هذه الحالة، هل كان إصرار قيادة الأركان سيؤدي إلى اتخاذ هذا القرار؟) لا أعرف شيئًا بخصوص تلك الأسباب. هل نسي قادتنا، بفعل فترة الانتظار الطويلة التي لم نخسر فيها أحدًا تقريبًا، ضرورة الإبقاء على التعزيزات في جهوزية دائمة، إذا ما احتجنا إليها عند الضرورة القصوى في حالة نشوب المعارك؟ في هذه الحالة نحن أمام الآثار الكارثية لهذه «الحرب العفنة» الطويلة، كما يقول الألمان، الذين تعمّدوا أن يُقدّموا لنا هذه الصفقة المضلّلة. وحين طلب أحد زملائي أن يبقى في الجيش رغم استفادته من إعفاء بوصفه معيلًا لأسرته، أجابه أحد الضباط قائلًا: «لدينا ما يكفي من الرجال» . فهل كنا نخشى من عدم كفاية الأسلحة؟ وأخيرًا، هل كان الأمر، كما أوردتُ في فرضيتي قبل قليل، استجابةً لنصائحَ دعت إلى الإشفاق على الجنود بفعل الهاجس الذي خلّفته ذكرى المجنَّدين بعمر السادسة عشرة الذين هرعوا بالأمس إلى جحيم معركة نهر السوم، جنودًا في نهاية مرحلة الطفولة تقريبًا؟ من المؤكد، في أيّ حال، أنّ قادتنا، وطبقتنا الحاكمة، قد فقدوا شيئًا من البطولة الفذة التي يُطالِب بها كل وطن يتهددُه الخطر.

*

تُثير كلمة الطبقات الحاكمة التباسًا في حقيقة الأمر. ففي عام 1939، اشتكت الطبقة البرجوازية العليا في فرنسا من فقدانها كل أثر لسلطتها. ولا شكّ في أنها كانت تبالغ جدًّا في ذلك، فنظام «الأعيان» لم «ينتهِ» تمامًا بفضل الدعم الذي كان يوفره كلٌّ من المال والصحافة. لكن المؤكد أن أسياد الأمر السابقين ما عادوا يحتكرون دفة القيادة، فإلى جانبهم كانت جماهير العمال الأجراء، وقبلهم رؤساء النقابات الرئيسة، يُحسَبون في عداد قوى الجمهوريّين. هذا ما رأيناه في عام 1938 خلال حملة النقد والتقريع التي طاولت أنصار

اتفاقيات ميونخ، حين استخدم أحد الوزراء لسان حالهم لينشر شعوره بالذعر في صفوف الرأي العام. بيد أنّ إخفاقات النقابات العمالية في هذه الحرب لم تكن أقل أهمية من إخفاقات قيادات الأركان.

أود أن أتحدث في ما يلي عن أشياء لم أرها بأمّ العين، لأن موقع مصنع الحرب أو ما قبل الحرب، كان بعيدًا من مكان وجودي. لكني جمعتُ، بخصوص هذا الموضوع، الكثير من التصريحات المتطابقة التي صدرت عن أوساط مختلفة جدًّا، إن من المهندسين أو من العمال أنفسهم، بحيث لا يمكنني الشك في الاستنتاجات التي أوردوها. لم يكن الجهد المبذول في الصناعات الحربية كافيًا، بحيث لم نصنّع ما يكفي من الطائرات والمحركات والدبابات. وبهذا الخصوص، أعتقد أن العمال الأجراء لم يكونوا وحدهم المسؤولين، وفي أيّ حال لم يكونوا المسؤولين الرئيسين عن المشكلة. إلا أنه ليس بوسعهم ادعاء البراءة أيضًا، فقد تناسوا أنهم شغلوا أيضًا، وعلى طريقتهم الخاصة، مواقع الجنود حين سعوا لبيع قوّة عملهم بأغلى سعر في المقام الأول، فاختاروا بذْل أقل جهد ممكن في أقل وقت ممكن لتحقيق أكبر قدر ممكن من الدخل. قد يكون ذلك طبيعيًّا في الظروف العادية، وقد سمّاه أحد السياسيين ذات مرة «المادية الدنيئة»، ولم نكن لنصدِّق تعلُّق هذا الرجل بروحانية خالصة. بكلامه هذا كان يحاول أن يخدعنا. إن العامل هو بائع قوةٍ بشرية، ولا يحق لبائعي القماش أو السكر أو المدافع أن يتذمّروا، إذا ما طبّق هذا العامل بدوره قانون التجارة العظيم الذي يدعوه إلى أن يعطي القليل ليتلقى الكثير. لكن موقفًا كهذا، وإن كان مشروعًا في بعض الأحيان، وفي حالة شعب يتعرض للخطر وفي مواجهة تضحيات المقاتلين، يتحول إلى تصرّف أليم وفي غير موقعه. حكى لي أحد جيراني في الريف، وكان يعمل سبّاكًا وجُنّد للعمل في مصنع، كيف أن رفاقه كانوا يُخفون عنه أدواته لمنعه من القيام بأكثر أو أسرع مما تعارف العمال على أدائه خلال دورة العمل. وهذه مضبطة اتّهام رهيبة اتُّخذت من واقع الحياة نفسها.

لا شك في أنّ افتراض وجود هذا القدر من الاستهتار بالمصالح الوطنية في طبقة بكاملها، هو تعميم غير منصف، وأوافق بالتأكيد على أن الأمر لا يخلو

من استثناءات. غير أن انتشاره على نطاق واسع كافٍ لكي تترتب عنه آثار كبيرة أثقلت ميزان الحرب. وهذا ما يتطلب تفسيرًا.

لقد قلنا مرارًا وتكرارًا، إن هذه الحرب لم تناشد المشاعر العميقة للأمة، كما في الحرب السابقة، وهذا لعمري خطأ جسيم. إنّ شعبنا لا يحب الحرب، وهذا مزاجه. ففي عام 1939 لم يتطلع أيّ فرنسي إلى «الموت من أجل دانزيغ»[3]. لكن أحدًا لم يكن يتطلع أيضًا إلى «الموت من أجل بلغراد»[4] في عام 1914، ولم يكن فلاحونا أو عمالنا في حينه يعرفون عن البطانة التي كانت تنسج خيوط مؤامراتها حول آل كاراجورج[5] (Karageorge)، أكثر مما عرفوه عن حكومة «العقداء» الفاسدة في بولندا بعد خمسة وعشرين عامًا، هذا إن قُدّر لهذا الكلام أن يُشعل الحماسة في حشودنا. أما بالنسبة إلى الألزاس واللورين، فإذا كان صحيحًا أن صورة «المقاطعات السليبة» قد برزتْ فجأة بدءًا من المعارك الأولى في آب/أغسطس 1914، بعد حالة الحذر التي كانت لازمتها قبل ذلك التاريخ بأيّام قليلة، فإن ذلك لم يحدث إلا نتيجة ضرورة ملحة؛ لأنه حين تطلّب الأمر حمل السلاح، أضحى من غير الممكن التخلّي عنه قبل تحرير الإخوة الذين فُقدوا. وخلال فترة السلم، وفي ظل إجماع عام على أهمية سلامة الوطن، لم يكن ليُقبل لأيّ سبب أن تُدفع البلاد نحو أخطر الفظائع، حتى ولو كان ذلك لمسح دموع سيّدات الألزاس الجميلات كما كانت تصورها الرسوم المطبوعة.

الحقيقة هي أن مصدر الاندفاع الشعبي، في المرتين، كان نفسه وكان يدور حول الشعارات التالية: «هم [أي الألمان] لا يكفّون عن إثارة النزاعات مع الجميع. هم يريدون كل شيء لأنفسهم. هم سيطلبون المزيد كلما تركنا لهم شيئًا. لا يمكن لهذا أن يستمر»، هذا ما قاله أحد جيراني في قريتي الصغيرة في منطقة كروز (Creuse) قبل مغادرتي إلى مدينة ستراسبورغ بمدة

(3) دانزيغ (Dantzig) مدينة في بولندا تسمى الآن «غدانسك». (المترجمة)

(4) عاصمة مملكة صربيا. (المراجع)

(5) السلالة الملكية التي كانت تحكم مملكة صربيا. (المراجع)

وجيزة. وهذا كان لسان حال كل عامل زراعي في عام 1914 في أيّ حال. إذا كان لإحدى الحربين أن تتفق مع الميول العميقة للجماهير، خصوصًا الجماهير العاملة، فهي بالتأكيد الحرب الثانية. والسبب على وجه التحديد هو هذا الطابع «الأيديولوجي» الذي وُجِّه إليه الكثير من اللوم، والذي كان، على الرغم من ذلك، يزيد من بريق التضحية. وكما في عام 1914، بهدف تحرير الألزاس واللورين، لم يشعر الفرنسي في عام 1939، أكان عاملًا في المصنع أم مزارعًا في الحقل، أنه يضحي بنفسه بشكل عفوي لإسقاط الدكتاتوريات. لكنه أدرك، في الصراع ضد هذه الأخيرة وبسببها، أنه يخدم عملًا إنسانيًّا عظيمًا. وأيّ شكّ في ذلك سيكون تجاهلًا لكل ما يكمن من نبل في أعماق شعبنا المتمدّن. وقد استطاعت دعايتنا الرسمية السخيفة وتفاؤُلها الفظ والمزعج، وتردّدُها، كما عجزُ حكامنا، علاوة على ذلك كلّه، عن تحديد أهدافهم الحربية بوضوح على مدى شهور طويلة من التقاعس عن العمل، أقول استطاعت هذه الدعايات أن تحجب هذه اللحظات الأولى والمشرقة. وحتى أيار/ مايو 1940، كانت روح التعبئة العامة لا تزال تنبض بالحياة، ولم يَنِ النشيد الوطني الفرنسي (la Marseillaise) الذي جعل منه المواطنون نشيدًا للاحتشاد، يعزّز الولع بالوطن ويثبت كراهية الطغاة.

لكن هذه الميول الفطرية التي كانت لا تزال قوية في أوساط الأجراء، والتي كان يمكن لحكومة أقل هلعًا أن تحافظ على شعلتها، حاربتها اتجاهات أخرى في الضمير الجماعي. وقد عقد الناس من جيلي أعظم الآمال على الحركة النقابية، في أيام شبابهم. وما كنا لنأخذ في الحسبان انكماش الأفق الذي وقف حاجزًا بوجه زخم الأزمنة البطولية. فهل حدث ذلك بسبب سياسة الأجور التي أدت بالضرورة إلى نمو المصالح الصغيرة الراهنة، أم هي الدبلوماسية البصيرة أو الحيل الانتخابية أو المؤامرات التي تحوكها الجماعات ويتورّط فيها الزعماء؟ أم هي العادات البيروقراطية المتعارَف عليها والتي تشربتْها إدارات العمال؟ الحقيقة هي أن الانحراف الذي كاد أن يكون عالميًّا في جميع البلدان، شكّل على ما يبدو جزءًا من حتميّة لا مفر منها.

نعت ماركس بالبرجوازيّة الصغيرة (Kleinbürgerlich)، كما هو معلوم، الحركات الاجتماعية التي ليس لها امتداد. فهل كان هناك أيّ شيء آخر غير سمة «البرجوازية الصغيرة» لوصف موقف أغلبية النقابات الكبرى، ولا سيَّما نقابات الموظفين، خلال هذه السنوات الأخيرة وفي أثناء الحرب ذاتها؟ لقد تمكنتُ أحيانًا من حضور اجتماعات نقابية تتعلق بمهنتي، وفيها لاحظتُ أنّ هؤلاء المثقفين نادرًا ما يتحدثون عن أموال طائلة، بل عن قروش ضئيلة. أما الدور النقابي الذي ينبغي أن تقوم به هيئتهم في البلاد، وحتى في مستقبل البلاد المادي، فبدا أنّه لا يعني شيئًا لهم. إن أرباحهم الآنيّة قد حدّت من قدرتهم على الاستشراف. وأنا أميل إلى الاعتقاد أن هذا الوباء قد تفشّى في كل مكان، وهذا ممّا لاحظته في أثناء الحرب، كما لاحظته في فترة ما بعد الحرب، من خلال تصرّف عمّال البريد، أو عمّال سكك الحديد. ولا شيء يمكن أن يغيّر رأيي قيد أنملة في هذا الخصوص. من المؤكد أن لا أحد يشك في شجاعة هؤلاء العمّال بغالبيتهم العظمى، وأثبت بعضهم في بعض المناسبات أنهم أبطال، لكن هل فهموا في مجموعهم، ومن خلال ممثليهم خصوصًا، شيئًا من تعاظم الواجب الذي تفرضه بالضرورة ظروف المرحلة التي نعيشها؟ وأعني بذلك الممارسة اليومية للمهنة التي تظل في نهاية المطاف محك الضمير المهني. في شهر حزيران/يونيو، وفي كثير من المدن في غرب البلاد، رأيتُ المنظر ذاته: نسوة بائسات يحاولن العودة إلى ديارهن خطوة خطوة، يتجوّلن في الشوارع وهن يحملن على كواهلهن أعباء مرهقة. والسبب هو أنّ محطات القطار، وخوفًا من فرض ساعات عمل إضافية على الموظفين، أو الخروج عن العرف الذي كانوا يفرضونه، رأت أنّ من الأفضل لها إغلاق قسم خزائن أمتعة الركّاب. هذه المقاييس العمياء والقيود الإدارية والخصومات الشخصية وهذا النفَس القصير أخيرًا، البعيد من الدينامية التي نادى بها السيّد بولوتييه (Fernand Pelloutier)[6]، تعكس كلها التراجعَ الهادئ الذي عرفته الاتحادات العمالية في جميع أنحاء أوروبا وفي بلادنا أيضًا أمام الضربات الأولى للسلطات الدكتاتورية. لم يكن

---

(6) زعيم نقابيّ فرنسي وعضو نشيط في الحركة النقابية العالمية التي تزعمت نضالات العمال في القرن التاسع عشر. (المترجمة)

لسلوك هذه النقابة في أثناء الحرب أيّ سبب آخر، ولا أهمية لبعض التصريحات الرنانة التي كانت تُطلق هنا وهناك. لم تتمكن الحشود النقابية من استيعاب فكرة أن لا أهمية لشيء بالنسبة إليها أكثر من أن نؤمِّن، بسرعة وبشكل كامل قدر الإمكان، هزيمة النازية بعد انتصار الوطن، كما هزيمة كل ما قد يقتدي به مقلدوها لو انتصرت. لم يعلّموهم كما يجب دور القائد الحقيقي الذي لا ينظر إلّا إلى الأبعد والأعلى والأوسع مدى، كما لم يعلّموهم أن قوْتَهم هذا قد يُفقد في اليوم التالي بسبب التخاذل. لقد دقت اليوم ساعة العقاب، ونادرًا ما عوقب سوء الفهم بمثل هذه الشدة.

علاوة على ذلك كله، كانت هناك أيديولوجيا أمميّة مسالِمة. أفتخر أني مواطن عالمي صالح، وأني أقلّ الرجال ميلًا إلى الشوفينيّة. وأنا أدرك جيدًا، كمؤرّخ، الحقيقةَ التي تقف عليها صرخة كارل ماركس الشهيرة «يا عمال العالم اتحدوا!». كما أنني عايشتُ من الحروب ما يجعلني أعترف بأنها أمرٌ رهيب وأحمق في الوقت نفسه. لكن ضيق الأفق الذي ندّدتُ به قبل قليل يتمثّل تحديدًا في رفض انسجام مثل هذه المشاعر مع دوافع أخرى لا تقل أهمية. لم أكن لأتصور يومًا أن حب الوطن قد يتعارض مع محبة الأولاد، كما لم أرَ أن أمميّة الفكر أو الطبقة قد تتضارب مع حب الوطن، أو أشعر بالأحرى، وأنا أُسائل ضميري، أن هذا التناقض لا وجود له. إنه لقلبٌ مسكين ذلك الذي لا يمكنه احتواء أكثر من نوع واحد فقط من المحبة. لندَعْ مع ذلك جانبًا مجال العاطفة. أيّ امرئ لديه بعض حياء يأنف من الكلمات المبتذلة التي لا تصلح لترجمة حقائق روحية حميمة جدًّا، وهو لن يتوقف طويلًا عند هذا وإلّا أحسَّ بالانزعاج. وفي أي حال لم يكن دعاة السلام ليدعوننا عادة إلى الخوض في هذا المضمار.

فهم يتذرعون قبل كل شيء بمفهوم المصلحة، وقد جعلوا من هذه المصلحة المزعومة صورة خارجة عن كل معرفة حقيقية للعالم، فضلّلوا بها من آمن بهم من أتباعهم الطيّعين.

لقد قالوا إن الرأسمالية الفرنسية كانت صارمة تجاه أبنائها، وبالتأكيد لم يخطئوا. لكنهم نسوا أن انتصار الأنظمة الاستبدادية كان سيؤدي إلى

وقوع عمالنا تحت نير عبودية تامة. ألم يبصروا حولهم أولئك الذين كانوا على استعداد لانتهاز هذه الفرصة، أي هؤلاء المستفيدين من هزيمتنا؟ كانوا يعلمون وعن حق أن الحروب تُراكم ويلات لا منافع منها. لكنهم فشلوا في التمييز بين الحرب التي نقرر خوضها طوعًا، وتلك التي تُفرض علينا، بين القتل والدفاع عن النفس. هلّا سألناهم إن كانوا ينصحوننا بأن نضع رقابنا تحت سيف الجلاد؟ لكانوا أجابونا: «لا أحد يهاجمك». لأنهم يحبّون اللعب على الكلمات، وربما لأنهم فقدوا القدرة على مواجهة أفكارهم، فكانوا يقعون في شِباك تناقضاتهم الخاصة. إن قاطع الطرق لا يصرخ في وجه ضحيته: «سأقتلك»، بل يقدِّم له الخيار: «مالك، أو حياتك». وبالطريقة نفسها، يقول الشعب المعتدي للشعب الذي يتعرض للاضطهاد: «تنازلْ عن حريتك أو تقع مجزرة». لقد قالوا إنّ الحرب تخص الأغنياء أو الأقوياء ولا يتعيّن على الفقراء التدخل فيها. ألم يكن الطرف الأضعف في المجتمعات القديمة التي تعزّزت بفضل قرون من الحضارة المشتركة، ينقاد، طوعًا أو كرهًا، إلى التضامن مع الأقوياء. كانوا يتهامسون، كما سمعتُهم، أن النازيين لم يكونوا، في الواقع، سيئين تمامًا كما كانوا يوصَفون، ولربما أمكن تلافي الكثير من المعاناة لو فُتحت لهم الأبواب واسعة، بدلًا من مواجهة الغزو بالعنف. فما رأي هؤلاء الرسل الطيبين اليوم بشأن المنطقة التي جرى احتلالها وتجويعها وحكمُها بالطغيان؟

ولأنهم كانوا يبشرون برسالة سهلة ومريحة، فقد وجدت مواعظهم صداها الواسع في غرائز الكسل والأنانية التي تكمن، بجانب أنبل الإمكانات المفترَضة، في أعماق قلب كل إنسان. كانوا بحماستهم لأفكارهم، في حين لا تنقص الشجاعة كثيرين منهم، يصنعون الجبناء بلا وعي منهم. والحقيقة هي أنّ الفضيلة، يجب أن يرافقها نقد شديد يُخضعها للعلم، وإلّا انقلبت ضد أكثر أهدافها أهمية. فيا إخوتي المعلمين، يا من أحسنتم الحرب في نهاية المطاف وكنتم كثرًا، وتمكنتم بإرادتكم القوية، ورغم الخمول السائد في المدارس الثانوية، والجامعات المقيدة بأسوأ أشكال الروتين، من تزويد بلادنا بالتعليم الوحيد الذي يمكن أن نفخر به: سيأتي يوم قريب، وآمل أن يكون يومَ مجدٍ

وسعادة، تتحرر فيه فرنسا من العدو بشكل نهائي، لنجتمع من جديد حول مناقشاتنا الفكرية، في مناخها الفكري الحرّ أبدًا ودومًا. وحين يجيء ذلك اليوم، وحين تكونون قد تعلمتم من الخبرة التي اكتسبتموها بمشقّة، هل ستفكرون في تعديل شيء من الدروس التي كنتم تلقّنونها بالأمس؟

ما هو أشد غرابة ولا شكّ أنّ هؤلاء المتعصبين[7] لفكرة الإنسانية، لم يستهجنوا تلاقيهم على طريق الاستسلام، مع الأعداء الطبيعيين لطبقتهم ومبادئهم. وفي الحقيقة، كان هذا التحالف المستغرب للغاية يتجاوز أحيانًا العداوة المستحكمة بينهم. فبعد أن تناحروا مرات كثيرة في ساحات المعارك الانتخابية مع أعدائهم التقليديين هؤلاء، ها هم يجدون أنفسهم شركاء مع هؤلاء الأعداء في مشروع السلم بأيّ ثمن، في حين أن كثيرين كانوا قد خرجوا من صفوفهم وتجمَّعوا في أجواء أكثر منفعة لهم. ألقى هؤلاء المنشقّون عن أنفسهم كل مظاهر الحماسة الثورية القديمة لأنها ما عادت مريحة، واحتفظوا بالروح الفئوية التي استندوا إليها والتي مهرتهم ببصمة لا تمّحي. فقد فقدوا الشعور بالقيم الوطنية التي لن يكتب لهم أن يستعيدوها أبدًا. وليس من قبيل المصادفة أن تجلب إلى السلطة مرحلة الارتباك هذه، وزيرًا حضر في كينتال (Kienthal) في ما مضى[8]. كما أنه ليس من الضروري أن يعمد الألمان إلى إعلاء شأن أحد مثيري الفتن، ممن كانوا قادة الشيوعية في السنوات التي سبقت الحرب، قبل أن يرتدي عباءة الوطنية الكاذبة. وليس من إدانة أكثر فظاعة من

---

(7) يقصد الاشتراكيين. وقد أشير إليهم، بسبب موقفهم من الحرب العالمية الأولى، بالاشتراكيين الشوفينيين. ومن المعلوم أن بعض قادة الأحزاب في الأممية الاشتراكية ممثلة بفرنسا وبريطانيا، ساند الحرب وصوَّت على اعتمادات في الميزانية العامة لدعم القوات المسلحة تمامًا كما جرى في ألمانيا. شكَّل هذا الموقف صدمة كبيرة للحركة العمالية العالمية أربكت قواعد الأممية الاشتراكية الثانية في ذلك الوقت. (المترجمة)

(8) مؤتمر نظّمته الحركة الأممية الاشتراكية في نيسان/أبريل 1916، في سويسرا، وحضره لينين. عُقد المؤتمر لمناقشة الموقف من الحرب العالمية الأولى، حيث اتُّهمت هذه الأحزاب اليسارية بخيانة الأفكار الماركسية ومساندة الطبقة البرجوازية في بلدانها. ولقد أكد المؤتمر في بيانه الختامي أن النضال من أجل تحقيق سلام دائم لا يمكن أن يكون سوى النضال من أجل تحقيق الاشتراكية. (المترجمة)

هذه تُوجَّه ضد مدرسة سياسية معينة مهمتها تشكيل وعي الأفراد؛ فقد ينسى المرء كل ما تعلّمه فيها مهما كان جميلًا أو نبيلًا، إلّا شيئًا واحدًا سيحتفظ به للأسف، هو تنكّره للوطن.

على هذا النحو، وعلى الرغم من أن الاحتياجات العامة للدفاع الوطني كانت تتطابق أكثر من أيّ وقت مضى مع مصالح العمال الخاصة، لم تجد متطلبات هذا الدفاع الواضحة تمامًا تأييدًا في أوساط الرأي العماليّ العام الذي كان متردّدًا، وللأسف. وأضافت التناقضات الهائلة في الشيوعية الفرنسية إلى هذا الاضطراب عامل إرباكٍ جديدًا. ونحن هنا نتطرق إلى نمط آخر من القضايا يتعلق تحديدًا بمجال الفكر.

لم تكن الأسباب الفكرية مسؤولة عن الهزيمة العسكرية فحسب. ألم نعتد كثيرًا كأمة الاستعانةَ بمعارف غير مكتملة وأفكار غير واضحة، والاكتفاء بها لتحقيق النصر؟ لقد استند نظام حكومتنا إلى مشاركة الجماهير. إلّا أن هذا الشعب الذي سلّم مقاليد مستقبله والذي كان قادرًا بذاته على اختيار السبل الصحيحة كما أتصور، ما الذي قمنا به لتزويده بالحد الأدنى من المعلومات الصحيحة والمؤكدة والتي لا يمكن لأيّ سلوك عقلاني أن يتجلّى من دونها؟ لا شيء في الحقيقة! وكان هذا بالتأكيد أكبرَ عيب في نظامنا الذي يُفترض أنه ديمقراطي، وأعظمَ جريمة يرتكبها من يدّعي الديمقراطية. فهل يكفينا أن نستنكر حالات الإهمال والمعلومات المنقوصة التي عمّمتها علنًا السياسة الحزبية الفجة؟ إنها مسؤولة عن ذلك بالتأكيد، لكنها كانت من الوضوح بحيث يسهل إدراكها وتجنّبها. وأخطر ما في الأمر أن شريحة من الصحافة التي تكتفي بنقل المعلومات خلافًا لغيرها من الصحف التي تخضع لتعليمات سياسية، كانت في الواقع تخدم مصالح مستترة، كثيرًا ما تكون دنيئة وقد تكون مصادرها أجنبيّة. وما لا شك فيه أن الحسّ السليم عند شعبنا ردّ على ذلك بطريقته الخاصة، إذ تعاظم انعدام ثقته بهذه الدعاية، أكانت مكتوبة أم إذاعية. وإن لمن جسيم الخطأ الاعتقاد أن الناخب يصوّت دائمًا «كما تريد صحيفته». فأنا أعرف كثيرًا من الأشخاص البسطاء، وعلى الرغم من مطالعتهم يوميًّا الصحف المحلية الصادرة في مناطقهم، يصوتون في

الاتجاه المعاكس لرأي تلك الصحف. وربما نجد في هذه المناعة أسبابًا للعزاء كما للأمل. مع ذلك، لا بد من الاعتراف بأن استيعاب الرهانات التي يحملها نضال عالمي هائل والتنبؤ بالعاصفة القادمة والتسلح بما يجب، وفي وقت مبكر، ضد صواعقها، كل هذا من الإعدادات المعنوية الرديئة. ترفض الهتلرية عن عمد إمكان تعرّف حشودها إلى الحقيقة، وهي تُحِلّ الخطاب المشحون بالعاطفة محلّ الخطاب المشحون بالإقناع، اِقرأوا ذلك في كتاب هتلر كفاحي (*Mein Kampf*) ومحادثاته مع مساعده راوشننغ (Hermann Rauschning)[9]. أما بالنسبة إلينا، فعلينا إما أن نجعل من شعبنا، بدورنا، لوحة مفاتيح تهتز بلا وعي أمام جاذبية بعض القادة (ولكن أيّهم؟ لأن الموجودين حاليًّا لا يصدرون أيَّ موجات!)، أو ندرّبه ليكون المتعاون الواعي مع الممثلين الذين اختارهم بنفسه. وفي هذه المرحلة من حضاراتنا، لا يجوز أن تستمر هذه المعضلة بلا معالجة على المدى القصير... فالجماهير ما عادت تستجيب للأوامر، كونها تابعة، إما لأنها في حالة انخطاف، أو لأنها واعية للحالة القائمة.

هل ما حدث إذًا، هو أن الطبقات الميسورة والمثقفة في مجتمعنا رأت، سواء عن ازدراء منها أو عن توجّس، أن من غير الملائم تنويرَ رجل الشارع أو الفلاح؟ هذا الشعور كان موجودًا ولا شك، لأنه نابع من تقليد قديم. فالبرجوازيات الأوروبية لم تشعر بالابتهاج لرؤيتها «الطبقات الدنيا» تتعلم القراءة. ويمكن لأيِّ مؤرخ أن يستشهد بالكثير من النصوص ليثبت ذلك. لكن المرض كان قد استحكم بجسد الأمة، إذ غاب الفضول الباحث عن المعلومة حتى لدى أولئك الذين كان في وسعهم إشباع ذلك الفضول. لنقارن بين اسمي هاتين الصحيفتين المترادفين تقريبًا: **التايمز** (*The Times*) **ولو تان** (*Le Temps*). كلتاهما تنصاع للمصالح والأوامر نفسها، وجمهورهما على كلا الجانبين بعيد من الجماهير الشعبية، كما يشك في حيادهما. مع ذلك، فإن قرّاء الصحيفة الأولى، يطّلعون على ما يحدث في العالم كما هو، بدقة أفضل من

---

(9) هرمان راوشننغ، رئيس مدينة دانتزيغ الحرّة في عامي 1933-1934. ألماني محافظ انضم فترة قصيرة إلى الحزب النازي. رافق هتلر ثم هاجر إلى الولايات المتحدة الأميركية في عام 1936 حيث نشر كتابه محادثاتي مع هتلر أو صوت التدمير. (المراجع)

مشتركي الصحيفة الثانية. يسود التناقض نفسه بين صحافتنا الفخورة جدًّا بما تسميه «مظهرها» الفكري، وصحيفة فرانكفورتر تسايتونغ (Frankfurter Zeitung) على سبيل المثال: أعني الفرانكفورتر قبل مجيء هتلر، أو حتى تلك الموجودة اليوم. الرجل الحكيم يكتفي بالقليل، كما يقول المثل. وفي مجال المعلومات، كانت برجوازيتنا بالفعل حكيمةً كما أوصى الفيلسوف الوقور إبيقور[10].

ثمة الكثير من الأعراض الأخرى التي تؤكد ذلك. ففي خلال الحربين رافقتُ كثيرًا من الضباط، من العاملين ومن الاحتياط، ممن ينتمون إلى طبقات متنوعة للغاية. فتبيّن لي أن أولئك الذين يجيدون القراءة بعض الشيء لم يكونوا كثُرًا، ولم ألحظ أيًّا منهم يحمل كتابًا في التاريخ يوفر له فهمًا أفضل للحاضر من خلال قراءة الماضي. كنتُ الوحيد الذي أحضر كتاب ستراسر[11] عن هتلر، إلى المكتب الرابع، ولقد استعاره مني رفيق واحد فقط من رفاقي. وكم ندّدنا ببؤس مكتباتنا البلدية، فانظروا إلى ميزانيات مدننا الكبرى تلاحظوا أنها أقرب إلى العوز. في أول تشرين الثاني/ نوفمبر 1918، قبل أن تعمد ألمانيا الهتلريّة إلى إحراق الكتب، أُتيحت لي الفرصة للدخول إلى «المكتبة العسكرية» في موقع فوزييه (Vouziers) الذي تخلّت عنه قوات العدو المتراجعة. كانت تحوي أشياء أهم من الروايات البوليسية أو المنشورات السياسية. فلماذا لم نحاول قط القيام بشيء من هذا القبيل؟ لقد بتنا جاهلين في فنّ معرفة الآخرين. ليس هذا فحسب، إذ ماذا بشأن تلك الحكمة القديمة التي تقول: «اعرف نفسك بنفسك؟». حُكي لي عمّا حدث في إحدى اللجان الدولية حيث تحوّل مندوبنا موضع سخرية من نظيره البولندي؛ فمن بين جميع الدول تقريبًا، كنا الوحيدين الذين لم نُجْرِ إحصاءات دقيقة للأجور في بلدنا، وذلك لأن رؤساء الشركات الفرنسيّة يفضّلون السرّية التي تلائم المصالح الخاصة التافهة بدلًا من المعرفة الواضحة التي تساعد على العمل الجماعي. وفي عصر الكيمياء، لا يزال

---

(10) فيلسوف يوناني. (المراجع)

(11) يقصد كتاب أنا وهتلر (*Hitler et moi*)، لمؤلفه أوتو ستراسر (Otto Strasser) (1897-1974)، وهو سياسي ألماني وعضو سابق في الحزب النازي تزعّم جناحه اليساري. اختلف مع هتلر بسبب تباين في تحديد توجهات الحزب النازي فانسحب من هذا الحزب في عام 1930. (المترجمة)

بعضهم يفكر بذهنية الكيميائيين. لننظر أيضًا إلى المجموعات التي ادّعت لنفسها، قبل فترة، مهمة مكافحة الشيوعية عندنا. من الواضح أن تحقيقًا جادًّا وعلميًّا، يُجرى في جميع أنحاء البلد، هو وحده الكفيل بتوفير الوسائل اللازمة لمعرفة أسباب نجاح الأفكار الشيوعية التي تقلق أرباب العمل، ليتمكّنوا بالتالي من وقف مدّها. هل أدرك ذلك أحدٌ ممن هم في صفوف تلك المجموعات؟ ما همّنا من تلك المخطّطات السياسية، سواء أكانت مستَحسنة أم مُستنكرة، لأن أخطر أعراض المرض فعلًا هو أن تبدو التقنية الفكرية لهذه الجمعيات المصلحية القوية على هذا القدر من العجز؟ فلا داعي للاستغراب حين تعجز هيئات الأركان عن تنظيم أجهزة استعلاماتها بشكلٍ جيد. كان هؤلاء الأفراد ينتمون إلى أوساط تضاءل فيها تدريجًا حسّ السعيُ إلى المعلومة، فكانوا عاجزين عن إدراك الأهداف الحقيقية للنظام النازي رغم تصفّحهم كتاب هتلر كفاحي، إذ كانوا يدّعون «الواقعيّة»، هذه الكلمة البهيّة، ليستروا جهلهم، فيتعذّر عليهم بالتالي التشكيك حتى يومنا بأهداف النازية هذه.

أسوأ ما في الأمر، أن هذا التقاعس عن طلب المعرفة يؤدي حتمًا إلى وضع مزرٍ من الرضى عن النفس. أنا أستمع يوميًّا إلى البرنامج الإذاعي «العودة إلى الأرض» (Retour à la terre) وفيه يُقال لشعبنا القابع في حالة من العجز والتيه: «لقد استسلمت أيها الشعب لإغراءات حضارة مُمَكْنَنة وحين قبلت بقوانينها ورفاهياتها، ابتعدتَ عن القيم القديمة التي نشأتَ عليها، فقبحًا لك وترحًا بالمدينة الكبيرة وبالمصنع وحتى بالمدرسة! إنّ ما أنت بأمس الحاجة إليه هو القرية أو الضاحية الريفية كما كان الوضع في الماضي؛ القرية بأنماطها التقليدية في العمل، ومجتمعاتها الصغيرة المغلقة التي يحكمها الأعيان. عندئذٍ سيتجدد نشاطك وتستعيد أنفاسك». أجل، لا يغيب عن ذهني أن هذا الكلام المنمّق يخفي بالفعل وبشكل سيّئ مصالح غريبة جدًّا عن مصالح الفرنسيين وسعادتهم. إن معسكرًا كاملًا، وهو اليوم في سدّة القيادة، أو يظن أنه يمسك بدفة القيادة، ما زال يتحسّر، وباستمرار، على فقدان ميزة الانصياع القديمة التي يفترِض أن الشرائح الاجتماعيّة الريفيّة مفطورة عليها (وربما أخطأ هذا المعسكر بتقديره هذا، إذ يتميّز القرويّون «بعدم الانصياع» وفق ما تذكره النصوص

القديمة). وما يصبّ في مجرى قناعتنا أن ألمانيا التي حققت انتصارها عبر المكننة، تريد الاستئثار بهذا الامتياز. إنها تنظر إلى الأمم الأخرى كمجتمعات ذات طابع زراعي محض، مضطرة، في مقابل أسعار مفروضة عليها، إلى مبادلة منتجات الصناعات الألمانية العظيمة بقمح هذه الأمم أو منتجات ألبانها. فهي تحلم بأن تجمع من حولها، كالعبيد، مجموعة من الدول المستتبعة. وبالتالي، فإن هذا الصوت الصادر عبر البرنامج الإذاعي، والذي يدّعي التحدّث بلساننا، إنما ينبعث من هناك، أي من ألمانيا.

هذه الآراء التي تبثها الذهنيّات الريفيّة ليست وليدة اليوم حصرًا. فقد اعتدنا، منذ قبل الحرب بوقت طويل، أدبياتٍ متكاملةً تدعو إلى تنازل كهذا، وهو ما جعل هذه الآراء مألوفة لدينا. في الماضي كانت هذه الآراء تصبّ غضبها على نزعة «الأمركة»، كما كانت تندّد بمخاطر الآلة والارتقاء. وعلى العكس، لقد تباهت هذه الأدبيّات بالهدوء العذب في أريافنا، وبحضارتنا اللطيفة التي تحتضن البلدات الصغيرة، وبالمودة المقترنة بقدرة المجتمع السرّية التي كانت تدعوه إلى الوفاء لأنماط حياة سادت في الماضي. إلّا أن هذا الكلام مجترّ أكاديميًّا وهو يردّد طروحات ريفيّين قدامى أمثال نويل دو فاي (Noël du Fail) أو أوليفييه دو سير (Olivier de Serres). إن في العمل الحقيقي في الحقول من الجلَد أكثر مما فيه من العذوبة، والقرية ليست ملاذًا للسلام إلا في الأشعار الريفية. مع ذلك، فإنّ في كل هذا المديح للريف الفرنسي، بعض الصحة. فأنا أعتقد اعتقادًا راسخًا أن ثمة مردودًا عظيمًا بالنسبة إلى أيِّ شعب في الوقت الراهن أن يتعلّق بالأرض، كونه يدعم صرحه الاقتصادي بجذور صلبة بامتياز، كما يحتفظ بمخزون لا غنى عنه من الموارد البشرية. فلطالما عايشتُ حياة الفلاح الفرنسي في يوميّاته، ولطالما قاتلتُ إلى جانبه مؤخّرًا، ولطالما تناولتُ تاريخه بالدراسة عن كثب، لذلك فأنا أعرف ما يميزه عن غيره كفلاح فرنسي أصيل، في صلابته الغضّة، ومرونته البعيدة من التفاهة. كما أجدني منساقًا كغيري مع السحر المتفرد الذي تتميز به بلداتُنا القديمة، وأنا على علم أنها كانت النواة التي شكّلت الجزء الأكثر نشاطًا في المجتمع الفرنسي.

هل نرضخ إذًا، وفق هذه الرؤية، لنصير مجرد «متحف آثار عتيقة»، في وقت رفض فيه الإيطاليون صراحة الاستمرار في هذه الحالة؟ لا نخفي على أنفسنا أن الخيار هذا ما عاد واردًا، وفي حال اعتقدنا أنه لا يزال متاحًا، فنحن ندرك جيّدًا المصير الذي يعدّه أعداؤنا للمتاحف. إلا أننا نريد أن نحيا ولذلك علينا أن ننتصر. ولنتحلَّ بالشجاعة ونقر بأن الهزيمة التي نزلت بنا طاولت بالتحديد بلدتنا الصغيرة العزيزة بما تحمل من أيام وتيرتها بطيئة جدًّا، ومن تمهّل حافلاتها عند التنقّل، ومن الوقت الضائع الذي يتضاعف مع كل خطوة بسبب الإهمال واللامبالاة، والبطالة المتفشية في مقاهي حامياتها العسكرية، ومن أفقها السياسي القصير النظر، وحِرفها ذات الدخل المنخفض، ومن رفوف مكتباتها الخالية من الكتب، ومن ميلها إلى تفضيل المألوف، ومن توجسها من أيِّ مفاجأة قد تكدّر رفاهيّة عاداتها. وقد استسلم كل هذا أمام الدفع الجهنّمي الذي قادته ضدّنا تلك «الدينامية» الألمانية الشهيرة وكأنها خلايا نحلٍ طنّانة. بالتالي، ومن أجل الحفاظ على ما يمكن من تراثنا القديم، وينبغي فعلًا الحفاظ عليه، فلا بد من أن نكيّفه مع متطلبات عصر جديد. ربما كانت العربة التي يجرها الحمار وسيلة نقل لطيفة ومسلية، لكن أن نرفض استبدالها بالسيارة حيثما تستدعي الحاجة، فسيؤدي بنا ذلك إلى فقدان أصغر دابّة عندنا. إلا أن التجديد يتطلب الإعداد في المقام الأول. وإن كان ضبّاطنا قد فشلوا في استيعاب أساليب الحرب التي يفرضها عالمنا اليوم فذلك لأنهم كانوا، إلى حدٍّ بعيد، ينتمون إلى طبقة برجوازية تغض النظر عن الوقائع بسبب خمولها. سوف نتوه إذا ما انغلقنا على أنفسنا. أما شرط خلاصنا فهو في سلوك طريق التفكير الجدّي، من أجل تطوير معارفنا، وتوسيع آفاق خيالنا.

ما العمل لاستعادة ذلك الانسجام الفكريّ الذي يبدو أن مرضًا غريبًا قد فتك به منذ سنوات في أوساط من ادّعى خوض العمل السياسيّ؟ في الحقيقة، لن يُفاجأ أيُّ مؤرخ بالسرعة التي رضخت بها، في وجه الهزيمة، تلك الأحزاب المدعوّة «يمينيّة». فقد كان هذا تقليدها الثابت في جميع

أطوار تاريخنا تقريبًا، من مرحلة «إعادة الملكيّة» إلى جمعية فرساي[12]. وربما طمسَ اللغط الذي واكب قضية درايفوس (Dreyfus) معالمَ اللعبة في لحظة ما، حين اقترنت النزعة العسكرية بالنزعة القوميّة. من الطبيعي أن تكون الغرائز المتجذّرة قد طفت على السطح، وهذا أمر طبيعي. لكن أن ينتقل الأشخاص أنفسهم من التعبير عن كره عميق للألمان، إلى تأييد النظام القاري الألماني، أو أن يدافعوا عن دبلوماسية بوانكاريه ثم أن يدينوا «النزعة العدائية» عند خصومهم الانتخابيين، فهذه التحولات، من نقيض إلى آخر، تجسّد حالة من الضَّياع قد يعانيها القادة، وحتى الصادقون. أما في ما يتعلّق بمناصريهم، فلا شك في أنهم بلغوا مستوى من الخنوع الفكري يمنعهم من إدراك التناقضات التي وقعوا فيها. أعرف جيدًا أن ألمانيا الهتلريّة كانت تحظى في بلدنا بتعاطف لم تحظَ به في عهد إيبرت (Friedrich Ebert) نفسه، لكن فرنسا، على الأقل، ظلت دائمًا كما نعهدها. مع ذلك، وفي كل الأحوال، هل لنا أن نبحث عن ذرائع كافية لتبرير هذه الألاعيب البهلوانية؟ ربما كانت أفضل هذه الألاعيب على الإطلاق، كون خصومهم في الطرف المواجه هم على هذه الدرجة نفسها من الغباوة، يرفضون الموافقة على المزيد من الاعتمادات العسكرية، ثم يطلبون «مدافع لإسبانيا» في اليوم التالي، ويحثون على معاداة الفكر الوطني في البداية، ثم يدعون في العام التالي إلى تشكيل «جبهة تجمع جميع الفرنسيين»، وفي نهاية المطاف، يتملّصون من واجب الخدمة في الجيش، ويدعون الجماهير إلى المطالبة بإعفائهم منها. في هذه الالتفافات الفجّة نلمس المنحنى نفسه الذي أبهرنا به الراقصون على حبل الشيوعية المشدود. إني أعلم جيّدًا أن في الطرف المواجه رجلًا من السلالة الألبية (homo alpinus) أسمر البشرة، متوسط القامة[13]، وإلى جانبه الناطق

---

(12) إن إعادة الملكيّة (La Restauration) تمثلت بعودة الملكيّة بشخص لويس الثامن عشر إلى الحكم في عام 1815 بعد سقوط نابليون الأول. أما جمعية فرساي فقد تشكلت بالانتخاب في 9 شباط/فبراير 1871 وقد انبثقت منها حكومة برئاسة أدولف تيير (Thiers) الذي قمع عامية باريس في 31 آب/أغسطس 1871. (المراجع)

(13) المقصود أدولف هتلر. (المراجع)

باسمه، أحدب، شعره كستنائي اللون[14]، وقد أسس الأسمر هذا حكمه الاستبدادي على أسطورة تقول بتفوّق الرجل «الآري الأشقر الطويل». أما الفرنسيون، فكانوا يحظون بسمعة أناس ذوي عقول رصينة ومنطقيّة. والحال هذه، يقتضي استكمال الإصلاح الفكري والمعنوي لهذا الشعب بعد الهزيمة الثانية، استيعاب شيء بديهي من كلاسيكيات التفكير المنطقي تقول: إن كان أ هو أ، وب هو ب؛ إذًا أ ليس ب، بحسب قول رينان (Ernest Renan).

أما في ما يتعلّق بالأسباب العميقة لنقاط الضعف هذه، فهناك بالطبع الكثير مما ينبغي قوله والبحث فيه عند طبقتنا البرجوازية، وهي لا تزال تُجسّد عقل الأمة على الرغم من كل شيء. حظيت الدراسات الجادة باهتمام أكبر حين كان أفراد هذه الطبقة البرجوازية من أصحاب المداخيل. أما اليوم، فعلى رجال الأعمال والأطبّاء والمحامين أن يعملوا بجهد في أماكن أعمالهم، وحين يغادرونها وقد أنهكهم التعب، عليهم أن يخصّصوا ما تبقّى لهم من الوقت والجهد للترفيه. وربما تمكّنوا من الحصول على مزيد من أوقات الفراغ بفضل تنظيم وقتهم جيّدًا من دون اللجوء إلى الانتقاص من حجم عملهم. فهل يمكن للترفيه أن يتخذ طابعًا ثقافيًّا؟ في الواقع، نادرًا ما يتطابق الترفيه هذا مع العمل الجاد، ولو بشكل غير مباشر، ذلك أنّ تقليدًا قديمًا علّمنا أن نحبّ العلم بوصفه علمًا، والفن بوصفه فنًّا، كما أن هذا التقليد علّمنا تمييز المفهومين في التطبيق العملي. عندنا علماء كبار، وتقنيّاتنا لا تقلّ مستوى عن غيرها، وحين نقرأ، فنحن نقرأ بهدف تثقيف أنفسنا، وهو أمر جيّد بالطبع. لكننا لا نُعلّم عقولنا بقدر قدراتها الاستيعابيّة وكما ينبغي، عندما يتعلق الأمر بالاستفادة من هذا التثقيف.

وسيكون من الضروري، في نهاية المطاف، أن يلتحق هذا الشعب بمدرسة حرية العقل الحقّة. لم تكن الأوساط العسكرية الطرف الوحيد الذي فقدَ مثال الحكمة القديمة التي تقول: «من المستحسن أن يكون هناك من يخرج على القاعدة». ولن أتطرّق إلى أصحاب النزعات؛ فالتقليدية في أساس طباعهم. لكن ما عساني أقول عن الأحزاب «التقدمية»؟ بالنسبة إليَّ، فإنّي أكنُّ أعظم

(14) المقصود جوزف غوبلز وزير الدعاية الألماني. (المراجع)

الإعجاب لإنتاج كارل ماركس الفكري. وأخشى أن أقول إنه كان لا يطاق على المستوى الشخصي، أو إنه لم يكن كفيلسوف مفكرًا خارقًا كما صوّره بعضهم. أما على مستوى التحليل الاجتماعي، فلم يحظ أحد بمثل قدرته في هذا المجال، بحيث إنه في حال ارتأى المؤرخون تجديد هذا العلم، واتخذوا لأنفسهم آباء مؤسسين، فسيحتل التمثال الملتحي لنبي نهر الراين القديم الصف الأمامي في معبد جماعتهم. وهل يكفي ذلك كي تظل دروسُه، وإلى الأبد، معيارًا محدِّدًا لكلّ مذهب علميّ؟ لقد صادفت علماء ممتازين لا يؤمنون إلّا بنتائج التجارب التي تنجَز في مختبراتهم، لكنهم كانوا يعدّون أطروحات في علم وظائف الأعضاء أو مباحث في الفيزياء «على الطريقة الماركسية». عندها نتساءل: بأيّ حق يسخرون بعد ذلك من الرياضيات «الهتلرية»؟ وتاليًا فإنّ الأحزاب التي كانت تبشّر بقابلية التحول في الأشكال الاقتصادية، جرّمت كل من راودته نفسه، فخرج على كلام «المعلّم». كما لو أنّه ينبغي لنظرياتٍ وُلدت نتيجة مراقبة المجتمعات الأوروبية في الستينيات [من القرن التاسع عشر]، وتشرّبت من المعارف الاجتماعية التي أنتجها علماء تلك الفترة، أن تستمر في عام 1940 كأحكام قانون صارم.

لقد وُفّق كوندورسيه (Nicolas de Condorcet)[15]، المشبّع بعقلانية القرن الثامن عشر الصارمة، حين صرّح في تقريره الشهير عن التعليم العام: «لن يُعرض الدستور الفرنسي، ولا إعلان حقوق الإنسان، على أيّ فئة من المواطنين وكأنهما مادّتان أُنزلتا من السماء ينبغي التعبّد لهما والإيمان بهما».

أعرف جيدًا، ومن دون أن يخبرني أحد، أنّ قادة الجماعات كانوا في قرارة أنفسهم أقل وفاء «لأرثوذكسيّة ورقة التوت» مما كانوا يُظهرون. والحال هذه، ألَا نعثر هنا على العيوب الفكريّة، في ترابطها الرهيب، التي أسهمت في خسارتنا على نحو بالغ؛ وأقصد هنا الولع بالمراوغة، والالتباس، وحسّ متهافت لا يستوعب التدفق غير المنقطع لمسيرة العالم؟ أما في مواجهة جماعة

---

(15) فيلسوف ومشرّع فرنسي عايش الثورة الفرنسيّة. في تقريره الشهير عن التعليم العام، كان متأثرًا بالعقلانية المتينة التي سادت أجواء القرن الثامن عشر. (المراجع)

أقصى اليسار كما القادة العسكريين - ولا عجب في ذلك إذ يحدث أن يتشرّب أسوأ الخصوم في أمّة ما، ومن دون وعي منهم، المناخ الفكري ذاته - فعلينا الاعتراف بأن هتلر هو الذي كان على حق. إنّما لم يكن على حق في خطبه الحماسية التي كان يُلقيها أمام الحشود، بل في رسائله إلى راوشننغ، التي يقول فيها عن الماركسية تحديدًا: «نحن نعلم أن ليس ثمة وضع نهائي، بل تطوّر مستمر. إن المستقبل هو نهر لا ينضب من الاحتمالات اللانهائية لخلْق يتجدد من دون توقف».

قد يُعذر الأستاذ الجامعي إن عزا جزءًا كبيرًا من المسؤولية إلى نوعية التعليم المتّبع، وإن كشف بصراحة عن عيوب أساليبنا التربوية، بوصفه مُرَبّيًا. يُبدي التعليم الثانوي في بلادنا عجزه عن تطوير أيّ طاقة فكرية، فهو يتأرجح باستمرار بين نزعة إنسانوية قديمة الطراز لا تزال مرتبطة بقيمتها الجمالية، وميل مفرط في كثير من الأحيان إلى كل جديد، في حين أنه عاجزٌ عن النجاح في الحفاظ على قِيَم الثقافة الجمالية والأخلاقية، فضلًا عن خَلقِ أخرى جديدة تمامًا. فتعليمنا الثانوي لا يبذل الكثير لتنمية الطاقة الفكرية في هذا المجال. ومثلما تثقل الجامعات كاهل طلابها بالامتحانات، كذلك تفعل المدارس بتلامذتها. ولا يولي تعليمنا هذا العلومَ القائمة على الملاحظة، التي تُنمّي قدرات النظر والمادة الرمادية في الدماغ، إلا القليل من الاهتمام. تدرس فيزيولوجيا النبات وهذا أمر صائب، في حين يهمل تمامًا علم النبات، وهذا هو الخطأ بالذات. تبذل المدارس الإنكليزية، في المقابل، جهدًا حثيثًا لتشجيع الهواية، أو ما يسمّى بالنزوات (كالمعاشب، وجمع الأحجار الكريمة، والتصوير الفوتوغرافي، وهلمّ جرّا). أما مدارسنا فتتجاهل بوضوح كل هذه «الصّرْعات»، أو تُحيلها على العمل الكشفي الذي بازدهاره يشير إلى قصور التربية الوطنية عندنا. فقد حدث أن صادفتُ كثيرًا من التلامذة النجباء الذين لم يفتحوا كتابًا قيّمًا منذ خروجهم من المدارس الثانوية، في المقابل هناك كثير ممن كانوا تلامذة فاشلين أو شبه فاشلين، يظهرون اليوم ولعًا عميقًا بالثقافة. قد لا تثير مثل هذه المسارات الكثير من الانتباه حين تحدث مصادفة، لكن ألّا يشكّل تكرارها مصدرًا فعليًّا للقلق؟

ألّا يعود ذلك إلى شيء من الامتعاض؟ أنا كمؤرخ، أميل إلى أن أكون قاسيًا في حكمي على نوعية تدريس مادة التاريخ. وليست المدرسة الحربية المكانَ الأوحد الذي فشل فيه التدريبُ على خوض غمار الحياة. وكيف تلام مدارسنا الثانويّة التي انكبّت على تعليم مادة تاريخ العالم المعاصر وهي ما أعطى هذه المادّة مساحةً متميّزة. وهنا بيت القصيد؛ فإن التركيز على الوقت الحاضر، أو على الماضي القريب جدًّا، يجعلنا عاجزين عن تفسيرهما، مثل عالم بِحَار يرفض رفع عينيه إلى النجوم بحجة أنها بعيدة جدًّا من البحر، وحينها لن يكون بوسعه أبدًا معرفة أسباب المدّ والجزر. قد لا يتحكم الماضي في سير الحاضر برمته، لكن من دونه، سيبقى الحاضر مبهَمًا. وتصديقًا لهذا الكلام فإن الماضي مجالٌ واسعٌ للرؤية والمقارنة، فإذا تعمّدنا تغييبه، لن يتمكن عِلمنا التاريخي من تزويد العقول التي يدّعي تدريبها، بكيفية فهم الاختلاف أو التغيير. على هذا النحو مثلًا، استندت سياستنا تجاه ألمانيا بعد عام 1918، حين اعتمدت نموذجًا لأوروبا عفا عليه الزمن. فاستمرت في اعتقاد زائف أن النزعة الانفصالية داخل مقاطعات ألمانيا لا تزال حيّة، في حين أنّها كانت قد ولّت. وهكذا، أصرّ دبلوماسيّونا على الاعتقاد بمكانة آل هابسبورغ (Habsbourg)[16] التي ما عادت تشكّل سوى صور من الماضي معروضة في صالونات البيوتات المحافظة. وكم كنا نخشى أسرة الهوهنزولرن (Hohenzollern)[17] أكثر مما كنّا نخشى هتلر. ولكان من الأجدى إعلان نَعْي تلك الأسر، وهو ما كانت لتقوم به أيُّ عمليّة تأريخٍ جدّية. علاوة على ذلك، تغذّي برامجنا الدراسية هاجس المفهوم السياسي دون سواه. فهي تأبى ببعض الحياء أن تخوض في دراسة معمّقة للمفهوم الاجتماعيّ. فتفشل عندئذٍ في غرس حب الاطلاع والولع بالمفهوم الاجتماعي هذا. لا أريد أن أُتّهم بأنني أحمّل تلميذًا من المستوى الثانوي أو الابتدائي فوق طاقته! لكني لا أعتقد أن دفع الطفل إلى الاهتمام بتقلّبات الدهر التي تطرأ على تقنية ما، أو الغرائب التي تُلاحَظ في

(16) آل هابسبورغ الذين حكموا النمسا، كانوا من أهم العائلات المالكة في أوروبا. (المراجع)

(17) الهوهنزولرن: أسرة ملكية ذائعة الصيت حكمت براندنبرغ وبروسيا والإمبراطورية الألمانية. (المراجع)

حضارة قديمة أو بعيدة جدًّا، سيكون أصعب بكثير من أن نعرض عليه تغييرًا يحدث في وزارة. إن كتاب تلامذة الصف التاسع يعرض، كما قرأتُ بالضبط، كيف تحوّلت في ظلّ ملكية تموز/يوليو[18] عضويّة غرفة الأقران من «وراثية» إلى «مدى الحياة»، وهذا ما سجّلت اعتراضي عليه. ألم يُكتب لهؤلاء الأطفال أن يتعلّموا شيئًا أفضل؟ شيئًا ما أكثر إنسانية، وأكثر قدرة على تحفيز خيالهم الغَض، وأكثر فائدة لتدريبهم كمواطنين مستقبليّين في فرنسا وفي العالم. هنا أيضًا، سنُطالب بتنظيف الجوّ كليًّا بعد أن فُتحت كل النوافذ. وهذه ستكون مهمة الشباب. فنحن نعتمد عليهم لتحفيز الإعداد الفكري للبلاد ولقيادة جيوشها، أكثر مما نعتمد على الأكاديميات الخمس، أو على أعلى السلطات الجامعية، أو على المجلس الأعلى للحرب.

*

لقد حُمِّل نظامنا السياسي قبل الحرب مسؤولية كل الخطايا التي ارتُكبت. ومن جهتي، لن أحاول أن أنسب إليه أيَّ محاسن. لا شكّ في أن النظام البرلماني كثيرًا ما كان يقوم على الدسائس، وذلك على حساب المعرفة أو الإخلاص في العمل. ويكفيني أن أنظر من حولي لأقتنع أيّما اقتناع بهذا الرأي. فالرجال الذين يحكموننا اليوم ينتمون بمعظمهم إلى مثل هذه المستنقعات الآسنة. وإذا ما تبرّأوا الآن من السلوكيات التي جعلتهم ما هم عليه اليوم، فذلك لا يشكّل سوى خدعة من خدعهم الماكرة. لأنّ الموظف الخائن الذي فتح خزنة، لن يترك مفاتيحه المزيفة في متناول أيادٍ أخرى، مخافة أن يعثر عليها شخص أكثر دهاء منه، فيستولي على الغنيمة.

وعندما يحين الوقت لتحقيق النهوض الحقيقي، حين نستطيع أن نُطالب مرة أخرى بأن نُحكَم بشفافية، فتتلاشى كل الانقسامات التي نالت من ثقة البلاد، سيكون علينا بالتأكيد أن نعود بخُطانا، وبترَوٍ، إلى تلمّس الماضي. لقد

---

(18) غرفة الأقران (Pairie)، مصطلح يشير إلى النبلاء والأساقفة الذين يُعدّون مساوين للملك في الشرف والمكانة. وتتألف الغرفة فقط من أقران وراثيين وبعض أساقفة الكنيسة، ثم أصبحت هيئة يتم تعيين الرجال فيها مدى الحياة بعد ثورة 1830، إلى أن حُلّت بعد ثورة شباط/ فبراير 1848.

كانت المجالس الضخمة التي ادّعت حُكمنا، إرثًا سخيفًا من التاريخ. فنواب مجلس الطبقات الذين كانوا يجتمعون ليقولوا «نعم» أو «لا»، كانوا يُحصَوْن بالمئات. إنّ مركز قرار مؤلّف من حشد من الناس لن تكون نتيجته سوى الفوضى لا محالة. ويبقى السؤال: هل يجوز لموقع وظيفتُه فرض العقاب أن يمارس الحكم؟ أمّا الآليّات الحزبية فتفوح منها رائحة العفن المنبعثة من المقاهي الحقيرة أو المكاتب التجارية المُعتمة. ولم يكن لها ما يبرّر سلطتها، إذ انهارت كأوراق اللعب في وجه الرياح التي هبّت عليها. فقد صارت الأحزاب الكبيرة أسيرة العقائد في حين أدركت أن الزمن قد عفّاها، كما صارت أسيرة البرامج التي تخلّت هي بالذات عن تحقيقها. وقد كانت تجمع من حولها، زيفًا، رجالًا لهم آراء متناقضة جدًّا بشأن المشكلات الكبرى الراهنة، مثلما رأينا بعد مؤتمر ميونخ، في حين تفرّق آخرون كانوا يتشاركون الآراء نفسها. ولم تنجح تلك الأحزاب، في أغلب الأحيان، في تحديد من سيتولى السلطة، بل كانت ببساطة أداة بيد الأكثر مهارة، ليطرد بعضهم بعضًا من قمة الهرم.

لقد تقاعس وزراؤنا ومجالسنا، بلا ريب، عن الإعداد لخوض الحرب. ولم تساعدهم قيادة الجيش على تصحيح المسار. بيد أنّ لا شيء يكشف ضعف حكومة كاستسلامها لقرارات التقنيّين. ففي عام 1915، بذلت اللجان النيابيّة أعظم الجهد لتزويدنا بالمدفعية الثقيلة بما فاق كل ما طالب به سلاح المدفعيّة مجتمعًا. لكن هل تصرفت وريثات هذه اللجان بالمثل، وفي الوقت المناسب، في ما يخص تزويدنا بالطائرات والدبابات؟ وفي هذا الموضوع تحديدًا، تقدّم لنا قصة وزارة التسلح درسًا في الهدر؛ إذ من الغريب أن هذه الوزارة لم تُستحدَث إلّا في الشهور الأولى من العمليّات العسكريّة، في حين أنه كان من المفروض أن تستنفر بكل عناصرها من اليوم الأول للتعبئة العامّة. ونادرًا ما كان البرلمان يرفض الاعتمادات المالية المطلوبة عندما كان الخبراء يطالبون بها بحزم وإصرار، ولو لم يكن باستطاعته فرض استعمالها على أحسن وجه. علاوة على ذلك، وإن كان البرلمان لا يتردّد في فرض ضرائب إضافية على الناخبين، فإنه كان يخشى إزعاج المكلّف، وبالتالي كان يتردّد في فرض

فترات تدريب إضافيّة على جنود الاحتياط، وهو ما أدّى إلى ضربة قاضية ألمّت بالقوّات المحاربة. ومما لا شك فيه أن الرّتابة المعهودة لم تكن لتسهّل اعتماد التدريب الرشيد في هذه المراحل من التعليم، وقد لاحظنا، في مناسبات عديدة، أن رؤساء الوزارات كانوا يطالبون بتفويضهم كامل الصلاحيّات، إلّا أن هذا الحل الذي يبدو سهلًا لن يكتب له النفاذ، إذ لا نفهم كيف أن تفويض هذه الصلاحيات الكاملة يساعد على تعزيز الممارسة الحكومية وإعادة تطبيق النظام. وهذا يعني أن الجهاز الدستوري كان في حالة تأكُّل، وأنه كان من الأفضل إصلاحه قبل فوات الأوان. يعتقد زعماؤنا السياسيون الذين أفسدتهم ممارسات الكواليس، أنّ المعلومات الضرورية التي يحتاجون إليها هي الثرثرات التي تدور في اجتماعاتهم، وكأن المشكلات العالمية، كما الوطنية، لا تُقارَب بالنسبة إليهم إلا من زاوية التنافس الشخصي.

كان هذا النظام إذًا نظامًا ضعيفًا، لكنه لم يكن سيئًا للغاية كما صوِّر، وإن بعض السيّئات التي نسبت إليه كانت من نسج الخيال. لقد قيل مرارًا إن الميول الحزبية، والمعادية للكنيسة خصوصًا، قد قوّضت ركائز القوات المسلحة، إلّا أنني أستطيع أن أشهد أن الجنرال بلانشار كان يحضر القدّاس كل يوم أحد حين كان مفصولًا إلى بوهين. أما القول إن هذا القائد قد انتظر لحظة اندلاع الحرب للمجاهرة بإيمانه، فقول يشكّل إهانة مجّانية لبسالته كمواطن. ولقد كان محقًّا للغاية في أداء واجبه الديني علنًا، كواحد من المؤمنين. أما غير المؤمن الذي يمتعض من تصرّف كهذا، فهو ليس سوى أحمق وذي نفس دنيئة. ومع هذا، فإني لا أرى أن هذه المعتقدات الدينية التي أكد الجنرال هذا ولاءه لها، منعته، في ظل ما يسمى الحكومات «اليسارية»، من تبوّؤ قيادة الجيش والذهاب به إلى الهزيمة.

ويبقى السؤال: هل كانت برلماناتنا وهل كان وزراؤنا الذين خرجوا من الصفوف على قدر المسؤولية في الحكم؟ لقد ورثوا عن الأنظمة السابقة الكثير من الهيئات العامة الكبرى التي لم يستطيعوا ضبطها. لا شك في أن الزبائنيّة الحزبية كانت تتدخّل في أحيان كثيرة في اختيار قادة الفرق المختلفة في الإدارة.

وبقطع النظر عن توجهات كل مرحلة، نادرًا ما تكلّلت هذه التعيينات بالنجاح، إلّا أن هذا التوظيف بقي بيد الروابط المهنية إلى حدٍّ بعيد. لقد اعتُبرت «مدرسة العلوم السياسية» (École des Sciences Politiques) المعقلَ المفضّل لأبناء الأعيان. فكان خرّيجوها يعشّشون في السفارات، كما في سائر مراكز ديوان المحاسبة ومجلس الشورى، ومفتشية الشؤون المالية. ولم تكن مدرسة البوليتكنيك، التي تُعقد على مقاعدها روابط تضامن خالدة بين الخريجين، لتؤمّن موظفي قطاع الصناعة فحسب، بل كانت تشرّع الأبواب لاقتناص مهن مهندسي الدولة التي كان يخضع الارتقاء فيها لقوانين آلية شبه ميكانيكية. أما الجامعات فكانت تجتذب أعضاءها وتدمجهم من خلال نظام تكامل من المجالس واللجان، مع ما يحمله ذلك من مخاطرَ على التجدّد الفكري. كما أن هذه الجامعات كانت توفّر للأساتذة ضمانات الاستمرار، تلك التي يُقال إنّ النظام الحالي قد ألغاها بشكل مؤقّت. ولا يزال «المعهد الفرنسي» (Institut de France) يحتفظ بتمايُزه الدائم كسلطة فكرية، بفضل غناه، والهيبة التي تمارسها الشهادات التي يمنحها حتى على النفوس الأكثر ميلًا إلى الفلسفة. وإذا حدث أن أثّرت السياسة في الخيارات الأكاديمية بطريقة ما، فهذا لا ينطبق بالتأكيد على سياسة اليسار. فقد قالها بول بورجيه (Paul Bourget) قبل مدة: «أعرف ثلاثة معاقل للتيّارات المحافظة: مجلس اللوردات، والأركان العامة الألمانية، والأكاديمية الفرنسية».

هل أصاب النظام أم أخطأ، حين غضَّ النظر عن ممارسات هذه الروابط المهنية؟ يمكن للبحث في هذا الموضوع أن يستمر إلى الأبد من دون التوصّل إلى نتيجة. سيقول بعضهم إن الهدف كان الحفاظ على الاستقرار، أو على شرفيّة المراتب، وسيجيب بعضٌ آخر، وأنا منهم، أن ذلك هو روتين وبيروقراطية، وعجرفة جماعية. وثمة شيء واحد مؤكد، في أيّ حال، هو أن الخطأ كان جسيمًا في الحالتين.

حدثت ضجة كبيرة حين أنشأت إحدى حكومات الجبهة الشعبية (Front Populaire) مدرسةً للإدارة بهدف كسر الاحتكار الذي تمارسه «مدرسة العلوم السياسية» المذكورة. لم يكن المشروع في محلّه، وربما كان من الأفضل فتح

المجال أمام الجميع لدخول الوظائف الإدارية من خلال المنح الدراسية، على أن تتكفل الجامعات بإعداد المرشحين للوظائف، كما هي الحال في نظام الإدارة العامة الذي يشكّل مركز الثقل في الخدمة المدنية في بريطانيا. لكن الفكرة الأولى كانت أكثر صوابيّة؛ فأيًا كانت طبيعة الحكومة، ستتضرّر البلاد حين تكون أدوات السلطة معادية لروح المؤسسات العامة ذاتها؛ فالنظام الملكي يتطلب وجود موظفين ملكيّين. وتضعف الديمقراطية بشكل يضر جدًّا بالمصالح العامة إذا كان موظفو الدولة يزدرون هذه الديمقراطية بسبب نشأتهم، ويخدمونها على مضض بدافع الضرورة، كونهم يتحدرون من الطبقات ذاتها التي انتُزعت منها السيطرة على الحكم والتي كانت من نصيبهم في السابق.

من ناحية أخرى، أدى نظام اختيار الأعضاء بعضهم لبعض (cooptation) الذي كان سائدًا، سواء أكان رسميًّا أم لا، في جميع الهيئات الكبرى تقريبًا، إلى تعزيز طبقة المسنّين. وكما هي الحال في القوات المسلّحة، فإن الترقّي عمومًا، مع بعض الاستثناءات، كان بطيئًا جدًّا، وكان المسنّون من الضباط يستمرون في المناصب العليا مدةً طويلة، وإذا وافقوا على مدّ سلّم التقدّم لبعض الشباب، فعادة ما يكون هؤلاء من تلامذتهم المختارين الذين يدينون لهم بالولاء. تبدو لنا الثورات في بعض الأحيان مرغوبًا فيها، وبغيضة أحيانًا أخرى، تبعًا لمدى تطابق مبادئها مع مبادئنا. إلّا أن للثورات فضيلة متأصلة في قوتها الدافعة، إذ تنهض بالشباب لتبوّؤ المراكز. إني أمقت النازية في ما أمقت، لكن الثورة النازية، كالثورة الفرنسية، وهي لا ترقى إلى مستوى مقارنتها بها طبعًا، وضعت في مناصب القيادة، سواء على رأس القوات المسلحة أو على رأس الدولة، رجالًا من ذوي العقول النيّرة التي لم تتكوّن عبر قنوات الروتين المدرسي. لذلك كان هؤلاء الرجال جاهزين لفهم «المستغرَب والجديد». نحن ما كنا لنواجههم سوى برجال يكلّل الشيب رؤوسهم أو بشبان عجّز.

مع ذلك، فإن أيّ نظام، مهما كانت المنَعة التي تكتسبها أجهزة إدارته، إنما هو صورة عن المجتمع الذي أنتجه والذي يدّعي أنه يديره. فقد ينقاد السائق للمحرّك أحيانًا، وفي أحيان أخرى لا قيمة للآلة سوى بالأيدي التي تحرّكها.

ينتابني الضحك حين أسمع بعض رجال الأعمال من معارفي يَدينون فساد الصحافة، بعد أن يكونوا قد «مرّروا»، قبل ساعات قليلة، مقالة في أهم صحفنا مقابل دفعهم مبلغًا معتبرًا من المال لأصحاب العلاقة. كما ينتابني الضحك حين يطلب هؤلاء من أحد الوزراء السابقين حكمًا يدافع عن مصالحه الضيقة، ثم يسخر من تلك «الدُّمى» البرلمانية. فمَن أَوْلاهم بالعقاب إذًا: الفاسد، أم المشجع على الفساد؟ يشتكي برجوازيونا الكبار من مستوى الهيئة التعليمية، في حين أنهم لم يجدوا غضاضة في أن يخصّصوا لمعلمي أبنائهم أجورًا أقل من أجور الخدم في منازلهم، في وقت كانت سيطرتهم على موارد الدولة تفوق ما هي عليه الآن. هل سنقول ما يكفي لوصف السوء الذي عانيناه بسبب البخل الفرنسي النتن الذي يُضرَب به المثَل؟ ها هُنا أيضًا، نلمس مرّة أخرى انتصار نفسيّة البلدة الصغيرة على المبادئ الأسمى.

لقد عانى جهازنا السياسي، في المقام الأول، سوءَ فهم كبير عند الفرنسيين، إلى حد أننا بلغنا المأزق بالمعنى الحرفي للكلمة.

*

ظاهرة جيّدة وصحيّة أن تتصارع بلا هوادة الفلسفات الاجتماعية المتضادّة في بلد حرّ. وفي ظل الحالة الراهنة لمجتمعاتنا، لا مفر من أن تكون للطبقات المختلفة مصالح متعارضة، وأن تكون مدركة خصوماتها. إلّا أن مصيبة الوطن تبدأ حين لا تُستوعبُ شرعية هذه الاختلافات.

لقد استعملتُ، هنا وهناك، عبارة «البرجوازية» بشيء من التردّد. إن هذه العبارة التي أضحت مستهلكة عبر الزمن، وخاضعة لانحرافات مستمرة في معناها، تنعكس على العلوم الإنسانية التي لا تزال تتلمس طريقها، وهي ترسم خطوطًا فضفاضة جدًّا لاحتواء حقائق معقدة للغاية. مع ذلك، وحتى إشعار آخر، سيكون من الجيد استخدام المفردات الوحيدة التي توفّرها لنا لغة غير مكتملة، شرط أن يتم تحديد معنى المصطلحات. لذلك، فإنني أدعو برجوازيًّا، في بلادنا، كلَّ فرنسيٍّ لا يدين بموارده لعمله وكدّه، وهو الذي يسمح له دخلُه، أيًّا كان المصدر وأيًّا كان الحجم المتقلّب لهذا الدخل، بتسهيل إمكانات

الرفاهية وتأمين ضمان عيش يفوق إمكانات عيش العامل. كما سأدعو برجوازيًا كل من تميّز بجودة تعلّمه الذي يتلقّاه بدءًا من مرحلة الطفولة أحيانًا، إذا كانت الأسرة تنتمي إلى أصول قديمة، أو يكتسبُه أحيانًا خلال عملية ترقٍّ اجتماعيٍّ استثنائي يسمح بها ثراؤُه أو شخصيتُه أو طموحاتُه، وهو ما يتيح له تجاوز المعايير الشائعة في الثقافة المشتركة. والبرجوازي هو الذي يشعر، أو يعتقد، أنه ينتمي إلى طبقةٍ كتب لها دور في قيادة الأمّة، وأنها تُعبّر عن تمسُّكها بهذه الأصالة والتميّز الجماعي، بشكل فطري إلى حدٍّ ما، عبر الكثير من التفصيلات كالزي واللغة والعادات الاجتماعية.

لقد كفّت البرجوازية، وفق هذا التعريف، عن الشعور بالسعادة في فرنسا، وذلك في فترة ما قبل الحرب. فقد قوّضت الثورات الاقتصادية التي نتجت من الكارثة العالمية الأخيرة، الاستقرارَ الهادئَ لتلك الثروات التي كانت تنعم بها. وقد تبخّر الريْع الذي كان الموردَ الوحيد للرزق تقريبًا للعديد من الأسر، والأمل النهائي لأسر أخرى كانت لا تزال في المراحل الأولى من النهوض الاجتماعي. وحالت مقاومة العمال دون نجاح أيّ ضغوط على أجورهم، وهو ما أدى إلى انخفاض أرباح أرباب العمل وأنصبة أرباح الأسهم مع كل أزمة كانت تحدث. وأدى توسُّعُ الصناعة في البلدان الجديدة، والتقدّم الذي أحرزته في نيل اكتفائها الاقتصادي الذاتي، إلى تراجعٍ متزايد للرأسمالية الأوروبية والفرنسية. وهدّد نموّ الطبقات الاجتماعية الجديدةُ القوةَ الاقتصادية والسياسية لمجموعة كانت قد اعتادت ممارسة قيادة البلاد. كانت تلك المجموعة قد تأقلمت مع المؤسسات الديمقراطيّة، بل إن كثيرًا من أعضائها أنشأوا هذه المؤسسات وفق أهوائهم تمامًا. ذلك أن الممارسات العامة، وعلى جري عادتها، كانت تتجاهل القانون، والبرهان على ذلك أن ورقة الاقتراع التي كانت تُمنح لصغار المزارعين والعمال، ولأكثر من جيل، لم تعدّل شيئًا من الهيمنة التقليدية التي كان يمارسها أعيان الطبقة الوسطى على الريف. إن ورقة الاقتراع هذه خدمت مصالح هذه الطبقة، فساعدتها على القضاء جزئيًا على خصومها القدامى المنتمين إلى الطبقة البرجوازية العليا وطبقة النبلاء، أي هؤلاء الناس الذين كانوا يحتلّون المواقع الخطيرة في الدولة. وكأناس يمارسون التعنّت الأرستقراطي، شكّلت الديمقراطية، بالنسبة إليهم [أي

بالنسبة إلى البرجوازيّة]، مذاقًا مُفعمًا بالإنسانية. لم تكن الديمقراطية بعدُ قد أربكت تعلّقهم بثروتهم أو بصلابة مكانتهم المتواضعة. وقد جاء يوم تغيّرت فيه الظروف بسبب المأساة الاقتصادية، فَعَلا صوت الناخب العام مهدّدًا. وشحذ الشعورُ القويُّ باللامساواة السافرةِ تلك الأحقادَ المضمَرة. واضطر البرجوازي إلى دفع الثمن، وهو ثمن كان يزداد عبؤه يومًا بعد يوم. حصل ذلك قبل أن يقتنع هذا البرجوازي بأنّ الجماهير الشعبية، التي يُشكّل عملُها مصدرَ مكاسبه الفعليَّ، صارت تعمل أقلّ مما كانت عليه في الماضي، وهذا صحيح، بل وأقلّ منه شخصيًّا، ولعل هذا ليس دقيقًا جدًّا في أيّ حال، إذ ينبغي أن نأخذ في الحسبان الاختلافات في درجات الجهد الإنساني. لقد رأينا البرجوازي ساخطًا يتذمّر عندما كان العامل يجد متسعًا من الوقت للذهاب إلى السينما تمامًا مثل رئيسه. كما أن البرجوازي ارتعد حينما لاحظ روح الادّخار عند الطبقات العاملة التي اعتادت وقتًا طويلًا العيش من دون قلق كبير على المستقبل، بسبب غياب الشعور بالأمن المتجذّر في أوساطها. أما الآن، وفي خضمّ هذه الحشود الثائرة، والمتطلبة، والغاضبة بعض الشيء وبعنفها العفوي، طفق المحسنون يبحثون عبثًا عن «الفقير الطيب»؛ تلك الشخصية الرئيسة في روايات مدام دو سيغور (Mme de Ségur). فبدا أنّ قيم النظام والخضوع والتراتبية الاجتماعية المقبولة من الجميع والتي ارتكز عليها نظامهم التعليمي، أدت إلى تنشئة لا تتأقلم بسهولة مع الجديد، وقد حان وقت اختفائها. وقد اختفى معها ما هو أكثر أهمية على الأرجح: شيء من ذلك الشعور الوطني الذي يُطالب البسطاء، ومن دون أن يتنبّه الأغنياء إلى ذلك بما يكفي، بقدر أكبر من التضحية مقارنة بسادتهم.

ولأن البرجوازية باتت قلقة ومستاءة، فقد تملّكها شعور بالمرارة. لذلك فضّلت إدانة هذا الشعب الذي تنتمي إليه والذي تتشارك معه، إن أمعنّا النظر، في الكثير من نقاط التقارب العميق. إلا أنها لم تألف بذل أيِّ جهد من التحليل الإنساني لفهمه. لن نبالغ في تقدير حجم الاضطراب النفسي الذي أثاره ظهور «الجبهة الشعبية» في إثر انتخابات عام 1936، في صفوف الطبقات الميسورة، وحتى في أذهان الأكثر انفتاحًا من أبنائها. فشعر من كان يملك بعض المدّخرات بهبوب رياح الكارثة، وتجاوز رُعبُ ربّات البيوت شعور أزواجهنّ

بالهلع. أما اليوم، فقد انصبّت الاتهامات على البرجوازية اليهودية كونها أجّجت تلك العاصفة. وفي ذلك، ظلم يطال الكنيس اليهودي موضع الشبهات الدائمة، وكذلك المعبد البروتستانتي، في حين أن كليهما أصابه الذُعر بقدر ما أصاب الكنيسة الكاثوليكيّة. وإني على ذلك من الشاهدين. «لا أعرف ما يحصل لصناعيّينا البروتستانت، فقد كانوا حتى وقت قريب يهتمون برفاه عمّالهم، وها هم الآن أشدّ الناس عداوة لهم»، هذا ما قاله كاتبٌ مقرَّب من أوساطهم. وما لا شك فيه أنه بين ليلة وضحاها، بدا شرخ عميق في صلب المجتمع الفرنسي، راح يفصل المكوّنات المجتمعيّة إلى كتلتين متميّزتين.

لا أنوي بالتأكيد الدفاع عن حكومات الجبهة الشعبية إذ لا يحتاج الموتى إلى أكثر من حفنة تراب يلقيها على قبورهم أولئك الذين آمنوا بهم في وقتٍ ما. فقد سقطت تلك الحكومات من دون أن تحقق شيئًا يُذكر. والأسوأ من ذلك أنّ خصومها لم يكونوا مسؤولين عن فشلها وسقوطها. كما لا يعود الفشل إلى الأحداث المتراكمة التي واكبتها. فلقد فشلت محاولات الجبهة الشعبية، في المقام الأول، بسبب الحماقات التي ارتكبها أنصارها والذين ادّعوا التعاطف معها. إلا أن موقف القسم الأكبر من البرجوازيين ليس له ما يبرّره. فقد قاطع هؤلاء الجيّد من المحاولات كما السيئ منها بلا تمييز. لقد شاهدت رجلًا طيبًا يرفض زيارة المعرض العالمي (Exposition Universelle)، حارمًا نفسه بالتالي الاطلاعَ على روائع الفن الفرنسي، وهي كنوزٌ لا تُضاهى ومصدر فخر لأمتنا. وهذا الموقف المقاطِع سبّبه افتتاحُ المعرض برعاية وزير مذموم وانصياع السلطات لشروط النقابات العمّاليّة. وقد كان ذلك، في نظر الرجل الطيب المذكور، سببًا كافيًا لمقاطعة المعرض. وكم علا الصراخ المستنكر لما أشيع عن تنظيم حفلات الترفيه، وكم كان هذا التنظيم مصدر سخرية ومقاطِعة. واللافت اليوم أن الأشخاص أنفسهم يحيّون الجهود إيّاها لاستئناف الفكرة نفسها بشيء من الجدّية، إذ يقودها نظام يوافق أهواءهم ولو تحت مسمى آخر.

أيًّا كانت الأخطاء التي ارتكبها القادة، فقد انطوى هذا الاندفاع الجماهيري مع نجاح الجبهة الشعبيّة على آمال بعالم أكثر عدلًا، وعلى صدق مؤثر جدًّا

بحيث لا يمكن لأيٍّ قلب سليم إلا أن يتأثر به. وأقول: كم من بين رجال الأعمال الكثر الذين صادفتهم كان قادرًا، على سبيل المثال، على فهم ما ينطوي عليه من مطالب نبيلة ذاك الإضراب التضامني، على الرغم من أنه جاء في وقت غير ملائم. ثمة نوعان من الفرنسيين الذين لن يفهموا تاريخ فرنسا: أولئك الذين لا تخفق قلوبهم لذكرى تتويج الملوك في مدينة رانس (Reims)، كما أولئك الذين يقرأون قصة عيد الاتحاد (fête de la Fédération) بلا ارتعاش. وبقطع النظر عن خياراتهم السياسيّة، فإن عدم تأثرهم بأجمل مظاهر الحماسة الجماعية يكفي لإدانتهم. ففي تجربة الجبهة الشعبية بالذات - أعني الجبهة الشعبية الحقيقية، الممثلة بالحشود الشعبية وليس بالسياسيين - استُعيد شيء من الجو الذي عرِفَهُ الشان دو مارس (Champ de Mars)، تحت الشمس الساطعة في 14 تموز/يوليو 1790. وإننا لنأسف لأنّ الرجال الذين أقسم أسلافهم اليمين على مذبح الوطن فقدوا تواصلهم مع هذه المناهل العميقة. وليس من قبيل المصادفة أن نظامنا الذي يُفترض أنه ديمقراطي، لم يعرف قط كيف يُعيد إلى الأمة الأعيادَ التي كانت بالفعل ملكًا للجميع. عوضًا عن ذلك، سمحنا لهتلر بإعادة بث أناشيد الآلهة الوثنيّة البائدة. عرفتُ، في صفوف الجيش الأول، ضباطًا كُلّفوا الحفاظَ على «الروح المعنوية» للقوات المسلّحة. ومن أجل تحقيق هذا الغرض، اختارت القيادة مصرفيًّا من باريس، وصناعيًّا من شمال البلاد. وقد اعتقد هؤلاء الضبّاط أن، لتمرير «بعض الحقائق» في الصحف الصادرة عن جبهة القتال، لا بدّ أولًا من إلباسها لباس الفكاهة السمجة. أما في التمثيليات التي كانت تقام على المسارح والتي يخصّصها الجيش للترفيه، فكان الهَزل على قدرٍ دسم من المجون. لقد ابتعدت البرجوازية من الشعب تدريجًا بعد أن تخلّت عن الاختلاط به، وراق لها التحول عن التيارات الروحيّة الأصيلة التي يجسدها، كما كانت تاريخيًّا عاجزة عن أخذه على محمل الجد. فصارت تخشى منه، ولذلك ابتعدت، من دون وعي منها، عن فرنسا بالذات.

وكون البرجوازيّة قد أشبعت النظام الفرنسي اتهامًا، فإنها جنحت إلى إدانة الأمّة نفسها التي تبنّت هذا النظام. وأدى فقدانها الأمل في مستقبلها إلى فقدان إيمانها بالوطن. هل تعتقدون بأنني أبالغ؟ اقرأوا إذًا، مرة أخرى،

الصحف التي كانت تقرأها البرجوازيّة في الأمس وتبث فيها أفكارها لتطّلعوا على حقيقة الأمر. حين خرجت بلجيكا من صفوف الحلفاء لمصلحة حياد وهميّ، للأسف، قال لي صديق من بروكسل: «لا تتخيلوا مدى الضرر الذي لحق بقضيتكم بسبب صحفكم الأسبوعية الكبيرة. فهي تنشر في كل أسبوع أن الفساد مستشرٍ عندكم، ونحن لا نجد سبيلًا غير تصديق ما تكتبه». والحق يقال إننا نشارككم هذا الاعتقاد. فقسمٌ كبير من طبقاتنا الحاكمة حاليًّا، تلك التي زوّدتنا بمديري المصانع، والإداريين الرئيسين، وأغلبية ضباط الاحتياط، جميعهم دخلوا الحرب مسكونين بهذا الهاجس. كانوا يتلقون أوامرهم من نظام سياسي بدا لهم فاسدًا حتى النخاع، وكانوا يدافعون عن بلد اعتبروه سلفًا عاجزًا عن المقاومة، كما كانوا يقودون جنودًا قادمين من شعب يعتبرونه منحطًّا[19]. وأيًّا كانت شجاعتهم الفرديّة وعمق وطنيتهم في هذه الحالة، فهل كان ذلك إعدادًا ذهنيًّا ملائمًا لقتالٍ من المفروض به أن يستمرّ «حتى الرّمق الأخير»؟

واللافت أن أشكال التحيّز هذه كانت مشتركة بين أبناء البرجوازية من ضباط الأركان. وهذا لا يعزى بالضرورة إلى أن الداء قد أصاب الجميع إلى هذه الدرجة، إذ لا يسعنا التأكيد أن جميع الضباط المحترفين، بمن فيهم أولئك الذين يشغلون أعلى الرتب، قادمون من أوساط ميسورة بالوراثة، بل على العكس من ذلك، كان كثيرون منهم قريبين جدًّا من الطبقات الشعبيّة. وبالتزامهم مبدأ الشرف، كانوا في معظمهم بعيدين تمامًا عن أيّ توجهات مركنتيليّة. إن مستقبل الرأسمالية، على افتراض أنهم وقفوا لحظة للتّمعن في أمره، لم يكن بالتأكيد مصدر اهتمامهم الخاص، ولم تكن مسألة إعادة توزيع الثروة لتُخيف أكثريتهم. لقد كانوا في ما كانوا، وفي معظمهم، رجالَ واجب ووطنيين مخلصين، كانوا جنود فرنسا! ولكانوا استشاطوا غضبًا لو اعتُبروا

(19) 29 آب/ أغسطس 1914 - «صندوقي البريدي يمتلئ أكثر فأكثر. يشمل في عداده الكثير من الالتماسات المقدَّمة من الكهنة، أو من النساء، تطالبني بإلحاح أنْ أنذر فرنسا للقلب المقدس. وكثير من هذه الالتماسات مؤثر... في حين يبدو بعضها الآخر مستوحى للأسف من العاطفة السياسية، بدلًا من الشعور الديني. وقد جرى تقديم هزائمنا فيها بوصفها عقابًا مستحقًا أنزله الله على الجمهورية. فهل بات الاتحاد المقدس بالتالي مهددًا...؟». يُنظر: Poincaré, *Au Service*, t. V, p. 165.

بمنزلة جنود مرتزقة تحركهم بعض المصالح الخاصة أو الطبقية. ورغم ذلك كله، هل كانوا يدركون خصائص الواقع الاجتماعي؟ لقد رفعت المدرسة والطبقة والتقاليد جدارًا من الجهل وسوء الفهم من حولهم، فكانت أفكارهم غاية في البساطة: فـ «اليساريون» في نظرهم يناهضون «العسكر» وتفكيرهم غير سوي، كما أنهم لا يحترمون السلطة، وهي، وكما يعلم الجميع، القوة الرئيسة للجيوش. أما الاشتراكيون، فقد كان الضبّاط على قناعة بأنهم يعرفونهم منذ مدة طويلة، أنفار جنود سيّئون يتذمرون باستمرار من نوعية الوجبات التي تقدّم لهم في داخل الثكنات، وأسوأ ما فيهم أنهم قد يلجأون إلى الصحف لنشر شكواهم. وكلّ من تواطأ مع هؤلاء الأشخاص جامت حوله الشبهات. فالرئيس روزفلت نفسه كان على شيء من «البلشفية»، وهذا ما ردّده على مسمعي أحد رؤساء الأركان. علاوة على ذلك، كان القادة العسكريّون في معظمهم قليلي الفضول، ومدرَّبين منذ سنّ المراهقة على نبذ الهرطقات. فكانوا مكتفين ذاتيًّا بالعقيدة الضيّقة، وما كانوا ليسعوا بأيّ شكل من الأشكال إلى الاطلاع على المعلومات الجديدة. وكانت على مائدتنا في المطبخ صحيفة لو تان موجودة بين الأوراق المبعثرة على تلك الطاولة، وكانت تمثّل في رأيهم أقصى اليسار. وبالتالي فإنّ مجموعة من القادة الشبان من بين الأكثر فطنة ما كانوا ليتصفحوا ولو بشكل بسيط جريدةً تعبّر، عن صواب أو عن خطأ، عن رأي أغلبية الشعب الفرنسي.

لنعترف بأخطائنا. وهي ليست أول مرةٍ آسف فيها على ما يدور: إنّ الرجال الذين عهد إليهم، في السنوات الأخيرة، شرفُ تمثيل ما يملكه الوطن من توجهات فكرية، ليبرالية بحق، نزيهة، ومفعمة بالتقدّميّة الإنسانيّة، ارتكبوا أسوأ أخطائهم حين امتنعوا عن بذل أيّ جهد لإيصال أصواتهم بأفضل شكل، إلى طبقة من المهنيّين ما زالوا يتمتّعون بقيم أخلاقية عالية. أعتقد أن تاريخ سوء الفهم يعيدنا إلى تاريخ قضية درايفوس. وطرفُنا لا يتحمّل بالتأكيد أيَّ مسؤولية في هذا الموضوع، إلا أن ذلك لا يعفي ولا يبرّر. فكمْ من مرة همستُ لنفسي عندما وجدت رفاقي يغبّون من ينابيع الكره والغباء التي تنشرها الصحف الأسبوعية التافهة حتى في خلال الحرب، وكم ردّدت: «من المؤسف أن مثل

هؤلاء الفتية الأبطال لا يفقهون شيئًا! يا له من عار! فما من أحد حاول أبدًا إطْلاعهم على الحقيقة!».

لكن ما حدث قد حدث، ولا بدّ لنا الآن من تقدير حجم النتائج. لم يكن قادتنا على دراية كافية بالموارد اللامتناهية للشعب، ولم يدركوا أن هذا الشعب أكثر نقاء مما كانت تبثه تلك الدعايات اللئيمة. لذلك لم يستطيعوا، استخفافًا منهم وجريًا على العادة، اللجوء إلى مخزون الاحتياط العميق الذي يدّخره هذا الشعب للوقت المناسب. لذلك اختاروا لأنفسهم سلوك طريق الهزيمة، لا بل كانوا على قناعة، ومنذ اللحظة الأولى، أن الهزيمة حاصلة لا محالة. فأمّنوا بفعل إلقائهم السلاح قبل الأوان انتصار فصيل معين. كما سعى بعضٌ منهم أيضًا، وقبل كل شيء، إلى توسّل الانقلاب لإخفاء الأخطاء التي ارتكبها. فيما كان بعضٌ آخر، في القيادة العليا وفي معظم صفوف الجيش، أبعد من أن يسيروا خلف هذه الخطط الأنانية، فاستقبلوا الكارثةَ بغضب بالغ. بيد أنهم رضخوا للهزيمة في وقت مبكر جدًّا، إذ وجدوا فيها ضالّتهم، أي العزاء الرهيب بأن الإمكان صار متوفرًا لسحق نظام سياسي ملفوظ حتى ولو كان ذلك على أنقاض بلادهم. فكانت الفرصة لينحنوا حينئذٍ أمام عقاب[20] أنزله القدر بأمّتهم المذنبة.

*

أنتمي إلى جيل يؤنّبه ضميره باستمرار. فقد خرجنا من الحرب الفائتة مرهقين بالفعل. وبعد أربع سنوات من البطالة، كنا على عجل من أمرنا لاستعادة وظائفنا المختلفة التي أهمِلت بفعل غيابنا. لقد كنا نريد، وعلى جناح السرعة، تعويض الوقت الضائع. تلك كانت أعذارنا، ولكني ما عدت أعتقد، ومنذ مدة طويلة، أنها تكفي لإعفائنا من المسؤولية.

كان كُثُرٌ منا يدركون، ومنذ وقت مبكر اندفاعنا نحو الهاوية العميقة التي تفصل الدبلوماسية المنبثقة من معاهدة فرساي عن دبلوماسية «الروهر» (Ruhr). لقد أدركنا أن تضارب الدبلوماسيّتين قد تسبّب بإخفاق مزدوج. فمن جهة تسبَّب

(20) وكان هاجس العقاب يشغل بال الفرنسيين قبل عام 1914.

بالتشويش على علاقاتنا الدولية بحلفائنا السابقين، ومن جهة أخرى استمرينا على علاقات متأزّمة بالعدو القديم الذي سبق وتمكّنا من هزيمته بشق النفس. وما كنا لنجهل في المقابل ما كانت عليه بريطانيا العظمى وألمانيا من جبروت. فالرجال الذين رأوا، اليوم وقبل أن تدق ساعة هزيمتنا، أنّ علينا أن نتّبع حكمة لويس الثامن عشر القنوعة، هم أنفسهم المسؤولون الذين كانوا يدعون إلى التمثّل بجبروت لويس الرابع عشر. لكننا لم نكن من الغباء لنصدِّق، على هذا النحو، أن سياسة العظمة هذه قد تكون مواتية لفرنسا التي كانت تعاني الإفقارَ والتراجعَ النسبي في عدد سكانها وهزال إمكاناتها الصناعيّة، هذا إذا افترضنا أنها كانت على عكس ذلك في أيٍّ وقت مضى. وطالما أننا لم نكن أنبياء لم نتوقّع ظهور النازيّة، لكننا كنا نشعر أن الانتفاضة النازية ستحدث يومًا ما، مع اعترافنا بأننا لم نستشرف معالمها بدقة. وهذه الانتفاضة التي غذّتها الضغائن كانت انطلاقتها رهيبة. ولو سُئلنا في حينه عن النتيجة المحتملة في حال اندلاع حرب ثانية، لأجبنا على الأرجح بأننا نأمل في نصر ثانٍ، لكن من دون أن يغيب عن ذهننا أنه في هذا الإعصار المتجدد، ستتعرّض الحضارة الأوروبية لخطر الانحدار إلى الأبد. من جهة أخرى، كنا نستشعر بروزًا خجولًا لنيات طيبة في ألمانيا، نيات تبنّت رؤية سلمية صريحة وليبرالية نزيهة، كان على قادتنا العمل على الترحيب بها. ومع أننا كنا نعرف ذلك كله، تجاهلنا الأمر بسبب تقاعسنا وتخاذلنا. لقد خشينا معارضة الحشود الشعبية وسخرية الأصدقاء وازدراء القادة غير المبرّر. لم نجرؤ على أن نكون الصوت الذي يصرخ في الأنام، وإن كان في البدء صوتًا صارخًا في البريّة، ولكن على الأقل، ومهما كانت احتمالات الظفر النهائي، لم يكن لنا شرف إعلاء النداء بما يُمليه علينا الضمير. لكننا فضّلنا اللجوء إلى الهدوء الحذر في أماكن عملنا. فلْيغفرْ لنا الأحداث من الجنود دماءهم المهدورة وقد تلطخت بها أيدينا!

إن كل ما ذكرتُه في الصفحات السابقة، عن أوجه التقصير التي قوّضت تدريجًا السلامةَ المتينة للبلاد، وعن الفتور الفكري لدى الطبقات الحاكمة وضغائنِها، وعن الدعاية المتهافتة ورواياتها المزيفة التي أفسدت عقول عمّالنا، وعن حكم الشيوخ (gérontocratie) في نظامنا، وعن القلق في أوساط الجيش كما في الأمّة، كل هذا أو جله تقريبًا، تطرّقنا إليه منذ وقت طويل، من خلال مجموعات

من الأصدقاء الموثوقين. إنما علينا أن نسأل من رفع الصوت عاليًا بهذا الصدد؟ إنني على يقين أننا لم نكن في حينه من الملتزمين سياسيًّا ولا داعي للأسف على ذلك. أما الذين التحقوا بالأحزاب السياسية، ولو كان ذلك على وجه الاستثناء، فلقد انتهى بهم الأمر إلى ارتهانهم لتلك الأحزاب بدل أن يكونوا من مرشديها. ما كان للواجب أن يدعونا إلى خوض غمار المعارك داخل اللجان الانتخابيّة إذ كنا نتمتّع بملكة الكلام والكتابة والعقول النيّرة. ولأننا كنا من محبّذي علوم الإنسان أو كنا علماء، دنياهُم المختبرات، تحوّلنا عن العمل الفردي بسبب الحتمية الكامنة في تخصّصاتنا ذاتها. فقد اعتدنا من خلال ممارساتنا العلمية اعتبار كل شيء، في المجتمع وفي الطبيعة، مسرحًا لتفاعل قوى ضخمة. فأيّ دور إذًا للعمل الفردي أو لتخبّط الغريق في مواجهة الأمواج الهائلة ذات المدى الكوني؟ هذا ما كنا نميل إلى تصديقه كرجال علم، إنما كان هذا المفهوم يشكّل تفسيرًا مغلوطًا للتاريخ. أليست أهم السمات التي تتميّز بها حضاراتنا هي تلك التي تتجسّد في ارتقاء وعي الأمّة الجماعي؟ وهنا يكمن المدخل لفهم الكثير من التناقضات التي تؤسّس للصراعات بين مجتمعات الأمس ومجتمعات اليوم. إنّ التحوّل القانوني الحاصل لا يتم بالطريقة ذاتها التي يتم عبرها التحوّل التلقائي بحكم الطبيعة.

فالعلاقات الاقتصادية لا تحكمها القوانين نفسها، إذ إنّها رهن معرفة مختلف المشاركين في هذه التبادلات بالأسعار المتداولة. والحال هذه، أوَليس هذا الوعي الجماعي حصيلةَ الكثير من أشكال الوعي الفردي التي ما برحت تتفاعل بعضها مع بعض من دون انقطاع؟ إن تأمين فكرة واضحة عن الاحتياجات الاجتماعية، كما السّعي لنشرها، يكون بزرع بذور الخميرة في الذهنية المشتركة، وذلك لتوفير الفرصة لبعض التحول في مجرى الأحداث التي هي بالنتيجة محكومة بإيقاع طرائق تفكير الناس. وعلّنا نعترف مرّة تلو مرّة أننا كنا مشغولين بمستلزمات العمل اليومي ويجوز لنا أن نجاهر بأننا كنا عمّالًا جيّدين! ولكن هل يحق لنا المجاهرة بأننا كنا دائمًا مواطنين صالحين بما فيه الكفاية؟

أنا لا أسترسل في الحديث عن وخز الضمير وكأني أستلذّ بهذا الإحباط الذي يتملّكني. لقد علمتني التجربة أن الاعتراف بالخطيئة لا يجعلها أقل عبثًا

على المرء. بل يأخذني التفكير إلى أولئك الذين سيقرأون هذه الصفحات، أي أبنائي بالتأكيد، وآخرين غيرهم، وربما بعض الشباب يومًا ما. لذلك أطلب منهم التفكير في أخطاء من سبقوهم. ولا يهمّ إن كانوا سيحكمون عليهم بالقسوة والشدة التي تتميز بها النفوس التي لا تزال غضّة، كما لا يهم أن تلتمس الأجيال الصاعدة طوعًا الأعذار للأجيال الهرمة التي سبقتها. المهم في الأمر أن يدركوا هذه الأخطاء ليتجنّبوها.

واليوم نجد أنفسنا في هذا الوضع الرهيب حيث ما عاد مصير فرنسا بيد الفرنسيين. إنّ الأسلحة التي لم نحملها بقبضة قوية بما فيه الكفاية، سقطت من أيدينا، لذلك صار مستقبل بلدنا وحضارتنا مرتبطًا بنضال لسنا فيه، في معظم الأحيان، أكثر من مجرّد متفرجين نزل بهم شيء من الذل. أما الذي سيحلّ بنا إن هُزِمت لسوء الحظ بريطانيا العظمى، فهو التأخّر في نهوضنا الوطني مدةً أطول. لكني مقتنع أنه سيكون مجرّد تأخر، لأن المقوّمات العميقة لشعبنا سليمةٌ وجاهزةٌ للنهوض من جديد. في المقابل، لا تستطيع مقومات النازية الخاصّة أن تحمّل ألمانيا إلى الأبد عواقب التوتر المتزايد الذي ينوي سادتها الحاليون فرضه عليها إلى الأبد. أخيرًا، ربما وجدت الأنظمة «التي فرضها علينا العدو الخارجي»، في بعض الأحيان، مرتعًا عندنا لمدةٍ محددة، لكنها بالنسبة إلى أمة تشعر بالفخر، ليست سوى فترة استراحة مؤقتة ممنوحة لمن نزل به حكم ما. أوَلا ندرك بالفعل أن جرح الاحتلال يزداد عمقًا في أجسادنا يومًا بعد يوم؟ ما عاد التظاهر بحسن النيّة يخدع أحدًا بعد الآن. وللحكم على النزعة الهتلرية يكفي، في رأينا، مشاهدة ما تقوم به تلك النزعة. وكم أُفضّل استحضار صورة انتصار بريطانيا! ولا أعرف متى سيحين الوقت لنستعيد قدرتنا على التحكم في مصائرنا بفضل حلفائنا. هل سنرى حينها أجزاء من بلادنا وهي تتحرّر واحدًا تلو الآخر؟ وتتشكل حينها موجات من جيوش المتطوعين، مبادِرة إلى تلبية نداء: «الوطن في خطر!». وهل نرى حكومة مستقلة تنبثق في مكان ما، وتتسع سلطتها كمثل نقطة الزيت لتتوسع شيئًا فشيئًا؟ أم إن زخمًا عارمًا سيجعلنا ننتفض فجأة؟ تدور كلّ هذه الصور في رأس مؤرخ قديم، لا يسمح له علمه المتواضع أن يختار في ما بينها، إلا أنني أقولها بصراحة: أتمنى في كل الأحوال أن يبقى لدينا دائمًا دمٌ نبذله في سبيل هذا

الوطن. وما هم إن كان دمَ أقرب الناس إليَّ. وهنا لا أقصد دمي أنا الذي لا أُعيره تلك الأهمية، وذلك لأن لا خلاص بلا تضحية، ولا حرية وطنية إذا لم نعمل على انتزاعها من المغتصب.

أما مهمة بناء الوطن، فهي لا تقع على رجال في مثل عمري. إن فرنسا الهزيمة قد حظيت بحكومة من العجائز، وهذا أمر طبيعي. أما فرنسا الربيع الجديد، فينبغي أن تكون مرتعًا للشباب. وسيتميّز هؤلاء الشباب عن أسلافهم بعدم الركون إلى الكسل بعد تحقيق النصر. فمهما كان النجاح المحقَّق في نهاية المطاف، ستظل كارثة عام 1940 الفظيعة ماثلة أمامنا. ولعل من الجيد أن نُضطر إلى العمل ونحن في حالة من الغيظ! لن أتجاسر إلى حدّ ادعاء القدرة على رسم برنامج يسير عليه شبابنا؛ فلسوف يرسمون بأنفسهم القوانينَ المنبثقةَ من أعماق عقولهم وقلوبهم، وسيعملون على تكييف العبر المستقاة من سير الأحداث. إلّا أننا نناشدهم فقط أن يتجنّبوا جفاف الأنظمة التي تدّعي، عن حقد أو عن تفاخر، أنها تهيمن على الحشود، من دون أن تبذل جهدًا لتعليمها أو التواصل معها. يستحق شعبنا أن نثق به وأن نشاطره أسرار الحكم. كما نتوقع من الشباب أيضًا، حين يعملون على التجديد، الكثير من التجديد، ألّا يقطعوا الروابط بتراثنا الأصيل. فهو ليس، أو على الأقلّ ليس بأكمله، في المكان الذي يريد بعض الأنبياء الكذبة زجّه فيه. قال هتلر ذات مرّة لراوشننغ: «نحن على حق إذا ما راهنا على رذائل الناس أكثر من رهاننا على فضائلهم. فقد استصرخت الثورة الفرنسية فضائل الناس»، والأحرى بنا أن نفعل العكس. وبعد فاسمحوا لفرنسي، أعني لرجل متحضّر وهو كذلك بالفعل، إن كان يفضّل على تعاليم هتلر تعاليم الثورة الفرنسيّة وتعاليم مونتسكيو حين يقول: «في دولة للشعب، لا بد من حافز وهو الفضيلة». وما هَمَّ إن أضفنا صعوبة أخرى إلى المهمّة الموكلة إلينا؟ فالشعب الحر الساعي نحو الأهداف النبيلة إنما يركب المخاطر المضاعفة. فهل يعقل أن نطلب من الجنود في ساح المعركة أن يحاذروا المخاطر؟

غيري فوجير (كروز) Guéret-Fougères (Creuse)

تموز/ يوليو – أيلول/ سبتمبر 1940

وصية مارك بلوخ

كليرمون فيران (Clermont-Ferrand)، 18 آذار/ مارس 1943

سواء وافتني المنيّة على أرض فرنسا أم في بلاد الغربة، وفي أيّ وقت كان، أترك لزوجتي العزيزة، أو، في حال غيابها، لأبنائي، مهمة تنظيم جنازتي وفق ما يرونه مناسبًا. لقد اخترت أن تكون هذه المراسم مدنية بحتة، إذ يعرف أقربائي أنني لا أرغب إلّا في ذلك. آمل أن يوافق أحد الأصدقاء في ذلك اليوم، سواء في غرفة الميت أو عند المقبرة، على تلاوة الكلمات القليلة التالية:

لم أطلب أن ترنّم الصلوات العبرية على ضريحي على الرغم من أن إيقاعاتها رافقت كثيرًا من أسلافي كما رافقت والدي، إلى مثواهم الأخير. لقد جاهدتُ طوال حياتي، وبقدر استطاعتي، أن ألتزم الاستقامة التامة في التعبير وفي التفكير. إني أعتبر أن ممالأة الرّياء، مهما كانت الذرائع التي يمكن أن تبرّر ذلك، هي أسوأ وباء ينخر الروح. وكم أرجو أن تُنقش على قبري، كما نُقش على قبر من هو أعظم منّي شأنًا، هذه الكلمات: «كان يعشق الحقيقة» (Dilexit veritatem). ولهذا السبب، وفي لحظة الوداع الأخير هذه، حيث يتعيّن على المرء أن يختصر مسيرته الذاتية، كان من المستحيل بالنسبة إليَّ أن أحبّذ أيَّ دعوة تشير إلى انتمائي إلى مذهب «ديني مستقيم» لا أعترف بتعاليمه.

لكن أكثر ما آنف منه، هو أن يستخلص أحد ما أن في موقفي الصادق هذا، والذي ألتزمه، دليلًا على تخاذل أو تراجع. لذلك أؤكد، إذا لزم الأمر، وفي مواجهة الموت، أنني ولدتُ يهوديًّا، وما من داعٍ للدفاع عن نفسي لهذا السبب

ولا من مبرّر. في عالم تحاصره بربرية فتّاكة، أليست التقاليد السامية للأنبياء العبرانيين، وتعاليم المسيحية في أنقى صورها، هي ما يؤمّن أفضل أسباب العيش والإيمان والنضال؟ لقد شعرتُ، طوال حياتي، بأنني بعيد من كل انتماء طائفي رسميّ، أو ما يدعى تضامنًا عرقيًّا، لأني شعرتُ دومًا وبكل بساطة أنني فرنسي في المقام الأول. لقد تعلقتُ بوطني بفضل تقليدٍ عائليّ متجذّر، يُغذّيه تراثُه الروحي وتاريخُه المديد، إذ حقًّا لا أستطيع أن أختار وطنًا آخر يحلو لي فيه العيش. لذلك أحببتُه وخدمتُه بقدر ما استطعت. ولم أعتقد يومًا أنّ كوني يهوديًّا قد شكّل عائقًا بوجه هذه المشاعر. لم يُقدَّر لي الاستشهاد في سبيل فرنسا في الحربين المتتاليتين، لذلك اسمحوا لي على الأقل أن أدلي بهذه الشهادة، بكل صدق: سأموت، كما عشت، فرنسيًّا بارًّا.

خلال مراسم الدفن يرجى، إن توافرت النصوص، أن تُتلى كلمات التنويه الخمس الخاصّة بي والصادرة عن قيادة الجيش.

المراجع

Bloch, Marc. *Les Caractères originaux de l'histoire rurale française* (1931).

______. *L'Étrange Défaite.*

______. *La Société féodale.*

Charlesworth, Martin. *Les Routes et le trafic commercial dans l'Empire romain.*

Les Documents secrets de l'État-Major général français.

Jouvenel, Bertrand de. *La Décomposition de l'Europe libérale.*

La Blache, Vidal de. *Annales de Géographie.*

Leroy, M. *La Pensée de Sainte-Beuve.*

Mémoires du Maréchal Joffre (Faux renseignements sur les corps de réserves allemands) [Juillet 1942].

Pierrefeu, J. de. *Plutarque a menti.*

Poincaré. *Au Service.*

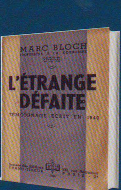
Reynaud, Paul. *Le Problème militaire français* (1937).

Strasser, Otto. *Hitler et moi.*

Taine, Hippolyte Adolphe. *Origines de la France contemporaine.*

فهرس عام

هذا الكتاب



وثيقة كتبها مؤرخ كبير من خلال تجربته كضابط في الجيش الفرنسي كان في الميدان عند اجتياح جيش هتلر بلجيكا واحتلاله الأراضي الفرنسية في الوقت الذي كان الجيش الفرنسي يتراجع من دون خطة. يشرح المؤلف أسباب الهزيمة يومًا بيوم وسط الفوضى التي ضربت القيادة العسكرية والضباط. يقول: إن الهزيمة هي فكرية في الأساس لأنها حصيلة مواجهة بين خصمين ينتميان إلى عصرين مختلفين، فالاستراتيجيا الفرنسية العسكرية تنتمي إلى الحرب العالمية الأولى بينما كان الجيش الألماني مواكبًا كل التطورات الميدانية والمادية.

وفي سياق المقارنة بين الحرب الأولى والثانية، يقول المؤلف إن: التاريخ هو علم التغيير، وأنه يَعلَم ويُعلِّم أن أي حدثين لا يتشابهان أبدًا في ظروف حدوثهما.

ولكن المشكلة لا تتعلق فقط برجال الحرب، فالاستهتار تفشى في كل المجالات؛ العيب كان في النظام الذي كان من المفترض أنه ديمقراطي، إلاّ أن النظام البرلماني كثيرًا ما كان يقوم على الدسائس.

هذه الوثيقة هي في الوقت نفسه درس في التاريخ بقلم مؤرخ بارز.

المؤلف

مارك بلوخ، مؤرخ فرنسي (1886-1944) درس في مدرسة المعلمين العليا، ومارس التعليم في جامعات ستراسبورغ وباريس، أسس مع لوسيان فيفر مجلة **حوليات التاريخ الاقتصادي والاجتماعي** (*Les Annales, Histoire, Sciences sociales*) في عام 1929. متخصص في القرون الوسطى. له العديد من المؤلفات: **التاريخ الزراعي لفرنسا**؛ **مهنة المؤرخ**؛ **المجتمع الإقطاعي**. شارك خلال الحرب العالمية الثانية في المقاومة ضد الاحتلال الألماني. اعتُقل في عام 1944 وأعدمه النازيون.

المترجمة

غومَريّة سعيد سلطاني، كاتبة ومترجمة وباحثة في العلوم السياسية. مهتمة بالمنظور المقارن في الجماعات الإسلامية وحركات الإسلام السياسي. من ترجماتها: **معارك حول الإسلام في الغرب** (2009)؛ **جدل الوجود الاسلامي في أوروبا: قصة المآذن السويسرية** (2010)؛ **إسلام السوق** (2015)؛ **الأناركية** (2015).

فلسفة وفكر
اقتصاد وتنمية
لسانيات
آداب وفنون
تاريخ
علم اجتماع وأنثروبولوجيا
أديان ودراسات إسلامية
علوم سياسية وعلاقات دولية